

أعلام العرب

١١٦

عَبْدُ الْوَهَّابِ الشَّعْرَانِي
إِمَامُ الْقُرْنِ الْعَاشِرِ

تَأليف

عبد الحفيظ فرغلي على القهرني



المطبعة النورية بدمشق

١٩٨٥

الاخراج الفنى

راجية حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشِيدًا

تقديم

بقلم فضيلة الامام الاكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلاة الله وسلامه
على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن
اتبع هديه الى يوم الدين .

وبعد ، فان الله - جلّت حكمته وتعالّت كلمته - قد اصطفى
من عباده قوما ساروا على الحق واتبعوا طريقه ، واخلصوا لله في
سرهم وعلايتهم ، وتحققوا بقوله تعالى « اياك نعبد واياك نستعين »
فغمرهم الله برحمته واکرمهم بمعرفته ، وافاض عليهم من علمه
فازدادوا له حبا وبه معرفة .

صفا ايمانهم وقوى يقينهم فاشتد اقبالهم على الله ، وحققوا
معنى الافتقار بفرارهم النائم اليه ، لم يستكثروا في جنب الله
طاعة ، ولم يستصغروا زلة ، فلم يهدأ لهم بال . ولم يغفص لهم
جفن ، ولم يستقر بهم مضجع . فحياتهم ليل قائم ونهار صائم وحين
دائم ، وذكر لا ينقطع وشوق لا يهدأ ، يقتفون في ذلك أثر قائدهم
الأعلى سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي
يحكى القرآن الكريم حاله قائلا : « ان صلاتي ونسكي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين » .

ومتابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - شرط جوهرى في
التصوف ، فهو على حد تعبير الصوفية : علمنا هذا مشيد بالكتاب
والسنة .

والرسول صلى الله عليه وسلم - كان قمة خلقية سامقة ، وصفه القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم ، وحكى عن نفسه قائلا « أدبني ربي فاحسن تأديبي » وكان هذا النهج الخلقي السامي منارا للصوفية ، يسرون في ضوئه ، ويقبسون من هديه ، وكان شعارهم العمل : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه . ولذلك نسمع حجة الاسلام الامام الغزالي - رضى الله عنه - يقول : « ان الطريق الى التصوف هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى » ويقول : « لو رأيت انسانا يطير في الهواء ويمشي على الماء وهو يتعاطى امرا يخالف الشرع فاعلم انه شيطان » .

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - هو المثل الأعلى للصوفية جميعا . يسرون على منهجه وينسجون على منواله . هو امامهم الاسمى في كل ما يأتون ويدعون وهم يتابعونه مهتمين في ذلك بقول الله - عز وجل - : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

هذا هو الطريق الصوفي : التزام بالشرع ومتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وجهاد للنفس ، وتحل بالأخلاق الفاضلة ونصح للعباد وعلم وعمل ..

ومن القمم العلمية الصوفية التي يعتز بها الطريق الصوفي الامام القطب « عبد الوهاب الشعراني » رضى الله عنه . الذي عاش في القرن العاشر الهجرى ..

فقد كان صورة مثالية للصوفية في عصره ومنارا للسالكين بعده ..

جاهد في الله حق جهاده على بصيرة ومعرفة ، فهابه الملوك

والامر . لأنه لم يذل نفسه لهم بل اعتز بعزة الله الذى وهبه العلم والمعرفة فسان بذلك حق العلم وحفظ نعمته ورفع من مكانة العلماء .

وتخلق باخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم - التى يعتز بها الصوفية فكان مثالا كاملا فى الورع والتواضع والزهد والكرم والحياء . . .

ولم يقف بمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه ولكنه وجد من الواجب عليه أن يكون أداة صالحة فى ترقيته وتثقيفه والأخذ بيد أفرادها الى ما هو افضل ، والعمل على انصافهم من حكاهم ورؤسائهم . واعطاه الله فهما ثاقبا فتنبه لما يحيط به من خرافات واوهام ، فجهر بكلمة الحق واعطى للناس صورة صحيحة للتصوف الحق حتى يفلق الطريق أمام ادعيائه ومستغليه ومشوهى صورته .

وكان الشعرانى - الذى تخرج فى الأزهر - عالما مستنيرا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، فهاله أن تتضارب آراء الفقهاء فيما بينهم . وتتضارب آراء الفقهاء والصوفية ، فحاول أن يضع بتأليفه المتعددة وآرائه الثاقبة منهجا صحيحا يوفق فيه بين هذه الآراء المتضاربة والمذاهب المختلفة ، حتى يبند ما علق بالأذهان من شبهات واختلافات ، وكان سباقا فى هذا الميدان ، وتأليفه الكثيرة تشهد بذلك من أمثال : كشف الغمة ، والميزان .

لقد صلق الشعرانى ذرعا بحياة الجسد الذى ولده ضيق العقول وركود الأذهان الذى يصاحب عادة تغلف الشعوب فى ظل حكام يريدون أن يشغلوا الناس بسفاسف الأمور عن معاليها ، وحاول أن يتلم للمجتمع نماذج خلقية سامية عن طريق زاويته التى أسسها وجعلها مدرسة جامعة يتلقى فيها طلابها كل ما يحتاجون اليه من شئون دينهم ودنياهم . .

وقد شغلت شخصية الشعراني بال النقاد والمؤرخين -
والمستشرقين منهم بصفة خاصة - لأنهم رأوا فيها صورة غريبة عن
الاجتمع الذي نشأ فيه ، حتى قال عنه « ماركس ونالد » : ان الشعراني
كان رجلا دراكنا نفاذا مخلصا واسع العقل ... وكان عقله من
العقول النادرة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى .

وقال عنه « نيكلسون » : انه اعظم صوفي عرفه العالم
الاسلامي كله .

هذه الشخصية الصوفية المؤمنة التي يعتز الأزهر بأنها إحدى
ذخائره جديرة بأن تعرض في كتاب يقرؤه الناس ليستفيدوا من
سيرة صاحبها ويقتفوا أثرها وليعرفوا كيف كانت عقلية هذا
الرجل الذي ألف ما يقرب من ثلثمائة كتاب بعضها لم يسبق اليه مما
جعل العلماء والنقاد يحنون رؤوسهم له اجلالا واكبارا .

وما أجدر الناس في وقت طفت فيه المادة واستشرى داؤها
ان يتلفتوا نحو تراثهم الروحي الفياض بالخير والنفع ، الزاخر
بالثروة ، عليهم يجنون شفاء لهذه الأمراض المستعصية في
مجتمعاتهم .

وهذا الكتاب « عبد الوهاب الشعراني امام القرن العاشر »
قدم فيه مؤلفه الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي على القرنى ترجمة صادقة
لهذا القطب المجاهد ، وبذل في ذلك مجهودا كريما سوف يلمسه
القارئ بنفسه .

واني لأرجو الله أن يشييه عليه وينفع به - وبها قدم من كتب
غيره - المسلمين انه نعم المولى ونعم النصير .

هذا وبالله التوفيق .

عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

٢٤ من ذى الحجة ١٣٩٦ هـ
١٦ من ديسمبر ١٩٧٦ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه باحسان وسلم تسليما كثيرا .
وربنا ،

فأضع بين يدي القارئ الكريم صفحات من سيرة علم من أعلام
العرب والإسلام والتصوف ، أشرق في القرن العاشر الهجري .
وأبلى بلاء حسنا في وقت كان في أمس الحاجة الى جهوده واصلاحه .
ذلك هو الامام « الشعراني » الذي طبق علمه الآفاق ، وترك بعده
مفخورا وافيا في العلم والتصوف ، وأثرا واضحا مازال ينتظر
مجهود الأفاضل من المحققين والناشرين ، حتى يضيفوا الى التراث
العربي صفحات مشرقة مجيدة .

والامام « الشعراني » - وان كان غنيا عن التعريف - الا أننا
في احتياج شديد الى تصفح سيرته لنستفيد بما فيها من جوانب
كريمة في مختلف المجالات .
الوقت الذي نبحت فيه من سيرة سي سوسم حسنا ، وسير على
هديها ، لتكون لنا النبراس المضيء نحو غاية كريمة وهدف سليم .

جاء « الشعراني » في ظروف متناقضة ، وكانت البيئة
المصرية - على الصورة التي سنبين بعد - تحتاج اليه ، وقد اضطلع
برسالته التي وقف حياته عليها وقام بها خير قيام ، حتى استطاع
أن يحني له قامة الحكام والولاة المعاصرين له ، وأن يطامن من
كبريائهم ، ويكفكف من غرب جبروتهم . ولذلك رسم المثل الصحيح
للعالم الحق الذي يستطيع بعلمه وخلقه أن يفعل الكثير .

ووجد « الشعرائى » التصوف وقد لعبت به طائفة من المفرضين يسخرونه فى أهوائهم ، ويخلطون به الزيف ، ويقتاتون على حسابيه ، فنقاء من بسعهم وصفاه من خرافاتهم وأوهامهم ، واستطاع أن يوضح للأذهان حقيقة التصوف الرائعة ، وأنه هو جوهر الدين وروحه ، وأنه هو الذى يلتقى مع مقام الاحسان الذى يعبد الانسان فيه ربه كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فان الله يراه .

وفى عهد « الشعرائى » تضاربت آراء الفقهاء واحتدم الخلاف بين أئمة المذاهب مما نجم عنه اضطراب فى أهواء الناس ومنازعهم . فأهاب « الشعرائى » بهؤلاء أن يكفوا عن هذه الخلافات ، وأن ينبذوا الفرقة ، ووضع « بميزانه » أول أساس للتقريب بين المذاهب والفقهاء .

لقد أثار « الشعرائى » الطريق فى مختلف الجوانب والاتجاهات فكان حقيقا بأن يتصفح القارىء سيرة هذا العبقري فى كتاب يتناول هذه الجوانب المختلفة فى عصره وبيئته ، وفى حياته ونشأته وعلمه . وفى تصوفه ، وفى اصلاحاته المتعددة ، وفى أخلاقه الرائعة ، وفى آثاره الوافرة . وستبهره تلك الشخصية التى أيدها الحق وبارك فى حياتها ، فتمكنك من انجاز الكثير فى الوقت اليسير ، وحتى يقتبس لنفسه منها ما يمكنه من السير فى الحياة على منهج كريم .

وانى لاستلهم الله سبحانه وتعالى التوفيق فى تناول بعض هذه النواحي للمشار إليها وبخاصة فى ميدان التصوف الذى شهر به ، وبه الاستعانة بله وختم . ٤

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

• ملاح العصر والبيئة

نحن الآن في القرن العاشر الهجرى الذى يقابل القرن السادس عشر الميلادى . حيث نشأ « الشعرائى » رضوان الله عليه ، وعاش في ظل دولتين متعاقبتين : دولة المماليك الشراكسة ، ودولة العثمانيين .

والشراكسة جنس من الترك ، أكثر الملك « المنصور قلاوون » من شرايهم وتابعه في ذلك أولاده وحفدته ، وكونوا من هؤلاء المماليك جنبا وأعوانا سرعان ما غلبوا على الدولة ، واستكثروا من جنسهم . ووضعوا من القواعد والنظم ما يقوى من سلطانهم ، ويبسط من نفوذهم ، حتى دام لهم ملك يقدر بثمانية وثلاثين ومائة عام تقريبا .

وأول ملوك شركسى تولى السلطنة هو « السلطان الظاهر سيف الدين برقوق » سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وتعاقب من بعده السلاطين حتى جاء السلطان « الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى » فى السادس من رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧ م) وفى عصره كانت ولادة « الشعرائى » .

وشهد الشعرائى من سلاطين الشراكسة بعد « قايتباى » هذا ستة ملوك آخرون هم : -

١ - الملك الناصر « أبى السعادات محمد بن السلطان قايتباى » من ذى العقدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) .

٢ - الملك الظاهر « قانصوة الأشرف » من ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة (١٤٩٨ م) .

٣ - الملك الأشرف « جانبلاط » وتولى فى مستهل دى الحجة سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩ م) ولم يهنأ بالسلطنة فقد خلع أو اغتيل فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ م) .

٤ - الملك العادل « طومان باى » وتولى فى التاريخ المذكور ولم يعمر كذلك .

٥ - الملك الأشرف « قانصوة الغورى » وتولى فى شوال سنة ست وتسعمائة (١٥٠١ م) ، وظل فى الحكم حتى قتله السلطان « سليم الأول » مؤسس دولة العثمانيين فى مصر ، وفى عهده زحفت جيوش العثمانيين فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) ، ولما قتل ولى الشراكسة من بعده « طومان باى » وهو السادس الذى لم يلبث أن قتل هو أيضا بعد ذلك بقليل سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (١٥١٧ م) .

والمتتبع لتاريخ هؤلاء السلاطين يدرك مدى ما كانوا يعيشون فيه من جو المؤامرات والدسائس التى كان يحولها بعضهم لبعض . وكان ينسحب أثر ذلك الجو الخانق على الشعب ، فيلقى من ورائه الظلم والاضطهاد والارهاب والقلق ، ولم يكن يخلص من فتنة حتى يلقى غيرها ، مما شجع الخارجين على القانون على أن يستعجل أمرهم ، ويستشرى خطرهم ، وبذلك أصبح الفرد المصرى لا يسلم من أحد الشرين : شر الأمراء وشر السفهاء . يحكى صاحب كتاب « سمط النجوم العوالى » عن سيرة السلطان « قانصوة الغورى » الذى تولى الحكم سنة ست وتسعمائة : « أهلك أغوات عصره بعضهم ببعض ، واتخذ مماليك جددا .. صاروا يظلمون الناس

ويعاملون الخلق عسفا وغشما ، وهو يفضى عنهم ويتغافل ، فاطهروا الفساد وأهلكوا العباد وأكثروا للفساد وطفوا في البلاد .. وصار يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس ، وكثرت « الموانية » في أيامه لكثرة ما يصفى اليهم ، وصاروا إذا شاهدوا أحدا توسع في دنياه ، وأظهر التجمل في ملبسه ومثواه وشوا به الى السلطان ، فيرسل اليه يطلب القرض ويصفى أمواله .. وقد بطل الميراث في أيامه وصار اذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة ، ويترك أولاده فقراء .. وقد ضاع الشرع في أيامه » (١) .

وفي تاريخ « ابن اياس » من الوقائع التي تشهد بذلك الشيء الكثير ، ومن ذلك ما يرويه في تاريخ « الأشرف قايتباي » من أنه توسع في نفقة مماليكه حتى بلغت نحو ألف ألف دينار ، وبعد أن أنظفوا هذه النفقة أطلقوا في الناس النار ، وأخذوا البغال والخيول حتى « أكاديش » الطواحين وحصل منهم الضرر الشامل في حق التجار وغيرهم (٢) . كما يتحدث عن هجوم قطاع الطرق على الناس في مواضع كثيرة من كتابه ، ويعمل ظهور الطاعون الذي تفشى وجاء على مرات متوالية بكثرة الفساد الذي فشا في أيام السلاطين .

ونتيجة لذلك فقد ساءت الحالة الاقتصادية وتفاقم خطرها ، ويقرر الدكتور « على ابراهيم حسن » أنه « رغم ما بذله الممالك في سبيل انعاش الحالة الاقتصادية في البلاد ، فقد انتابها الركود أحيانا نتيجة كثرة حوادث السلب والنهب واغارات البدو وظلم الممالك ، وكثيرا ما خوت خزائن المولة المملوكية حتى لم تعد

(١) سبط التجوم العوالي في انباء الأوائل والتوال ج ٤ لعبد الملك بن حنفى

العصامي للكر .

(٢) تاريخ ابن اياس ص ٥٤٨ .

قادرة على سد حاجات البلاد ، وذلك حين كانت تنتشر بها المجاعات والأوبئة التي تهدد الحرث والنسل ، فيذهب ضحيتها الآلاف من الأنفس البشرية دون أن تستطيع الحكومة أن تصد تيارها الجارف (١)

وتفاقم خطر هؤلاء المماليك وبخاصة آخرهم السلطان قانصوه الغورى ، حتى ضج الناس بالشكوى ، وابتهلوا الى الله ان يخلصهم من شرهم ، ونظروا الى العثمانيين على انهم جند الخلاص الذى يقضى على الظالمين وينصر المظلومين ، ويكفى للدلالة على ذلك ما نظمته « ابن اياس » لسان حال المصريين اذ ذاك قائلا : -

فى دولة الغورى رأينا العجب وقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى فى عامنا ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق (٢)

وفى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة استقر الأمر للعثمانيين فى مصر بقيادة السلطان « سليم الأول » بعد قتال مرير بينه وبين آخر سلاطين المماليك « طومان باى » الثانى الذى ولاه المماليك امرهم بعد مقتل « قانصوه الغورى » فى موقعة « مرج دابق » . ولم تهلأ الأحوال الا بعد القبض على « طومان باى » وصلبه على باب زويلة .

وفى سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) تولى السلطان سليمان ابن السلطان « سليم » الحكم ، ودامت أيامه ما يقرب من نصف قرن فقد توفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة (١٥٦٦) فى إحدى غزواته ، بعد وفاة « الشيرازى » بسنة واحدة .

(١) مصر فى القرون الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ص ٤٩٨ .

(٢) تاريخ ابن اياس ص ٩٩٥ .

ولم تكن أيام المصريين فى عهد العثمانيين بأفضل منها فى
أيام المماليك الشراكسة ، ولكنها كانت أسوأ منها ، فقد استمر
الظلم الواقع على كاهل الشعب ، وأصبح حالهم ينطبق عليه
قول الشاعر :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار .
أقلبت المرائب كاهل المصريين ، وتقادم الارهاب والعسف .
وجار الناس بالشكوى من الظلم الذى عم البلاد ، والذى جعل بعض
الشعراء يلجأ الى الله قائلا :

يارب زاد الظلم واستحوذوا والقمل منهم ليس يخفى عليك
ومالنا الاك فانظر لنا ونجنا منهم وخطهم اليك (١)

وزاد الأمر سوءا انتقال الخلافة من مصر التى كان ينظر اليها
على أنها زعيمة العالم العربى ، وفيها استقر الأمر للعباسيين بعد
فراغ آخر خليفة لهم من وجه التتار وفقدت مصر فى أيام العثمانيين
هذا المركز الأدبى ، الذى كان يكفل لها الكثير من الاجلال والاكبار .

وهكذا نجد أن مصر أصبحت فى عزلة عما كان يجرى حولها
فى العالم ، ففي الوقت الذى كانت أوروبا تعيش عصر نهضتها
أصبحت مصر مقضيا عليها بالتخلف الذى فرضه عليها فساد الحكم
المتعاقب والتألب الاستعماري الأوربي والانتواء الذى انطوته على
نفسها ، والذى ساعده عليه لاكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة
١٤٩٨ م ، والذى حرم مصر من مزية الاتصال بالعالم الخارجى فترة
طويلة من الزمن ، وقضى عليها اقتصاديا وأصابها ببوكة عارمة من
الكساد والتأخر ، فقد انتقل مركز التجارة من حوض البحر المتوسط

(١) للرجع السابق ص ١١٢٣ .

الى المحيط الأطلسي ، فنضبت منابع الثروة في مصر ، بعد أن كانت خزائنها تفيض بأموال التجار الأجانب (١) .

نقل العثمانيون من مصر كل شيء له قيمة يقدرّون على نقله ، حتى الصناعات الماهرة ضنّوا بهم على وطنهم وعمرّوا بهم الاستانة ولم يحترموا في ذلك المساجد والأضرحة ، ومن أمثلة ذلك ما يحكيه « ابن اياس » في حوادث سنة ٩٢٣ هـ من أن العثمانيين هجموا على مقام الامام « الشافعي » - رضي الله عنه - ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل ولم تسلم من أذاهم البيوت وحرماؤها ، فقد صاروا يتوجهون الى الأماكن المختلفة يأخذون ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد والطينان ويحملونها على الجمال .
والذي لا يقدرّون على حمله الى بلادهم كانوا يبيعونه بالثمن البخس .

وبذلك فقلت مصر كثيرا من وسائل نهضتها ، واغلقت المدارس وتعطلت دور العلم والكتب ولم يبق الا بصيص من نور تمثل في الأزهر الذي ظل حفيظا على حمل شعلة الثقافة والمعرفة وانحصر العلم في ذلك الوقت في علوم الدين التقليدية من فقه وتفسير وغيرها ، وللأسف من نحو وبيان ولغة ، وجمعت للدراسات ، وتحول التأليف الى شروح على متون أو تعليقات على شروح ، وركدت العلوم العقلية حتى أصبح طلبها فرض كفاية (٢) ورجعت النهضة العلمية التي كادت تكون مزدهرة في عصر الماليك الى الوراء كثيرا ، ففي اللحق - انه على الرغم من بطش الماليك وظلمهم - « زخر عصرهم بالعديد الوافر من العلماء المجتهدين

(١) مصر في القرون الوسطى ص ٤٩٨ .

(٢) القسراي لتوفيق الطويل المجلد ١٤ من سلسلة اعلام الاسلام .

ذوى الآراء ، وزخر بكثير من للصوفية وأهل الكلام والمنجمين والفلكيين والمؤرخين وغيرهم ، وتتابعت طبقات المؤلفين من بينهم ، وكان نشاط حركة التأليف مثار العجب ، فقد وضع كثير من العلماء مؤلفات عظيمة القيمة والمؤلفات هي الثمرة الخالدة والأثر الباقي على الزمن والوصلة الصالحة بين ماضى العلم ومستقبله ، وكانت هذه الكتب التى تؤلف حلقة ذهبية فى سلسلة العلوم الاسلامية تملأ دور المكتب فى القاهرة بجوار ما تقتنيه هذه الدور من كتب السابقين ، فلما فتح العثمانيون مصر ، وأزالوا حكم المماليك نهبوا هذه النخائر العلمية فيما نهبوا ، وحملوها الى القسطنطينية ولا يزال كثير منها مقتربا عن وطنه حتى الآن (١) .

وكان لذلك أثره فيما بعد ، فقد بدا على مر الأيام نور العلم يخبو وشأنه يضعف شيئا فشيئا بفقدان مصادره ووسائله وعدم التشجيع عليه حتى وصلت البلاد الى حالة يرثى لها من الجهل والفسياح .

فى هذا الجو الغريب عكف الناس على دينهم ، ولجأوا الى التصوف يلوذون به من عنت الحكام وجور الأيام وفساد الأمور وحين تدلهم الأمور يفرغ الناس الى الله ، فهو الذى يأخذ بيده المستجير ويوجب المضطر اذا دعاه ويكشف عنه السوء . وليس ذلك غريبا ؛ فالشهداء هم التى توقف للإنسان على باب مولاه وصدق الله العظيم اذ يقول : فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ ولكن قست قلوبهم ۝

الا أن التصوف - والحق يقال - لا يلجأ اليه كل الناس فى أوقات ضيقهم وضعفهم ولكن هناك من أقبلوا عليه وهم أقوى

(١) عصر سلاطين المماليك وتنازع العلم والأدب ج ٧ من ٢٤٩ .

وانفسهم وبين المتصوفين وغيرهم ، كما كان الجدل محتدماً ، في
ميادين أخرى غير ميدان التصوف ، كان محتدماً بين الفقهاء ،
والعلماء وأئمة المذاهب ، ونشأ عن هذا الجدل للصاحب اضطراب
عقل ، وجذب روحى ، وفساد خلقى ، مما حدا المصلحين والمخلصين
على أن يرفعوا لواء الاصلاح ، وينادوا بتطهير صفوف التصوف من
أدعيائه ، حتى يعرفه الناس على وجهه الصحيح الذى شرعه الله ،
وتولى زعامة هذا الاصلاح « الشعراى » الذى لم تقتصر جهوده
على ذلك فحسب ، ولكنهولى وجهه شطر كل ما يحتاج الى
اصلاح ، يعمل فيه بمبضعه الساهر ، ويسخر فى طريق ذلك
جهده ووقته وقلبه ، حتى أبلى فى ذلك بلاء حسناً ، وكان له
ثبارة البانعة وآثاره المحمودة .

• نسبه ومولده ونشأته

نشأ الشعراني في بيئة علمية صوفية ، وكفل له ذلك
جوا مناسباً أعانه على الوصول الى ما وصل اليه من مكانة مرموقة في
في ميداني العلم والتصوف .

نسبه : -

هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد
ابن زرقا (١) (بفتح للزاي وسكون الراء) بن موسى بن السلطان
أحمد « بمدينة تلمسان » ابن السلطان سعيد ابن السلطان
قاشين ابن السلطان محيي ابن السلطان زرقا ابن السلطان زيان
ابن السلطان محمد ابن السلطان موسى (٢) ابن للسيد محمد
ابن الحنفية بن الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - (٣)
ولكن يبدو أن السلطان موسى لم يكن ابن محمد بن الحنفية
مباشرة ، فقد حدث صاحب المخطوط التوفيقية فيما نقله عن صاحب
الدرر المنظمة نقلا عن « الشعراني » أن هناك ثلاثة أسماء مخطوطة
بين موسى المذكور وبين محمد بن الحنفية .

وأصله عربي من قبيلة « بني زغلة » وكان جده أبو عبد الله
السلطان أحمد يطلق عليه : السلطان أحمد الزغلي ، وكان معاصرا

(١) في الكواكب السائرة « ذوقا » دال فواو ثقاف ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) المخطوط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٩ .

(٣) المناقب الكبرى ص ٢٨ .

عينا وبين الخليفة سيدي يعقوب العباسي مالا يوصف « (١) خوفا من انقراض نسب الخليفة العباسي فيولى الناس اولاد « موسى ، الخلافة ، ولكن « الشعرائي » يؤكد زعمه وزعم أسرته في ذلك فيقول : - « ولعمري للشرفاء أحق منا بذلك وهم كثيرون في أرض مصر ، (١) » .

وقد تولى « يعقوب » العباسي خلافة العباسيين سنة ثلاث وتسعمائة ، وأسست خلافتهم في عهد « الظاهر بيبرس » سنة تسع وخمسين وستمائة في مصر وكانت خلافة اسمية لا فعلية . وعلى ذلك فقد كان « يعقوب » معاصرا « للشعرائي » ويبدو أن تصريح « يعقوب » المذكور آنفا حدث قبل توليه الخلافة ، لأنه وجد من يعارضه فيها عند توليته ، وكانت معارضته من قبل اولاد عمه الأدنى (٢) فليس غريبا إذن أن يخشى منازعة اولاد عمه الأقصى من كانت القلوب تنطوي على إعجاب بهم وأكبار لهم لصالحهم وورعهم وزعمهم .

وقد أعقب « موسى » وكنيته « أبو عمران » الذي صدر له أمر شيخه « أبي مدين » بالتوجه الى مصر ذرية اشتهرت بالصلاح والتقوى ، ويبدو أنه عاش عمرا مديدا حافلا بالخير والبركة ، فقد توفي فيما يرويه صاحب المناقب الكبرى سنة سبع وسبعمائة . ومعنى ذلك أن عمره امتد الى ما فوق المائة سنة . ويقص عنه أنه كان ذا مروءة نادرة وفتوة صوفية وكرامات مشهورة .

وأعظم كرامة تنسب اليه - في نظرنا - هي تلك الثروة الكريمة التي ظلت حفيظة على التقوى والصلاح .

(١) المناقب الكبرى - القصة .

(٢) راجع تاريخ ابن اياس ص ٦٢٦ .

ومن تلك الذرية جد « الشعرائي » الذي هاجر الى المنوفية ،
فقد حدثوا عنه أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه رغم ذلك
كان يستدل بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في وقائع
الأحوال ، فيتعجب للناس من ذلك .

ومن بعده ابنه الذي ورث عنه حاله وزاد عليه : « نور الدين
على الأنصاري » ، ومن أقواله الماثورة عنه : - الأصل في الطريق
الى الله تعالى طيب المطعم . رافق الشيخ « زكريا الأنصاري » شيخ
للإسلام في طلب العلم ، وكان الشيخ « زكريا » يتحدث عنه
كثيرا ، ومن كمال ورعه أنه كان لا يأكل طعام الأزهر ، ولا يشرب
ماءه ، ويتقوت على ما ترسله اليه أمه من اللبيف ، ويملا جرتة كل
يوم من ساحل بولاق ، وكان لا يأكل حمام الأبراج ولا غسل
النحل لأنها في طئه تتقوت على مال الغير الذي ربما لا تسمح نفسه
بذلك بدليل محاولته منعها بوسائل مختلفة ، وكان كثير العبادة
قالت له زوجته : أما تستريح ليلة واحدة ؟ فكان يقول لها :
ما دخلنا هذه للدار للراحة . توفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ،
وله من العمر ثلاث وستون سنة تقريبا .

واعقب من بعده ابنه الشيخ « شهاب الدين أحمد » والد
« الشعرائي » ويذكر بعض المؤرخين عنه أنه كان أميا ، لا يقرأ
ولا يكتب ، ولكن الحقيقة التي تذكرها أغلب المصادر ومن بينها
« المناقب الكبرى » و « الكواكب السائرة » أنه كان عالما فقيها
مؤلفا حافظا للقرآن الكريم ، وقد قرأ الشعرائي عليه للتصف
الأخير من القرآن الكريم ، وسمع عنه الحديث الشريف ، وحلث
« الشعرائي » عنه قائلا : - سمعت ولدي يقول : جمعت من

وقد تلقى والده « الشعراني » العلم عن والده الذي تلقى بدوره العلم عن شيخ الاسلام « صالح البلقيني » وعن الشيخ « يحيى المناوي » وعن « الحافظ ابن حجر » وغيرهم من فحول عصرهم .

وتوفي والده « الشعراني » في صفر عام سبع وتسعمائة ودفن بجوار والده في « ساقية أبي شعرة » وله ضريح ظاهر يزار .

و « للشعراني » شقيق اسمه « عبد القادر » تولى كفالته بعد والده وتلقى عليه بعض العلوم قبل هجرته الى القاهرة ، وكان عالما ورعا له مناقب كثيرة في الزهد والعفة والورع ، وأثر عنه أنه كان يقدم مصالح المسلمين على مصالحه ، ويقول عنه « الشعراني » : ما رأيت أوسع منه خلقا . وقد حج معه « الشعراني » سنة أربع عشرة وتسعمائة .

وكانت داره في « ساقية أبي شعرة » تعج بالزائرين كأنها مارستان : كل امرأة مرضت أو عجزت يرسلها الناس له ، وكذلك الأيتام والأرامل كان ينفق عليهم ويكسوهم ، ويفتح الله عليه برزق هؤلاء جميعا . قال بعض الثقات : أمسييت في السفر ، فدلوني على بيت الشيخ « عبد القادر » فوجدت الزقاق مزدحما ، وما وجدت موضعا أدخل فيه بحمارتي ، وقد قرى الكل في تلك الليلة .

ومن تمام زهده وكرم خلقه أنهم قالوا له مرة : ألا تشتري بهائم ؟ فقال : اذا اشتهدت نفسي ذلك وقفت على مرتفع خارج البلد وقت رجوع الناس من حقولهم ، وقلت : كل هذه البهائم الآيبة من المرعى لي ، فانه لا فرق بين أن تكون في داري أو في دور أهل البلد ، لانه لا ملك لأحد مع الله .

ومما يحدث به « الشعراني » قوله : أخبرني الأمير يوسف من جند السلطان « سليمان » : طفت ببلاد حلب والروم والشام ومصر وزرت ققراعا فما رأيت أحدا على قدم أخيك الشيخ « عبد القادر » في الأخلاق التي أعطاهما الله له .

ويقال ان نجابة « الشعراني » من رضاع أدب أخيه « عبد القادر » ، وكان « لعبد القادر » توجيهات روحية لأخيه ، من ذلك ما يرويه كتاب « المناقب الكبرى » : كان « الشعراني » يزرع للفقراء زاويته مساحة من « البطيخ » في جزيرة قريبة من « ساقية أبي شعرة » ، فكتب لأخيه « عبد القادر الرسالة التالية :- « .. وبعد ، فأنك يا أخي تعلم أن البطيخ المزروع في جزيرة .. إنما هو على اسم للفقراء ليس عليه حارس ولا بواب ، ولا هو في بلد ينظر اليه الناس وإنما هو في جزيرة وسط بحر ، ونخشى من بعض الناس أن يؤذونا فيه من البر أو البحر بالمراكب ، فإن رأيت أن تنظر لنا أحدا يحرسه أو يذهب إليه كل قليل فافعل ، وأجرك على الله ، ولا تتوان في ذلك .. » .

فرد عليه « عبد القادر » بهذه الرسالة : - « .. وبعد ، فقد كنت أظنك في غير هذه الرتبة ، أما إذ أنت على ما ذكرت لي من الحال ، فأعلم أن ما قسمه الله تعالى لأهل مصر لا يستطيع أهل الريف أن يأكلوه أبدا ، وأن ما قسمه الله تعالى لأهل الريف لا يقدر أحد من الثقلين أن يوصله إليك أبدا ، وبالله العجب ، تقول : أنك زرعت ذلك للفقراء ، وأى فارق بين الفقراء المقيمين عندك والفقراء المنتشرين في أقطار الأرض ؟ وفي أى كتاب نزل يحرم فقراء الأرياف ويبر فقراء الأمصار ؟ والحمد لله وحده .. »

وكلا الأخوين له وجهة نظر ، فعبد القادر يدعو الى التفويض والتسليم وعدم الحرص على حطام الدنيا وشمول الاهتمام بالفقراء

وفي حياة والده بدأ يتلقى دروسا من العلم ويحفظ القرآن ، وربما يكون قد تمكن من حفظه في حياة والده ، فقد حدث أنه حفظ القرآن وعمره سبع سنونات ، وحدث أيضا أنه حفظ على والده ما يقرب من نصفه ، وحدث أنه قرأ عليه سورة الصافات مرة وهي في النصف الأخير من القرآن ، وهذه دلالات تفهم منها أنه حفظ القرآن قبل أن يموت أبوه ، كما تمكن أيضا من أن ينال قدرا غير يسير من العلم ، جعل أباء يعتقد فيه خيرا ، فيسمى لأن يحصل له على اجازة من شيخ عصره الحافظ « جلال الدين السيوطي » بجميع مروياته رغم صغر سنه - والاجازة أن يأذن ثقة من الثقات لغيره بأن يروى عنه حديثا أو كتابا ، سواء كان ذلك الكتاب من تأليفه أم كان يرويه عن شيوخه بالاسناد الى مؤلفه - ونجح الأب في ذلك ، فقد أرسل « السيوطي » « للشعراني » ورقة مع والده حين سافر اليه في القاهرة لهذا الغرض باجازته بجميع مروياته ومؤلفاته ، وليس ذلك غريبا ، فانه ليس من شروط الاجازة أن يتصل المجاز له بمن أذن له اتصالا مباشرا ، بل ان الاجازة أصبحت هوية محبوبة يجمعها الآباء لأبنائهم من مشاهير الشيوخ والعلماء ، وقد التفت الناس حول « نجم الغزى » العالم المشهور المتوفى (١٠٦١هـ) أثناء طوافه بالكعبة وقت الحج يطلبون منه الاجازات (١) .

ويحدثنا « الشعراني » عن « السيوطي » بأنه ألبسه خرقة الصوفية قائلا : « لبست الخرقة وهي عرقية وجبة ورداء من يد حافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطي حين اجتمعت به مع والدي في روضة المقياس ببصر المحروسة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة احدى عشرة وتسعمائة » .

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة اجازة .

وقد أورد صاحب المناقب الكبرى ذلك ، وهى عبارة يفهم منها التناقض فقد مات والد « الشعرانى » سنة سبع وتسعمائة ، و « الشعرانى » لم يصاحب أباه عند سفره الى القاهرة لحصوله على الاجازة له ، لأنه يصرح بأن « السيوطى » أرسل له هذه الاجازة مع والده مكتوبة بخط يده ، ولم يطأ « الشعرانى » أرض القاهرة الا بعد وفاة والده وفى مفتتح سنة احدى عشرة وتسعمائة ، واذن فقد كان لباس الحرقه رؤيا منامية ، ولم تكن يقظة ، وبهذا يمكن تفسير هذا التناقض ، والرؤى فى عالم الأولياء والصوفية لها خطرهما الذى يعتد به ويعول عليه . وكثيرا ما يفهمون منها دلالات خاصة ويأتمرون بأمر ما تشير اليه .

● رحلة الشعراني الى القاهرة

طلبه العلم :

وما أن أهل عام أحد عشر وتسعمائة حتى رحل « الشعراني الى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، شأنه في ذلك شأن كل نابه يحفظ القرآن ، ويعد نفسه للتفقه في الدين والنبوغ في العلم .

وقد أعد « الشعراني ، نفسه لذلك ، فقد حفظ في قريته قبل هجرته الى القاهرة كثيرا من المتون ، واطلع على قدر غير يسير من شروحها ، وكان أستاذه في ذلك أباه وأخاه « عبد القادر » . ومن محفوظاته في هذه السن المبكرة « أبو شجاع ، والأجرومية » حفظهما ثم حللهما على أستاذه المذكورين ، ولابد أن مخايل النجابة قد ظهرت عليه حينذاك مما حدا أباه بأن يسعى له في طلب الاجازة له من حافظ العصر وإمامه « السيوطي » .

ويمم فور وصوله القاهرة الجامع الأزهر ، وهو الكعبة التي يحج إليها - وما تزال - كل طالب علم ، ومكث زهاء خمس سنوات في رحابه طالبا مجدا يقرأ ويدرس بفهم وعناية كل ما يقع تحت يده من سائر العلوم الشرعية واللسانية والعقلية . وكان من الكتب التي حفظها في هذه الفترة « المنهاج للنووي » ثم « ألفية ابن مالك » ثم « التوضيح لابن هشام » و « جمع الجوامع » ثم « ألفية العراقي » ثم « تلخيص المفتاح » ثم « الشاطبية » ثم « قواعد ابن هشام » وغيرها من المختصرات .

وقد حفظ ذلك وغيره حفظا جيدا ، حتى صار يعرف متشابهاتها كالقرآن في جودة الحفظ ، ولم تلبث أن ارتقت هيمته الى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة لكونه أجمع كتاب في الفقه على مذهب « الامام الشافعي » رضى الله عنه فحفظ منه الى باب القضاء على الغائب .

وكان يتجه الى الحفظ لأن حفظ المادة أدعى الى بقائها في الذهن وعدم ذهابها منه ، وذلك بناء على قاعدة تربوية كانت سائدة في ذلك الوقت تقول : من حفظ المتون حاز الفنون .

اساتذته في الطلب :

وتتلمذ « الشعراني على كثير من علماء عصره الأجلاء ، وكان يعقب الحفظ أو يصاحبه شرح ما يحفظ على شيوخ الأزهر حينئذ ، وهم الذين تتلمذ عليهم ، وأخلص في بره لهم والحفاوة بهم .

والمطلع على قائمة شيوخه وقائمة الكتب التي قرأها حفظا وشرحا أو شرحا فقط يدرك مدى ما وسعه صدره علما ومعرفة ، ومدى ما كان عليه من الصبر ومعاينة العلم والتلذذ به .

فمن هؤلاء الشيوخ الذين يتحدث عنهم في كتابه « لطائف المنن » الشيخ « أمين الدين » الامام المحدث بجامع الغمري ، قرأ عليه شرح « المنهاج للمحلي » وقد كان كما حدث عنه أعلم أهل زمانه بما دق وخفى من أمر هذا الشرح لأنه كان قد قرأه على المبرزين من تلامذة الامام السيوطي ، وقد أعان « الشعراني » على فهم هذا الشرح اطلاعة على ما ناسبه من شروح وكتب وتعليقات ككتاب « القوت للأذري » و « العمدة لابن الملتن » وشرح « ابن قاضي شعبة » وشرح « الروض للشيخ زكريا الأنصاري » وغيرها ، وكان يختار من بعضها التعليقات فيضيفها الى الشرح ، ويقيد ما يعن له

من ملاحظات فيضيها أيضا ، وكانت تبسّغ هذه الزيادات أحيانا ما يصل الى ضعف الكتاب الذى يقرؤه ، وكان يراجع هذه التعليقات والزيادات على أستاذه امام الغمري ، أو غيره من الأساتذة فيعجبون منه وبها .

وكان يعتمد الى اختيار التعليقات الملائمة وإثباتها على حاشية الكتاب لضيق ذات يده التى لا تمكنه من اقتناء الكتب فى كثير من الأحيان ، فقد كان منقطعا لطلب العلم ، ولم يكن يحيا الا على ما يصله من اخوته المقيمين فى الريف ، ولم تكن له حرفة - كما تزعم بعض المصادر يحترفها كالنسيج أو الحياكة ، ويسلو أن أخاه الشيخ « عبد القادر » هو الذى كان يقوم من دون اخوته العشرة بأوده لأنه شقيقه الوحيد ، وهو الذى تولى كفالته بعد أبيه ، وهو الذى صحبه فى رحلته الى القاهرة ليوطد له اقامته ويطمئن عليه .

وعلى الرغم من افتقاره كان متعففا ، قد عطف الله عليه قلب رجل اسمه « خضر » تحدث عنه بأنه رباه وهو يتيم ، ولكنه كان متعففا عن ماله ومال زوجته بالرغم من حرصهما الزائد على توفير كل شيء له ، وكان « الشعراوى » يلقبه بوالده وتحدث عنه فى « لطائف المنن » بهذا اللقب (١) ، وتحدث عنه فى كتابه « لواقح الأنوار القدسية » قائلا : كان جدى الشيخ نور الدين يشفق على الأيتام فببركته قيض الله تعالى لى الشيخ « خضر » الذى ربانى وزوجته فعمشت معهما فى أرغد عيش وأرفهه من المأكول والملبس حتى ماتا . . فكننت أعد ذلك من جملة ما جوزى به جدى » (٢) .

وحياته فى ظل هذه الأسرة لا تنافى تعففه فقد كان لا يتطلع اطلاقا الى شيء ، ويحيا معهما على القناعة بما يقدمان له ، بدليل أنه رد

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٦٨ .

(٢) لواقح الأنوار ص ١٧٧ .

المال الذي اوصى له به الشيخ خضر الى ورثته ولم يقبله . وكان يطوى أياها متعددة ، ويحرص مع ذلك على البحث عن مصادر العلم ، فاذا ما عثر على كتاب استعاره من صاحبه ليقرأه وينتفع بزبدته ويختار منه ما شاء ليتبته في تعليقاته ، وأحيانا كان يدخر من رزقه القليل ما يشتري به ما يحتاج اليه .

ومن الكتب الذي قراها على شيخه « أمين الدين » شرح جمع الجوامع « لجلال الدين السيوطي » وحاشية « كمال الدين بن أبي شريف » وقرأ عليه أيضا شرح « ألفية العراقي للجلال السخاوي » وقرأ عليه شرح « ألفية ابن مالك لابن عقيل » وشرح « الشواهد للعيني » والكتب الستة في الحديث . وكثيرا جدا غير ذلك .

وكان الشيخ « أمين الدين » عالما جليلا وله سند عال أخذ عن الحافظ ابن حجر ، ولنجاة تلميذه « الشعراني » أجازته في رواية مؤلفاته عنه .

ومن شيوخه في الأزهر الامام العلامة « شمس الدين الدواخلي » . قرأ عليه أيضا الكتب والشروح السابقة ، وكان « الدواخلي » فقيها صوفيا أصوليا نحويا محققا للأبحاث والعلوم بارعا فيها على اختلافها .

وقد قرأ عليه غير ما قرأه على شيخه السابق شرح « الارشاد لابن أبي شريف » وشرح « البهجة الكبير للشيخ زكريا » وشرح « الارشاد للجوجري » و « القوت والتوسط والفتح للأذري » ، وشرح « الروض » الى جزء من باب الجهاد ، وقد استعان « الشعراني » على هذا الشرح بكتاب « الحادم » وكتاب « القوت » وغيرهما من الكتب التي تنحو نحو هذا الشرح .

وكعادته في اطلاعاته كان يثبت على الشرح كل ما يلاحظه ويستفيده من قراءاته ونقوله وأفكاره حتى تصبح الاضافات أكثر

من الكتاب نفسه ، وقد قال له أستاذه مرة ما معناه : لولا أنك تثبت لي عن طريق تلخيصك الكتب التي تشير إليها ما صدقتك في أنك اطلعت على بعضها . وهذا القول يفيد كثرة قراءاته واطلاعاته وتعدد الكتب التي كان يرجع إليها .

ومن الكتب التي قراها على هذا الشيخ أيضا شرح « الألفية » لابن المصنف ، وشرح « التوضيح للشيخ خالد » وكتاب « المطول » بحواشيه ، وشرح « ألفية العراقي » للمصنف وللسخاوي ، وكتاب « شرح جمع الجوامع بحاشيته لابن أبي شريف » وغيرها .

وشيوخ الشعرائي كثيرون جدا قدرهم هو بنحو خمسين شيخا مرة وقدرهم مرة بنحو مائة من أجلاء العلماء الذين كانوا يعجبون به ويدهشون لقوة عارضته وسرعة حافظته وشدة فهمه ، وقد قرأ مرة على الشيخ « نور الدين المحلى » شرح « جمع الجوامع » بحاشيته من ذهنه فأثار بذلك عجبه .

ويروى بعض المؤرخين أنه تتلمذ على « الجلال السيوطي » وعلى الشيخ « زكريا الأنصاري » (١) ولكن تلمذته « للسيوطي » كانت تلمذة اجلال ونسب لأن « السيوطي » رحمه الله توفي في التاسع من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وهي السنة التي قدم « الشعرائي » في مستهلها الى القاهرة ، فكان لقاءهما لم يدم أكثر من أشهر معدودة ، وقد يكون الشعرائي قد تلقى على يدي أستاذه في هذه المدة القصيرة بعض الدروس تبركا به كما أشار هو الى ذلك بقوله : لما جئت الى مصر قبيل موته اجتمعت به مرة واحدة ، قرأت عليه بعض أحاديث من الكتب الستة ، وشيئا من المنهاج في الفقه تبركا به ، ثم بعد شهر سمعت ناعيه فحضرت الصلاة عليه (٢) .

(١) الشعرائي للدكتور توفيق الطويل .

(٢) المناقب الكبرى .

وأما شيخ الاسلام « زكريا الانصارى » فقد تتلمذ « الشعراوى » عليه فترة طويلة وكان بينهما ود متصل ، تحدث عنه « الشعراوى » كثيرا ، وقرأ له كتبه وراجع شرحها عليه ، كما قرأ عليه شرحه لرسالة « القشيري » ، وشرح مختصره « لجمع الجوامع » ، وشرح « التحرير » وشرح « القطعة » التى وضعها على « مختصر المزنى » وكان يطالع عليه شرح « البخارى » للحافظ ابن حجر وشرحه « للعيني » وشرحه « للكرمانى » وشرحه « للبرماوى » وشرحه « للقسطلانى » ، وقرأ عليه « الكشف » مع حواشيه وقرأ عليه شرحه « للروض » فكان يطالع عليه جميع المواد التى استمد منها شرحه ، ونبهه على نحو أربعة عشر موضعا ذكر أنها من أبحاث « الزركشى » والحال أنها من كلام الأصحاب فاصلحها ، وقرأ عليه « القواعد الكبرى » للشيخ « عز الدين » وغير ذلك .

وتلك تلمذة طويلة ، وإذا عرفنا أن « الأنصارى » توفي فى آخر سنة ست وعشرين وتسعمائة أدركنا أن صلتها دامت ما يقرب من خمسة عشر عاما ، وهى مدة ليست بالقصيرة فى حياة العلم والمعرفة ، لا سيما إذا بارك الله فيها كما يبارك دائما فى أوقات أهل التقى ، فلحظاتهم تقدر بأعمار مديدة من سننى غيرهم .

حرصه على العلم :

كان « الشعراوى » حريصا على اغتنام كل دقيقة من حياته فى طلب العلم ، فلم يكن يرى الا قارئا أو ناسخا أو مصغيا أو سائلا ، يحكى عن أحد شيوخه قائلا : كان فى بعض الأوقات يقول لى : هلا تذهب بنا الى بحر النيل نشم الهواء ، فأقول له : يا سيدى مجالستكم عندى أعظم من شم الهواء ، فيدعوا لى (١) ، وهذه اجابة

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٢٥ .

يفهم منها بره بأستاذه كما يفهم منها حرصه على عدم تضييع الوقت ،
والا فكيف نفسر كل ذلك المنخور العظيم الذى تمكن من الاطلاع عليه
وقراءته ، اطلاق فهم ودراية كان يثير عجب العلماء الأجلاء ؟ وقد
رأينا أن أحد شيوخه قال له : « لولا أنك تلخص لى ما تقرؤه ما كنت
أصدق أنك قد اطلعت على بعض ما تذكره من كتب » .

وتناولت اطلاعاته سائر العلوم والفنون . يشهد لذلك تنوع
تأليفه وكثرتها ، فقد قرأ فى كتب الفقه والحديث والتفسير والتصوف
والأصول والكلام والفتاوى والطب ما لا يحصى كثرة ، يقول صاحب
المناقب : اطلع على كتب الفقه كلها حتى لا يكاد يظن أحد أنه متعبد
بمذهب الامام الشافعى لاحاطته بأدلة الأئمة ومعرفته بمنازع
أقوالهم ، ويشهد لذلك تأليفه التى نمت نحو التقريب بين المذاهب
وسد الثغرات بينها ككتاب « الميزان » وكتاب « كشف الغمة » .

ومن ذلك ندرك أن « الشعرانى » لم يكن يشغل باله الا طلب
العلم وتتبع مظانه ومصادره ، لا يضمن فى سبيل ذلك بوقت أو
جهد ، يعينه على ذلك ملكة صافية واستعداد فطرى ، واستقامة
صاحبه منذ نعومة أظفاره ، فتعلق قلبه بكل جليل وانصرف خاطره
عن كل لهو . والمتحدثون عن مناقبه يذكرون عن ذلك طرائف
كثيرة ، وقد أشار اليها هو نفسه فى كتبه وآثاره .

مكانته فى العلم :

ليس من شك فى أن العلم طريقه التحصيل . وقد جد « الشعرانى »
فى طريق ذلك واجتهد . ووصل الى مكانة علمية مرموقة ، شهد
له بها القاصى والدانى . ونطقت بها آثاره الخالدة التى تركها تتحدى
الزمن وتتعلم منها الأجيال .

وقد كانت شهادة العلماء له بالتفوق وهو مازال تلميذا ،
فكفب وقد أصبح عالما له قدم راسخة فى ميادين العلم والاجتهاد على

اختلاف المعارف والفنون ؟ يقول فى لطائف المنن : وكان ذهني يجمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه ولم أزل كذلك حتى ترادفت على الهموم لما بلغت فى السن الى نحو خمس وعشرين سنة ، وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر وقال لى مرات (يقصد شيخه شهاب الدين الرملى الذى كان يقرأ عليه) بدايتك نهاية غيرك . فانى ما رأيت أحدا تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها فى هذا الزمان ،

لقد ظفر باجازة « الجلال السيوطى » وهو مازال فى العاشرة من عمره ، ولا يطن ذلك فى « الجلال السيوطى » الذى لم يكن قد رأى « الشعرانى » حين كتب له مجيزا الرواية عنه ، فالقراءة الصادقة لها القدرة على التنبؤ والكشف ، وقد ورد فى الأثر : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله ، ومكانة « السيوطى » رحمه الله فى علمه وصلاحه وورعه وإيمانه لا يستكثر عليها القدرة على التفرس فترى فى « الشعرانى » - وهو سليل تلك الدوحة التى ذاع صيتها فى عالم المعرفة والتقوى - الأهلية الكاملة فيما بعد على حمل الشعلة المقدسة شعلة العلم والمعرفة ، وقد صدقت فراسة « السيوطى » والله الحمد .

كما ظفر باجازة شيخه « أمين الدين » امام جامع الغمري ، الذى صاحبه حينما من الدهر فأحسن صحبتته ، وتلقى عنه علوما جمة ومعارف واسعة وقد أدرك الغمري فيه نباهة وعلو قدر وسمو مكانة فأجازه بجميع مروياته وعلومه وتأليفه .

وكان العارفون من العلماء يدركون ما وصل اليه « الشعرانى » من علم ومعرفة ويجلون له لذلك ، من أمثال شيخ الاسلام « زكريا الأنصارى » الذى عرف له فضله ، واتصلت معه مودته حتى مات رحمه الله وهو راض عنه تماما ، ومن أمثال الشيخ « ناصر الدين اللقانى » المالكى ، الذى كان اذا ما قصده « الشعرانى » زائرا يقوم

له من فوق « مرتبته » ويجلسه عليها بجامع الأزهر ، وكان يجلس بين يديه كجلسة المتعلم وكان « الشعراني » يضيق بذلك ضيقاً شديداً ، ويحاول عبثاً أن يثنى الشيخ عن فعله ، ولكنه كان يصر على ذلك اعترافاً منه بقدر زائره ومكانته .

وكان كثير منهم يقصده تعظيماً له وتقديراً من أمثال الشيخ « شهاب الدين أحمد بن الشلبى الحنفى » وأخيه الشيخ « سراج الدين » ويتحدث « الشعراني » بصدد ذلك معترفاً بأن مجيئهم إليه راجلين يصيبه بكثير من الحجل منهم لما عرفه من مكانتهم وارتفاع قدرهم ، وكان يذوب حياءً بسبب تكلفهم المجيء له بهذه الكيفية .

وبلغ من اتساع علمه أنه كان يكفى طلاب زاويته من الافتقار إلى غيره فى كافة العلوم التى يتطلبها المجاورون من فقه ونحو وبيان وبلاغة وطب وأصول وتوحيد وتفسير وحديث وغيرها ، فقد كانوا يجلسون عنده ضالّتهم .

وقد استطارت شهرة « الشعراني » العلمية حتى أثارت الإعجاب والحسد ، فالتف حوله التلاميذ ، وناصبه بعض العلماء العداء حين رأوا منه ذلك المجد العلمى والتقدم والبراعة ، وحين رأوا تلك التأليف العديدة التى طبقت شهرتها الآفاق وتلقفتها الأيدى فى العالمين العربى والإسلامى ، والتهمتها العيون والأذهان ، ووعتها القلوب والأفهام ، فنفسوا عليه هذه المكانة وكادوا له ، ولكنه خرج من هذه الفتنة مرفوع الرأس ناصع الجبين ، وباء حساده بالحزى والعار . يقول عنه « نجم الدين الغزى » : طالع الكتب مطالعة كثيرة ، وكان رحمه الله تعالى من آيات الله تعالى فى العلم والتصوف والتأليف ، وكتبه كلها نافعة وقد دلت كنبه التى تقدر بحوالى [٣٠٨] على أنه اجتمع بكثير من العلماء والأولياء والصالحين (١) .

(١) الكواكب السائرة بإعيان المائة العاشرة ج ٣ ص ١٧٦ بتصرف فى العبارة .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية : كان « الشعراني » عالما كثير
 الاحاطة ، كما تقول : كانت « للشعراني » مكانة عقلية مرموقة . .
 وله الى جانب ذلك أثر بالغ في العالم الاسلامي بفضل ما أوتي من
 غزارة عجيبة في مادته ، فقد كان قلمه يسيل بأسلوب سهل المأخذ
 قريب للأفهام مما أدى الى اقبال الناس على تواليفه ، وقد راجت كتبه
 بالفعل في حياته ولا تزال موضع التقدير العظيم كما يتبين من تعدد
 طبعاها .

واعتمد الدكتور زكي مبارك بكتب « الشعراني » واعتبرها
 وثيقة تصور المجتمع الاسلامي في القرن العاشر فهي على هذا الأساس
 مصدر علمي هام ، وعند حديثه عن بعض الآداب الصوفية يقول :
 اعتدنا بكتبه لأن « الشعراني » في نظرنا من كبار الباحثين في
 الآداب العملية ولأن آراءه لا تزال تسيطر على الجماهير من أهل هذه
 البلاد (١) .

و « الشعراني » ليس في حاجة الى تزكية فآثاره تنطق بعلمه
 وفضله ، تلك الآثار التي تقدر في بعض الأحيان بثلاثمائة مؤلف
 بعضها لم يسبق اليه ، وقد أجبرت هذه المؤلفات الكثير من المعارضين
 على أن يحنوا رعوسهم اجلالا لهذه الشخصية الفذة ، واستنطقت
 المستشرقين بشهادات رائعة من بينها تلك العبارات التي نقتطفها من
 كتاب « التصوف الاسلامي والامام الشعراني » .

يقول المستشرق « فولرز » : ان « الشعراني » كان من الناحية
 العملية والنظرية صوفيا من الطراز الاول ، وكان في الوقت نفسه
 كاتباً بارزاً أصيلا في ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد
 الاسلام لا يعرف له نظيرا ، وان كتبه التي تجاوزت السبعين عدا من

(١) التصوف الاسلامي في الأدب الاخلاق ج ١ ص ٥٠ .

بينها أربعة وعشرون كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق اليه أبدا ولم يعالج فكرتها أحد قبله .

ويقول « مكدونالد » : « ان الشعراني » كان رجلا داركا نفاذا مخلصا واسع العقل . . وكان عقله من العقول النادرة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى في الاسلام .

ويقول « نيكلسون » : انه أعظم صوفي عرفه العالم الاسلامي كله ، وانه منذ فتح المغول العالم الاسلامي ركزت الحركة الفكرية في الاسلام ، واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد ، فلا نجد بوادر انطلاق أو نتاج خصب أو أي أثر لتفكير أصيل وضيء باستثناء شخصيتين شاذتين هما « ابن خلدون » المؤرخ و « الشعراني » الصوفي ، وكان « الشعراني » بالذات مفكرا مبدعا أصيلا أثر تأثيرا واسع المدى في العالم الاسلامي يشهد به الى يومنا الحاح القراء الحاحا متواصلا على طلب مؤلفاته .

ويقول عنه الدكتور توفيق الطويل : كان الشعراني واسع الامام بعلوم عصره محيطا بما وقع له من كتب البارزين من أهلها قدامى ومعاصرين . وأورد عنه هذه القصة التي تدل على سعة علمه وثقافته : كتب أحد الحساد سؤالا يتصل بفقرات وردت في كتاب « العهود والمواثيق » وقدمه الى شيخ الاسلام « الفتوحى الحنبلى » فامتنع عن التعليق عليه بحجة أن « الشعراني » قد قرأ من الكتب ما لا نعرف له اسما وأنه لو ادعى تأليفها ما وجد في مصر منازعا .

وقائمة الكتب التي ألفها الشعراني طويلة جدا . ذكر كتاب المناقب الكبرى منها عددا وافرا يزيد على مائة كتاب ، وأوضح أن بعضها يقع في ستة مجلدات وبعضها في خمسة مجلدات وأغلبها في مجلدين .

وأورد بعضهم أنه ألف ما يقرب من ثلاثمائة مجلد ، وفي المخطوط
التوفيقية أنه ألف سبعين كتابا ، والمترجمون « للشعراني » يذكرون
أن « بروكلمان » في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية أحصى له ستين
مؤلّفا تضمنت من فيض المعلومات ما يشهد بقوة ذاكرته وقدرته على
استيعاب ما يقرأ وما يسمع (١) .

ولا ينبغي أن نستكثر أو ننكر هذا النتاج الضخم على
« الشعراني » مادام لا يوجد ما يدل عليه من مخطوطات ، فقد
عرفنا محنة مصر في أيام الفتح العثماني وأن هؤلاء الفاتحين قد
نقلوا الى بلادهم ما أمكنهم أن ينقلوه من نفائس ومن بينها الكتب
والمخطوطات ، فلا يبعد أن تكون كتب الشعراني التي أشارت إليها
بعض المصادر ولم توجد قد أصابها ما أصاب غيرها من تغريب
وتشريد .

على أن هناك مخطوطات كثيرة « للشعراني » لا تزال تنتظر عناية
الغيورين على التراث الاسلامي فتتقنها من عوادي الاهمال ، وتعيدها
قريبة من الأيدي والعقول في صورة قشبية من النشر والتحقيق .

و « الشعراني » يعد من نعم الله عليه أن جميع أشياخه في
الفقه والتصوف وغيرهما من العلوم ماتوا وهم عنه راضون ، وذلك
من أكبر النعم ، فإن رضا الأشياء على طلابهم عنوان رضا الله عز
وجل عنهم .

(١) الشعراني للدكتور توفيق الطويل .

● بين العلم والتصوف

يكرر « الشعرائى » فى سلوك الطريق الصوفى ، وقد مارس « التصوف » فى بدء حياته بحكم النشأة فى بيئة يغلب عليها الطابع الصوفى ، فأسرته العريقة فى هذا الاتجاه كان لها أثر فى هذه النزعة التى صاحبت الطفل منذ بدأ يعقل .

وقد مر بنا طرف من حياة هذه الأسرة المعتقدة التى التف حولها الناس لما شهر عنها من صلاح وتقوى ، سواء فى المكان الذى نزحت إليه أولا منذ قدومها من المغرب ، والذى حلت رجالها فيه بين ربوع « منية ابن خصيب » فى منطقة « ههيه » ومنطقة « البهنسة » ذات الأضرحة والقباب حيث يقيم الناس حولها مولدا . فى يوم الجمعة من كل أسسبوع ، ويمد بعض الخيرين موائد وأسطة تستضيف الزائرين وتطعمهم ابتغاء وجه الله . أو فى المكان الذى نزحت إليه فروع هذه الأسرة فى « ساقية أبى شعرة » من اقليم المنوفية حيث أقام جد « الشعرائى » زاوية يتلقى الناس العلم فيها ، ويتلون الأوراد ويقيمون الأذكار ، وتوارثها من بعده أولاده وأحفاده ، وظلت عامرة حتى رآها « الشعرائى » ورأى أضرحة أجداده وأعمامه وبعض أفراد أسرته بجوار هذه الزاوية يوليتها الناس كثيرا من الحب والتقدير .

وفى طفولته الأولى كان كثير العبادة والتهجد دائم السهر ، يجده لذة فى ذلك حتى قبل مجيئه الى القاهرة . واستمر فى اداء ذلك بعد مجيئه إليها لم ينقطع عنه ، ولطالما نازعته نفسه الرغبة فى التفرغ للعبادة ولكنه وجد الصبر على معاناة العلم أمرا هاما ،

ونصبح له شيوخه الكثيرون ألا يشغل نفسه عن طلب العلم بالاقبال على التصوف والتفرغ له قبل أن يأخذ من العلم نصيبه الوافر ليكون ذلك أدعى الى تنبته وتحققه وجمعه بين علمي الشريعة والحقيقة .

ولكن كل ذلك لم يمنعه من كثرة الصوم والتعفف الزائد وكف النفس عن التطلع الى الشهوات وصرفها عن كل ما تميل اليه من شهرة أو أثر أو حب للنساء .

كان ذلك قبل أن يتخذ له شيخا صوفيا يرشده الى كيفية معالجة النفس وتركيتها ، ويعد هذا من قبيل الهام الله الذي قبض له عقلا يهديه وذاجرا نفسيا يحميه . وحين أقبل على الطريق أقبل عليها بهمة لا تعرف الكلل فقد « قطع العلائق الدنيوية ، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض لا ليلا ولا نهارا ، بل اتخذ له جبلا بسقف خلوته يجعله في عنقه ليلا حتى لا يسقط ، وكان يطوى الأيام المتوالية ، ويديم الصوم ويفطر على أوقية من الخبز » (١) وهكذا كانت همته في الطريق لا تقبل عن همته في طلب العلم . ولقد بالغ في تهذيب نفسه حتى حملها على ما تكره ، والزهد بالاقبال على ما تنفر منه الطباع ، ويقول في ذلك « تركت أكل لذيق الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات نحو سنتين ، ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغائنى الله بالحلال المناسب لمقامي اذ ذاك » (٢) وكان يخرج الى موارد البرك التي يغسل الناس فيها الخس والجزر والفجل فيلتقط منها ما يكفيه مما أعرضوا عنه . على أن عناية الله لاحظته في هذه الفترة فجعلته يسبخ التراب فيجده فيه طعم لحم المرق (٣) .

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ٨ ص ٣٧٢ .

(٢) التصوف الاسلامي والامام الصمداني ص ٢٩ .

(٣) مناقب الكبرى ص ١٢٨ .

وفى هذه الفترة نفر من الناس كما نفر الناس منه ، فاعتزلهم وأقام بعيداً عنهم فى الأماكن الخربة والمساجد المهجورة ، ويحكى أنه أقام فى البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدى مدة سنة .

ومن ذلك السلوك نذكر أنه أخذ نفسه بما يأخذ به المريئون أنفسهم من حب للعزلة وزهد فى الدنيا ومجاهدة للنفس وإقبال على العبادة ، متحلياً بالصمت والسهر ، وتعشق السهر حتى استلذه ، وحمل نفسه عليه حملاً شديداً فكان لا ينام الا الخفلة بعد الخفلة وهو جالس غير مضطجع ، وقد علق رقبته بحبل فى السقف - كما رأينا - يحول بينه وبين السقوط على الأرض من غلبة النوم ، وكان يلجأ الى وسائل أخرى غير ذلك كان ينزل الى المغطس بسرأويله فى شدة البرد حتى يفيق من النعاس ، أو يضرب أفخذه بالسباط ضرباً موجعاً بدون رحمة .

وهذا أقسى ما يمكن أن يجاهد به الإنسان نفسه ، ولكن النضاية العظمى يستلذ الطموح الخطر فى طريقها ، وقد كان « الشمرانى » طموحاً .

وقد أنتجت هذه للمجاهدة ثمارها البالغة « فقويت روحانيته فصار يطير من صحن الجامع الغمرى الى سطحه » (١) .

ويبدو أن ذلك السلوك كله لم يكن يصحبه فيه شيخ أو مرشد ، ولكنه اجتهد بنفسى عبر هو عنه بقوله : انه من منة الله عليه أن ألهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ لما تبهر فى العلم (٢) . وظل ذلك حاله حتى ألهمه الله صحبة الشيوخ والاجتماع على اهل الطريق وانقياده لهم فاجتمع على شيوخه ومؤيديه .

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ٣٧٢ .

(٢) لطائف اللين ج ١ ص ٤٩ .

تسيوخته فى الطريق :

وشيوخ « الشعرانى » فى طريقه الى الله كثيرين ، ويمكن أن يوضع فى قائمة هؤلاء الشيوخ كل من أحبهم وتعلمه عليهم من الصوفية السابقين الذين تركوا وراءهم آثارا تقرأ أو أخبارا تذكر من أمثال سلطان العاشقين « ابن الفارض » وسلطان العارفين « ابن عربى » ومن أمثال « الحلاج » و « ذى النون » وشيخ العرب « أحمد البدوى » وغيرهم من شيوخ التصوف الأجلاء ، كما يمكن أن يوضع فى هذه القائمة شقيقه « عبد القادر » الذى تولى كفالته بعد أبيه . وكانت له معه توجيهات روحية ومراسلات مرت علينا صورة منها ، يفهم منها كيف تكون مكانة الولي عند الله ، وجاء فى « المناقب الكبرى » : أصل نجابة الشعرانى من رضاع أدب أخيه عبد القادر .

ومن هؤلاء الشيوخ ، الشيخ « زكريا الأنصارى » الذى البسه الخرقة ، وقد صرح « الشعرانى » بذلك فى قوله : لبست الخرقة وهى طاقية من قطن من يد شيخ الاسلام زكريا الأنصارى (١) . ولا تعارض بين نسبة لباسها الى الشيخ « زكريا » وبين نسبة لباسها الى « السيوطى » فقد مر أن لباسها على يد « السيوطى » كان رؤيا منامية . هذا الى أنه يجوز أن يرتدى الصوفى الصاعد الخرقة أكثر من مرة وعلى أياد متعددة .

وكان شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم شيوخا متصوفين جمعوا بين العلم والعمل ، ولم يكن العلم حرفة فى ذلك الوقت عنده أغلب العلماء ، ولكنه كان عند هؤلاء وسيلة لتحصيل المكارم ، وواسطة تطلب بها الآخرة ، وكان صلاح العالم وتقواه وورعه أمرا

(١) المناقب الكبرى ص ٦٢ .

غير مشكوك فيه . هكذا كانت سيما أغلب العلماء وصفة الكثيرين منهم ، والقليل النادر هم الذين تزيوا بزي العلماء ولم يتخلقوا بأدابهم .

وقد تأثر الشعراني بشيوخه أولئك وما منهم أحد الا وقد أمده ينصح أو أرشده الى فعل أو لحظه بطرف ، ولذلك لا تغفل قائمة شيوخ الشعراني أسماء هؤلاء الأجلة .

على أن من بين هؤلاء الشيوخ من كان له تأثير خاص في حياة « الشعراني » من أمثال الشيخ « أمين الدين » امام جامع « الغمري » والشيخ « علي الشونى » الذى أمره أن يتوجه الى جامع الغمري للاقامة فيه .

وقصة ذلك أنه كان ملازما لجامع الأزهر منذ قدومه من الريف عاكفا على طلب العلم حافظا لكل ما وصل الى يده من فنونه حتى سميت همته الى حفظ كتاب « الروض » مختصر « الروضة » لكونه أجمع كتاب فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وحفظ منه قدرا كبيرا حتى وصل الى باب « القضاء على الغائب » فى أواخر الكتاب ، وفى أثناء سيره فى الطريق لقيه الشيخ « أحمد البهلول » - وهو ولى من أرباب الأحوال - عند باب الخرق (الخلق) قريبا من « باب زويلة » فقال له مكاشفا : قف على باب « القضاء على الغائب » ولا تقض على غائب بشئ . فما قدر بعد ذلك على حفظ شئ .

ولقيه « البهلول » بعد ذلك فقال له : أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، واستشار « الشعراني » شيوخه فى ذلك فأشاروا عليه بأن لا يدخل طريق القوم حتى يتم شرح محفوظاته ويفهمها جيدا ويتبحر فيها ، واستمع الى نصيحهم فجمع بين الاصفاء الى الدروس ومجاهدة نفسه ومطالعة كتب التصوف .

ولقبه « البهلول » مرة أخرى فقال له : ان أردت حياة قلبك الحياة التي لا موت بعدها فأخرج عن الركون الى الخلق ، ومعت عن هواك وارادتك ، فاستشار شيخه « الشسوني » الذي كان يحبه ويصطفيه ، فأشار عليه بالتوجه الى مسجد « الغمري » . وكان هذا المسجد معهدا علميا عتيدا ، غاصا بالطلاب المجاورين الذين يتلقون العلم على يد شيوخ أجلاء (١) .

وقد كان فتوجه من قوره الى جامع الغمري حيث أقام عماد مدة طويلة تقدر بحوالي سبعة عشر عاما (٢) .

وباقامته في هذا المسجد لم يفقد صلته بالأزهر ، ولم سفلط علاقته بالعلم ولكنه جمع فيه بين طريق العلم وطريق التصوف . فقد ذكر أنه حفظ فيه العلم وشرح الكتب وسلك طريق الصوفية . ثم رتب مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في حوالي سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (٣) .

ولكنه ظل واضعا عبارة « البهلول » السابقة نصب عينه . ولا سيما وهو يدرك تماما من قراءاته لكتب التصوف أن هذه الطريق مليئة بالمخاطر ، زاخرة بالعقبات ، فلن يمكن اجتيازها الا بواسطة شيخ يسوس له نفسه ويوقفه على كيفية قيادتها .

فالتقى بكثير من الشيوخ قبل أن يلتقى بالخواص في نهاية مطافه بهم .

ولكن قبل التقائه به كان له في جامع « الغمري » شأن وأى شأن .

(١) التصوف الاسلامى والامام الضمرانى ص ٢٣ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٩ .

فى مدارج الكمال :

وجه « الشعرانى » فى جامع « الغمى » عناية كريمة من
امامه ومن أسرته ، وأفسحوا له صدرهم الرحب ، وفى خلوة هناك
أقام يراوح بين العلم والعبادة آخذاً بحظه منهما •

ومى ظلال هذا الجامع حدثت له الفيوضات الروحية الكريمة
التي كان لها الأثر فى رسم مستقبله الروحي الزاهر ، وكان تحوله
إليه فى حدود سنة سبع عشرة وتسعمائة تقريباً ، وبعد ذلك بدأ
يرتب مجلساً للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يعكف عليه
بعد العشاء الآخرة كل ليلة ، وظل هذا دأبه مع غيره من الأوراد
والأذكار التي كان يأخذ نفسه بها ويجعلها ورداً له •

صفت نفسه بالمجاهدات المتعددة التي أشرنا إليها حتى تغلبت
روحانيته على جسديته فتمكن من الطير فى الهواء ، فكان يطير من
صحن الجامع إلى السطح أو المنارة ، وذلك مظهر لتعشق روحه
للعلو ، فهي تطيعه فى الصعود وتستعصى عليه فى الهبوط •

واعتقله الناس فى الجامع وأقبلوا عليه من كل فج ، وقسموا
إليه الهدايا والأموال التي كان يعرض عنها مرات ويقبلها لبيعها
فى صحن الجامع مرات ، فيلتقطها الصبيان والفقراء •

وكان ذلك يرفعه فى أعين الناس ، لأن الطبيعة الانسانية
جبلت على الميل إلى الزاهدين فى عرض الناس وأموالهم • وكان
ذلك أيضاً يرفعه فى عين الله ، لأن أقباله عليه كان صادقاً ورغبته
مخلصة فى طريق الوصول إلى الله •

وفى يوم طرق خلوته شيخه « أحمد البهلول » الذى كان
لا يفتأ يتردد عليه بين الحين والحين • وهو الذى كان قد وجهه إلى
سلوك طريق القوم • وقال له : هل أنت متزوج ؟

أجاب الشعراني : لا .

قال له : ولم ؟

أجاب الشعراني : لأنى فقير لا أملك المهر الذى أتزوج به .

قال البهلول : أمدد يدك . وقبض على يده ، وقال له : لقد زوجتك وأنكحتك « زينب بنت خليل القصبي » وأقبضت عنك المهر ثلاثين دينارا ، وأخدمتك اخوتها الثلاثة ، وأعطيتك البيت المخلق على اسمها . قل : قبلت نكاحها لنفسى ، فقال « الشعراني » : قبلت .

وانصرف « البهلول » من عنده وأغلق الباب وراءه ، ولم يمض قليل حتى طرق باب الخلو طارق ، وسأل « الشعراني » : من الطارق ؟

فرد الطارق قائلا : أنا خليل القصبي .

ودخل الخلو بعد الاستئذان ، قال « للشعراني » : أريد أن أصاهرك . وأزوجك ابنتى .

وأطرق « الشعراني » قليلا فى حيرة ، ثم أجاب فى ثبات أنا فقير لا أملك شيئا ولا مهر معى .

وهنا يتدخل فى الحوار مجاور فى الجامع سمع حديثهما من أوله ويقول : أنا عندى ثلاثون دينارا أدفعها مهرا عن الشيخ . وأصبر عليه حتى يأذن الله بالفرج .

ويقبض « القصبي » المهر راضيا ، ويزيد قائلا : ولها بيت مغلق على اسمها أعطيه لكما ، ولها ثلاثة اخوة هم خدمك ويتعلمون على يديك .

وتتحقق بذلك نبوءة « البهلول » وتكون « زينب » هذه أول زوجة يبنى بها « الشعراني » فى حياته ، وقد تزوج بعدها ثلاث

نسوة أخر هن « حليمة ، وفاطمة ، وأم الحسن ابنة الشيخ أبي
السعود بن مدين الأشمونى » وكانت « زينب وحليمة وفاطمة »
من محلة القصب من اقليم الغربية .

ويعد « الشعرانى » من نعم الله عليه اصلاح زوجاته له ،
فقد كن طامعات قاتنات صابرات معه على حاله ، لم يحدث منهن
ما يحدث من الزوجات عادة فى التطلع الى غير ما قسم الله لهن من
سعة الرزق والتلذذ بالحياة .

ومن « فاطمة » أنعم الله عليه بالخلف الباقي «عبد الرحمن»
الذى حمل اسم أبيه من بعده ، وان كانت غيرها قد ولدت له ولكن
لم يشأ الله أن يبقى لهن وللشعرانى غير « عبد الرحمن » المذكور ،
وقد احتسب صابرا راضيا كل ولد له غيره .

وفى جامع الغمري تشرف « السلطان سليم » بمقابلة
الشعرانى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، حين فتح مصر وأقام
بقلعة الجبل ، ووفدت عليه الوفود ، حتى أزمع على الرحيل الى
تركيا ، فقال : هل بقى أحد من العلماء أو الأولياء لم نره ؟

فقالوا له : ما بقى الا رجل عظيم ولكنه صغير السن ، لم تجر
عادته أن يقابل أحدا من الولاة أو يحضر مجلسهم .

فقال السلطان « سليم » : أنا أذهب اليه .

وردهب السلطان « سليم » وقابل « الشعرانى » وأحبه
وأعتفده . وقبل شفاعته فى العفو عن القاضى «محيى الدين عبد القادر
الأزبكى » رأس الكتاب بديوان القلعة ، وكان قد غضب عليه
السلطان وتوعده وأخذ منه السجلات ، ويقال انه أهدر دمه . فخشى
على نفسه ولجأ الى « الشعرانى » فاستجار به ، فأمنه « الشعرانى »
وانتهز فرصة زيارة السلطان « سليم » له فكلمه فى شأنه فأحابه
ورده الى سابق عمله .

وفى جامع الغمري يذكر « الشعراني » أنه رأى الخضر عليه السلام ، واجتمع معه على سطح الجامع ، حيث دله على الميزان المدخلة الى جميع أقوال الأئمة المجتهدين والمقلدين واتصالها بالشريعة المحمدية ، وفى هذا الاجتماع أخذ الخضر بيده وأوقفه على عين الشريعة حتى لقد تجسدت له ورآها رأى العين ، ورأى اتصال جميع أقوال الأئمة العلماء بها ، ولا يخرج قول من أقوالهم عنها ، وقد أمره الخضر بتأليف كتابه « الميزان الخضرية » الذى لم يلبث أن أعقبه بكتاب شرح فيه ذلك بعنوان « الميزان الشعرانية » .

فى مدرسة أم خوند :

وأقام « الشعراني » فى جامع الغمري زهاء سبع عشرة سنة (١) . وكان هذا الجامع قد أسسه « أبو العباس الغمري » الذى اشتهر بتعمير المساجد فى المدن والقرى ، ثم تحول منه الى مدرسة « أم خوند » بخط بين السورين .

وأفاض بعض المؤرخين فى سبب تحوله من جامع الغمري الى المكان الجديد ، وذكروا فى ذلك أسبابا متعددة حاولوا فيها أن يحطوا من قدر الشيخ .

ولكن السبب الرئيسى يعود الى ما وصل اليه « الشعراني » من منزلة سامية ، جعلت القلوب تنعطف نحوه وتتهجه اليه ، وكثر زواره ومعتقدوه ، وكان ذلك سببا فى اثاره الحسد فى نفوس المجاورين حوله والمقيمين معه فى الجامع ، فنقصوا عليه اقامته فعزم على التحول منه .

يقول « على مبارك » فى الخطط التوفيقية : تحول « الشعراني » من الجامع الغمري الى المدرسة المعروفة بأم خوند بخط كافور

(١) الخطط التوفيقية - الشعراني لتوفيق الطويل .

الاخشيدى بالقرب من سكنه الآن لأن جماعة من اهل الغمري حسدوه على اجتماع الناس عليه فى مجلس للصلاة على النبى ، فنقصوا عليه وبسطوا السنتهم فى شأنه ، فاسمعوه غليظ القول وتحالفوا على المصحف ألا يحضروا معه مجلس الذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لا فائدة فيه .

وكان « الشعرائى » قد رتب فى هذا المسجد مجلسا للصلاة على النبى بإشارة من شيخه « على الشونى » فكان مواظبا على إقامة هذا المجلس ، وكان يحضره عدد لا حصر له من المجاورين والمريدين والمحبين .

وقد انتهز أولاد « الغمري » فرصة مناسبة لاهراج الشيخ واخراجه من الجامع ذلك أنه كان فى ليلة اشتد عليه الحال ، فصاح باسم « الله » صيحة هائلة ارتجت لها جوانب المسجد ، وكاد أن يتصدع بسببها بيت الشيخ « أبى الحسن الغمري » .

ولما عرف مصدر الصوت بادر الشيخ « أبو الحسن » بالرغبة فى ترك المنزل ولكن « الشعرائى » كان قد سبقه الى ذلك ، وتحول الى مدرسة « أم خوند » فحط رحاله هناك بعد أن مكث على بابها حوالى ستة أيام ، رأى فى نهايتها رؤيا تفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن له بالاقامة بالمدرسة المذكورة .

وهذا السبب هو الذى ذكره صاحب « المناقب الكبرى » ، وهو الذى يتمشى مع المنطق والعقل ، فكثيرا ما ينب الحسد الى قلوب الناس حين يرون بعض النابهين يبرزون علما وشهرة .

وذكر صاحب « المناقب الكبرى » أيضا أن الشيخ « أحمد الطهواى » الضرير رأى رؤيا تفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم يأمر « الشعرائى » بالتحول الى مدرسة « أم خوند » بخط بين السوريين ، فأقام بها ثم بنى الزاوية بعد ذلك .

وليس هناك من تعارض بين هذا السبب والسبب السابق .
فقد يكون السبب الأول وهو الصيحة مترتبا على السبب الثاني
وهو الرؤيا ، وقد يكون هذان السببان ناتجين عن تأثير السعاة
والعاقدين الذين كثيرا ما يشوشون على الناس أحوالهم ، ويتفرونهم
من البقاء فى المكان الذى توجد فيه أسباب التنفير والتشويش ،
نظرا لما يطلبونه من استقرار يمكنهم من التفرغ للجهد والعبادة .

وبالرغم من ذلك فان « الشعرائى » لم يذكر عن اسرة
« الغمرى » الا كل خير ، وفى ترجمته الشيخ « أبى الحسن الغمرى »
فى طبقاته يبين منزلة هذا الرجل فى نفسه ومنزله هو عنده .
ويقول عنه : كان رضى الله عنه من الصفاء والصلاح على جانب
عظيم . . . صحبته ثلاثين سنة الى أن مات ما رأيته تغير على يوما
واحدا ، فلما انتقلت من جامعه صار يردد الى فأكاد ان أدوب من
الخجل من مشيه الى ، ويقول أنا أشتاق اليك .

ونلاحظ أن ذكر « الثلاثين سنة » جاء على وجه التقريب
لا التحديد ، فالمعروف أن « الشعرائى » جاء الى القاهرة فى مفتتح
سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، و « أبو الحسن الغمرى » توفى سنة
تسع وثلاثين وتسعمائة .

وبتحول « الشعرائى » الى مدرسة « أم خوند » الذى كان على
وجه التقريب سنة أربع وثلاثين وتسعمائة بدأ مرحلة جديدة فى
حياته . فقد استقر به المقام فى مكان هادئ يستطيع أن يفرغ
نفسه لرسائله التى كرس جهوده لها .

وتجواب فى حناياه كلمات « البهلولى » التى تقول له : ان
أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها فأخرج عن الركون

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٣٢ .

الى الخلق . وميت عن هواك وارادتك ، فهناك يحبيك الله عز وجل
حياة لا موت بعدها ، ويفنيك غنى لا فقر بعده ، ويعطيك عطاء لا منع
بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ، ويعلمك علما لا جهل بعده ،
ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك في قلوب عباده
فلا تحقر بعدها . قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المنن « (١) » .

وتعمل هذه الكلمات في نفسه عملها ، وكان قد سبق له أن
سمع هذه الكلمات من قبل ، واستجاب لها ، ولزم العبادة
والمجاهدة ، وصاحب من أجل ذلك كثيرا من أجلاء الصوفية
وشيوخهم . وانفجع بالكثير منهم . ولكنه مع ذلك لم تستيقظ هذه
الكلمات في نفسه كما استيقظت الآن ، ولم يبد له سحرها كما
بدأ اليوم .

لقد صاحب الشيخ « نور الدين الشنوني » منذ قدومه الى
القاهرة واستمر في مصاحبته ومازال مستمرا .

وصاحب الشيخ « أمين الدين » امام جامع الغمري ، والشيخ
« أبا الحسن الغمري » وصاحب الشيوخ « الحرثي والشناوي
والمرصفي ومحمد بن عنان » وغيرهم ، ولكنه مع ذلك يشعر أنه
في احتياج شديد الى جلاء معنى الكلمات السابقة التي لا تزال
تتردد في صدره بالرغم من وفاة صاحبها منذ أكثر من ست
سنوات (٢) .

ودله المخلصون على « الخواص » .

ووجد عند « الخواص » ضالته .

ولنترك « الشعرائي » يقرر بنفسه كيف كان أثر « الخواص »
في حياته ، فيقول : ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطرق .

(١) التصوف الاسلامي والامام الشعرائي من ٣٥ .

(٢) توفي المهلول سنة ٩٢٨ (المتأقب الكرى) .

التمس لديهم المفاتيح والأبواب ، فلم يكن لي وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة : « على المصطفى ، ومحمد الشناروى ، وعلى الخواص » رضى الله عنهم ، فسلكت على يد الأولين شينا يسيرا ، وكان فطامى على يد الخواص ، أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم ، والا فالحق أنه لا فطام حتى يموت الانسان « (١) . وسيأتى حديث عن ذلك - ان شاء الله تعالى .

وفى مدرسة « أم خوند » حصل الشعرانى على حقائق كثيرة ، ودانت له العلوم والمعارف التى اقتطف ثمارها اليانة ، وظهرت له مؤلفات طريفة تدور حول مختلف الفنون ولا سيما التصوف التى أصبح له فيه القدر المثل .

زاوية الشعرانى :

وفى أثناء اقامته بمدرسة « أم خوند » أنشأ زاويته المشهورة التى لم تلبث أن أصبحت منارة العلم والعرفان ، والحق بالزاوية مسكننا انتقل اليه وترك مدرسة « أم خوند » وكانت مدة اقامته بهذه المدرسة تقدر بحوالى سبع سنوات .

وكان لبناء الزاوية قصة عجيبة سبقها ارهاصات منها : الحريق الذى اشتعل فى مدرسة « أم خوند » وترتب عليه سقوط الأدوار الثلاثة العليا ولم يصب أحد بسوء .

ومنها : أن رجلا صالحا رأى أحد الأمراء يعزم على بناء هذا المكان الذى بنيت فيه الزاوية قصرا له ، فحذر الأمير من البناء قائلا له : هذا ليس لك وانما هو زاوية عبد الوهاب ، فلم يأبه له الأمير واستمر فى عزمه ، فلم يلبث أن مات بعد أيام دون أن يحقق قصده من بناء القصر .

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٥١ .

ومنها تهيو السبب الذى أدى الى ذلك العمل ، وهو ما انفصله بالقصة العجيبة . ذلك أن السلطان « سليم » كان قد غضب على القاضى « محبى الدين عبد القادر الأزبكى » ، فلجأ الى « الشعرانى » مستنجرا به ، فأخذ عليه العهد أن عفا عنه السلطان ليبين له مسجدا ، فقبل ، وكلم « الشعرانى » السلطان فى أمره فعفا عنه ، وحين حان الوقت طلب « الشعرانى » من القاضى الوفاء بالوعد .

وربما يفهم من ذلك أن المدة طويلة جدا بين أخذ العهد عليه والوفاء به . فقد مضى بين غضب السلطان وعفوه وبين الشروع فى البناء ما يقرب من ثمانية عشر عاما ، ويمكن الرد على ذلك بأن « الشعرانى » لم يطلب القاضى بالوفاء بعهد الا بعد أن أصبحت الفرصة مهيأة لذلك . وربما يكون أمر الغضب على القاضى قد تكرر من السلطان « سليمان » أو نائبه فى عصر اشتهر بالتناقض وسرعة الرضا والغضب ، وأمر بتجريد من أملاكه وإهدار دمه مرة أخرى ، وتكررت مع ذلك وساطة « الشعرانى » على عادته التى دأب عليها فى التوسط للناس لدى الحكام والمسئولين فاستصبر عفا آخر عنه وأخذ عليه العهد قبله بأن يبنى الزاوية .

وأيا كان الأمر . فقد نفذ القاضى وعده ، وشرع فى شراء الأرض وأعد لها ما يلزمها من عمارة وأموال ، وبدأ فى إقامة مبناه ، ولم يتم الثلاثين حتى سافر الى الحجاز ومات فى الطريق . فأكمل « الشعرانى » البناء بالمال الذى رصده القاضى لهذه العمارة .

ويحاول البعض أن يشيروا الى فساد فى الأصول التى استمدت منها الأموال التى أقيمت بها الزاوية ، فيذكرون سوء استغلال القاضى « محبى الدين الأزبكى » شروط وظيفته التى كان يقوم بها ، وأثرى عن طريق ذلك اثراء جعله يخشى على نفسه حين أقبلت دولة بنى عثمان ، وبدأ الأمراء يفتشون أصول الأشياء ، فأراد أن يخرج

عن أجزاء كبيرة من ممتلكاته حتى اذا ما فتش لا يوجد عنده شيء ، واشترى من أجل ذلك تلك الأرض التي أنشأ عليها المسجد والمدرسة ، ووقف عليهما ما يمتلكه من أرض وعقار .

وتلقب بعض المستشرقين هذه القصة ، ونسجوا حولها جوا غريبا يحاولون من ورائه التشكيك في ورع « الشعرائى » واثارة الظنون حوله ، جريا على عادتهم التى دأبوا عليها من غمز يكشف عن رغبة فى الغض من شأن القمم الاسلامية ، ويظهر ذلك واضحا فى كتابة دائرة المعارف الاسلامية فى بعض مواضعها عن « الشعرائى » حين تذكر مثالا علمه الغزير ثم تقول بعد ذلك : انه خلا من روح النقد ، أو تقول : ان للشعرائى مكانة عقلية مرموقة ، ثم تتبع ذلك بقولها : ينبغى ألا نسرف فى تقديرها . أو ادعاؤها بأن « الشعرائى » طلب منه « السيد البدوى » أن يزيل بكاره امرأته « فاطمة » التى ظلت فترة طويلة دون أن يدخل بها (١) . أمام ضريحه . وبالطبع لا يصدق عاقل امكان حدوث ذلك .

ولذلك لا يستغرب أن يتلقف المغرضون منهم ذلك الخيال الذى تخيلوه حول منشئ الزاوية لينسجوا منه حقيقة متوهمة تهدف الى تشويه سيرة هذا الرجل العظيم ، وقد حاولوا هذه المحاولة من قبل حين أرادوا أن يلقوا الشبهات حول خروجه من جامع « الغمرى » زاعمين أن سبب ذلك قصة حب حدثت بين هذا الصوفى الجليل المتبتل الذى نذر نفسه لله وبين فتاة من أسرة « الغمرى » ، وليس شيء من ذلك كله له أصل من الحقيقة والواقع .

والخطط التوفيقية هى التى ذكرت قصة القاضى « عبدالقادر » ونسبت اليه الاتهام المتقدم ، وبينت أن رغبته فى انشاء الزاوية

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة اسمه البدوى .

ترجع الى حرصه على حماية ما استغله من أموال فاشترى وبنى ووقف .

ولكن ، هل كان فى هذه العمل حماية لما استغله أم خروج عنه كلية لله ؟

ان حماية الاستغلال تكون بتهريب المستغل الى جهات أخرى يضمن بها المستغل حمايته ووصول موارده اليه . أما أن تخرج هذه الموارد والمصادر من يده جملة فلا يمكن أن يسمى حماية للاستغلال كما فهم البعض أو كما حاول أن يفهم البعض .

ثم لماذا سكت القاضى كل هذه الفترة الطويلة - بين دخول العثمانيين وبناء الزاوية - عن التفكير فى حماية ما يمتلك ؟ وهذه الفترة تقدر بحوالى ثمانية عشر عاما تقريبا . وتلك المدة كافية فى اثبات ما يراد اثباته ، لو كان القاضى يحاول أن يتستر على نفسه حقا لبادر الى ذلك من أول مجيء العثمانيين وبدءوا يدسون انوفهم فى كل شئ فور وصولهم .

كما أن ورع « الشعرائى » المشهور عنه والذي بالغ فيه الى درجة أنه حرم على نفسه كثيرا من ألوان الحلال الطيب زهدا وتورعا يحول بينه وبين ذلك ، ولقد رمدت عينه يوما فطلبوا له قطرات من لبن مرضع يقطرها فى عينه - على طريقة العلاج السائدة فى ذلك الحين - فأبى أن يأخذ هذه القطرات الا بما يقدر لها من قيمة ، لأن ذلك فى نظره ليس ملكا للمرأة ، وانما هو ملك للرضيع الذى لا يعقل كيف تسمح نفسه برزقه . وهذه مبالغة فى الورع ، وهو مقام لأصحاب المقامات يعرفونه ويتخلقون بحقيقته ، بالرغم مما يظهر لعامة الناس أن ذلك ليس فيه شبهة . فلا يمكن أن يكون مثل هذا الورع الشديد يتلاصم معه ما يمكن أن ينسجه الخياليون من أن تلك الزاوية وذلك الجامع قد أسسا على غير تقوى من الله ورضوان .

وشواهد التاريخ تبين دائما أن ما بنى على غير أساس سليم لا يقدر له الدوام والاستمرار استنادا الى قوله تعالى « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا » ، وحقا ذلك فانه « لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » يقول القرطبي في تفسير ذلك : الخبيث كله لا يعلج ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة وإن كثر (١) .

وزاوية « الشعرائى » بنتاجها الطيب الضخم تشهد بضيق اصولها وزكاء فروعها .

والحديث عن ورع « الشعرائى » يطول وله مقام غير هذا - ان شاء الله تعالى -

مكانة الزاوية :

ولا يمكن المرور على سيرة « الشعرائى » دون أن نتحدث عن زاويته التى كانت لها مكانتها الخطيرة فى مصر فى ذلك الوقت . ويستدعى ذلك حديثا قصيرا عن مكانة الزوايا فى العالمين العربى والاسلامى .

الزوايا أماكن تدرس فيها أحكام الشريعة وفروض الدين وطرق العبادات وأنواع العلوم والمعارف ، وتؤدى فيها الشعائر الدينية ، ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب : أنه ألحقت بها مساكن للفقراء المنقطعين ومنها ما خصص للنساء ، وكانت بمثابة دور كفالة للمرأة ، تقيم بها البنات حتى يتزوجن ، والمطلقات حتى يردهن أزواجهن أو يتزوجن (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن سورة المائدة .

(٢) مساجد ومآجد ج ١ ص ٦ .

كانت هذه الزوايا بيوتا اجتماعية - اذن - تربي النفوس وتعالج أمراضها ، وتطب القلوب تحت اشراف الشيوخ والعلماء الأجلاء . وقد انتشرت هذه الزوايا في مختلف بلاد المسلمين .

وفى دائرة المعارف الاسلامية تعريف للزاوية بأنها بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني ، وتشمل غرفة للصلاة وضريحا مخصصة لضيوف الزاوية أو للحجاج والمسافرين والطلبة .

وتضيف : أن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار لأحد الأولياء وتضم مكتبا أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، ثم غرفا مجانية للضيافة . . ولم تصبح أماكن يفزع إليها الناس هربا من الدنيا فحسب بل أصبحت أيضا مراكز للحياة الدينية والصوفية، حيث عمل العلماء من رجال الدين الذين كان التصوف شغلهم الشاغل على تقريبه الى أذهان الجماهير فأصبحت الزوايا مراكز تستهوى قلوب الناس ومدارس دينية ، كما أصبحت الى حد ما دور ضيافة مجانية يقصدها الرحالة الذين يبحثون عن الكمال الروحي (١) .

ويظهر أن الزوايا برسالتها الصوفية والعلمية والتربوية والاجتماعية أثرت كثيرا من السلاطين والأثرياء والأمراء على انشائها وتقليدها ومناخستها ، فحاولوا بمنشآتهم التي أقاموها بجانب مراكز التعليم الديني أن يقلدوا مدارس الزوايا في المدن وخارجها، وتذكر دائرة المعارف أيضا أن هذه الزوايا كان لها أثر سياسى الى جانب أثرها الدينى والعقلى .

وقد ذكرت الخطط التوفيقية أسماء كثير من الزوايا التى كانت عامرة فى أنحاء العالم العربى وبخاصة فى الديار المصرية والقاهرة

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة زاوية .

بالذات ، ومن بينها زاوية الآبار وهي المدرسة البندقدارية التي أنشأها الأمير « علاء الدين البندقدارى » الصالحى النجمى ، وجعلها مسجدا لله وخانقاه للصوفية ، ورتب فيها صوفية وقراء ، وزاوية « جلال الدين الكبرى » بالأزهر ، وزاوية « القرافى » وشعائرها كانت مقامة حتى زمن المؤلف « على مبارك » وغيرها كثيرا جدا .

كما ذكرت خطط « المقرئى » أسماء كثير من الزوايا ، وأشارت الى أن الفضل فى انشاء الخوانق والزوايا بمصر يرجع الى السلطان « صلاح الدين الأيوبى » الذى أنشأ الخانقاه الصلاحية أو دار سعيد السعداء سنة تسع وستين وخمسائة ، وجعلها مكانا يأوى اليه الفقراء والصوفية ووقف عليهم وجعل لهم شيخا وأكرمهم وتواضع لهم (١) .

وتتابع بعده العاملون على انشاء هذه الدور من الخوانق والزوايا ، وليس هناك من كبير فرق بين الزاوية والخانقاه ، فقد كانت الخانقاه - أصلا - مسجدا كاملا به المنبر والمئذنة والمرافق والمحقت به مساكن للفقراء وتؤدى بها الجمعة والجماعة .

أما الزاوية فكانت - أصلا - مساكن للفقراء يلحق بها غرفة لأداء الصلاة ولا تؤدى بها الجمعة ولا يقام فوقها منارة .

وبمرور الوقت اختلط الأمر بينهما فأصبحت الزاوية تطلق على الخانقاه ، واتسع مدلول الزاوية فشمل المسجد والمدرسة والخانقاه والرباط .

وفى عصر « الشعرانى » كان يوجد كثير من المدارس التى يتلقى الطلاب فيها العلم ويوجد كذلك كثير من المساجد التى يقيم بها الطلاب عابدين ومتعلمين .

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٤٠٢ طبعة التحرير .

وقد أقام « الشعرائى » طرفا طويلا من حياته بجامع الغمري حيث كان مكانا أهلا بالعلماء والمتعبدين ، وأقام طرفا آخر بزواية أو مدرسة « أم خوند » فقد أطلق عليها « على مبارك » لقب زاوية ، حتى أسس « الشعرائى » زاويته المشهورة .

أقيمت زاوية « الشعرائى » اذن لتكون رباطا للعباد ومدرسة لطلب العلم وزاوية للمجتهدين وتكية للفقراء ومسجدا للصلاة .

وأوقف عليها منشئها كل ما يقيم شئون ذلك من نفقة وإدارة وموظفين وإصلاح وأثاث وغير ذلك .

ولم يلبث الاغنياء أن سمعوا بأمر هذه الزاوية فتسابقوا فى سبيل الايقاف عليها والاهداء لها ، وازداد تسابقهم لما علموا من مكانة « الشعرائى » ومنزلته وصلاحه وتقواه .

كما تسامع الطلاب بأمرها فأقبلوا على الالتحاق بها من كل صوب ، حتى ضمت بين جدرانها الكثيرين منهم بين مقيم وراحل .

فقد ذكر « الشعرائى » أن الذين استقر بهم المقام فيها من الطلاب مائتان بينهم تسعة وعشرون كفيفا . عدا الراحلين منهم وكانت الزاوية تقوم بأود هؤلاء جميعا من غذاء وكساء ونفقة .

والحق « الشعرائى » بالزاوية مساكن للمتزوجين يقيمون بها مع زوجاتهم الذين أقعدهم الزمن عن الكسب ، وكان لا يدخر وسعا فى سبيل اسعاد نزلاته ، ويراقب أمورهم بنفسه ، ويعين لهم من المتابعين والمباشرين ما يضبط به نظام حياتهم دون تقصير فى أقل أمر من أمورهم .

ومن أمثلة ذلك :

الحبز الذى كان يعد للطعام يوميا يقدر بأردب وثلاث ، ويقوم على تهيئته عشرون فردا .

وكان يختزن للمجاورين كل عام عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطارا من عسل القصب ، وثلاثمائة أردب من القمح ، وأربعين أردبا من الفول ، وسبعة أرداب كشك ، وسبعة أرداب أرز ، وخمسة وعشرين أردبا من البقول والحبوب كالباسلاء والعدس وغيرها .

وكان يخصص للأعياد خمسة أرداب قمح للكعك وكان يحمل اليه من الهدايا ما يعادل ثلاثة أرداب وكان يتفق على المجاورين من سعة ولا يقتصر عليهم ، ويشعرهم بأنهم لا يقلون شأنًا عن غيرهم في مستوى معيشتهم ، فكان يشتري لهم الجوز واللوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين الجاف ويبلغ قيمة ذلك خمسة قناطير .

وكان يزرع لهم البطيخ في جزيرة قرب « ساقية أبي شعرة وقد مر بنا صورة خطاب بينه وبين أخيه « عبد القادر » بهذا الخصوص . وكان يدخر في خزائن الراوية ما يقدر بألفي بطيخة يظل الفقراء يأكلون منها على مدار العام حتى يوشك ظهور البطيخ الجديد .

ومن غريب الأمر أن « الشعرائي » كان يكفل لطلاب زاويته ما لا يكفل لنفسه أو أسرته ، ويقدم لهم من طيبات الطعام ما لا يقدمه لنفسه ، ففي الوقت الذي كان يوزع عليهم الحلوى ويكلف ميزانية الزاوية الكثير في جلب أنواع الفاكهة و « الياميش » كان هو ينع باليسير الزهيد الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع . وتلك من سمات الأريحية الكاملة والورع الحقيقي والزهد الجميل والايثار العظيم .

وكان طلاب زاويته ينعمون بما لا ينعم به غيرهم من رواد الزوايا الأخرى المنتشرة في ربوع القاهرة والمدن والقرى ، وقد تكون هذه سياسة « الشعرائي » في اجتذاب مريديه ، فكثير من الناس تؤلفهم النعمة ، فإذا تمكن من نفوسهم بالاحسان صقلها بالرعاية

واشتد عليها بتكليفها أنواعا شاقة من الرياضات المختلفة حتى تتخلص من عاداتها وشوائبها •

وكانت له ألوان مختلفة في سياسة طلابه ، فما يصلحه الزجر يزجره ، وما يصلحه النصح ينصحه ، وما يجدى فيه الود اجتذبه وما ينفع في اصلاحه الهجر هجره ، وهكذا كان يعطى كل ذى حق حقه ، ويعالج النفوس بالحكمة ، ويخاطب أصحابه على قدر عقولهم وتلك ميزة الكاملين من الحكماء •

وكان يقوم بالرعاية الاجتماعية للمجاورين ، فكان يزوج منهم من يريد الزواج ذكورا وانانا ، ويؤدى عنهم المهر ، ويشترى لهم الأثاث وكل ما يلزم لهم حتى ما خفى ودق • وقد زوج أربعين مجاورا وحرص على تزويد المتزوجات باللبن الشامى والحجازى والشمع والحضاب والزينة والحيط وغبر ذلك مما تحتاج اليه العروس •

وقام بنفقة كثير من الراغبين فى الحج من مجاورى الزاوية وكان يزودهم فى ذهابهم ويايهم بكل ما يحتاجون اليه من نفقة وزاد • وكان يحمل معه فى أثنائه حجه ثلاثين حاجا ، وقد حج هو أربع مرات ، مرة منهن بصحبة أخيه « عبد القادر » وكان فى بدء بلوغه ، ومرة فى عام سبعة وأربعين وتسعمائة ، ومرة فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة ومرة فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة •

والى جانب ذلك كان يكرم كل من يفد الى الزاوية من ضيوف يقدر عددهم يوميا بحوالى سبعين ضيفا ، ويمد المسوزين من غير المجاورين بكل ما يحتاجون اليه من طعام وكساء ونفقة •

هذه رعاية « الشعراى » الاجتماعية لأهل زاويته • أما رعايته الروحية فهى أجل من أن تحصر ، فقد شملهم عطفه الروحى وكانوا محل نظره دائما ، قام بتهدييهم وتربيتهم تربية كاملة ، وأشرف على حفظهم من كل ما يكدر صفو نفوسهم ويقف فى طريق وصولهم •

حفظ أجسامهم من الحرام والشبهة ، فكان لا يقبل هدايا الظلمة ولا الغاشمين من الحكام ويتورع عنها . وكان لا يأكل هو وطلاب الزاوية من « الضحايا التي تأتي الى الزاوية من الكشف (١) أو العمال أو مشايخ العرب أو المباشرين أو التجار الذين يبيعون للظلمة ، وإن ضحاحا جعلها عن أصحابها لا عن الفقراء ، لأن مشروعيتها لاماطة الأذى عن صاحبها وهو خاص بالحلال الطيب (٢) » .

وقد استأذنه الأمير « جانم الحمزاوى » فى أن يقدم اليه كل صباح مبلغا من المال فرفض (٣) .

وكان يعلم تلاميذه فى الزاوية أن يكونوا على منال كامل فى الزهد والقناعة والورع والتعفف ، وكان هو قدوة لهم فى ذلك والقدوة تؤتى ثمارها كاملة فى النفوس ونعمل عملها فى الأرواح

أرسل مرة « خسرو باشا » مالا عظيما فلم يقد أحد من فقراء الزاوية لقاصده حين طلبهم ليفرق عليهم المال ، فتعجب منهم غاية العجب ، وقال : لقد ازدحم على المجاورون فى جميع الزوايا - وما أكثرها فى ذلك الوقت - حتى رموني على الأرض الا أهل هذه الزاوية فأخذ « الشعرانى » المال من يده وبذره فى صحن الزاوية ، فالتقطه أطفال المكتب ، ولم يأخذ المجاورون منه شيئا فتعجب القاصد لذلك ، وحكى للباشا ما رآه فتعجب أيضا ، واعنقه « الشعرانى » وقدمه . وبعد أن أورد صاحب « المناقب الكبرى » هذه القصة وغيرها مما يناسبها قال : وما من أحد من نواب مصر الا وقد

(١) الكشف جمع كاشف . وظيفة كانت فى العهد العثماني .

(٢) المناقب الكبرى ص ٩٦ .

(٣) الشعرانى لتوفيق الطويل .

أرسل الى « الشعرائى » المال الكثير فتارة يردّه الشيخ ويقول
لمرسله : فرقوه على من هو أحوج اليه ، وتارة يبذره •

وجاء مرة « الدفتردار أحمد » بمائة دينار ، فقال للشعرائى
خذ هذه الدراهم فتوسع فيها ، فردّها عليه ، وقال : عندى بحمد الله
صندوق ملآن ، فخرج وأرسلها مع مملوك ، وقال : أعطها له سرا
بحيث لا يراك أحد ، لظنه أنه ردّها رياء ، فلما دخل عليه المملوك
قال له على الفور : يا ولدى ، لم آخذها من سيدك ، فهل آخذها
منك ؟ فرجع وأخبر سيده فقال « الدفتردار أحمد » : هذا رجل
غريب فى فقراء مصر وأخذ يمدحه فى كل مجلس •

وبهذه القدوة وبذلك السياسة تمكن « الشعرائى » من الهيمنة
على نفوس مريديه وتلاميذه والتأثير فيهم وتربيتهم على القناعة والعفة
التي ترفع من همتهم وتلبسهم لباس العزة والكرامة بين أقرانهم •

وكان يأخذ مريديه بألوان مختلفة من العبادة تناسب أحوالهم
 ويفرض عليهم القيام بكثير من أنواع المجاهدة من صيام وصلاة
وأوراد وأحزاب وتلاوة ، وكان مجلس الذكر العام يجمع بينهم جميعا
فى الأوقات التي حددها لذلك ، وقد رتب مجلس الصلاة على النبى
صلى الله عليه وسلم ولم يتعطل ليلة واحدة ، كما رتب مجلسا بعد
صلاة الصبح بإشارة من الخضر عليه السلام حين قال له : لا بأس
من أن تجلس بجماعة بعد صلاة الصبح تصلون على النبى صلى الله
عليه وسلم ، ثم تذكرون حتى ترتفع الشمس قدر رمح ، أما مجلس
الليل فقد رتبّه بإشارة من شيخه « على الشونى » •

وكانت هذه المجالس لا يتركها مريدوه كلهم ، ويقومون الى
جانبها بما يفرض عليهم كل على حدة • وكان هو قدوتهم فى ذلك ،
لا ينام من الليل الا أقله . ولا ينام الثلث الأخير من الليل على الإطلاق
وكانت تلاوة القرآن فى الزاوية لا تنقطع ليلا أو نهارا ، لا يفرغ

قارئ حتى يكون قد بدأ آخر ، وكان « الشعرائى » يستمع الى هذه التلاوة وهو جالس فى بيته قرير العين بذلك .

دخل مرة فى الليل ثلاثة أملاك وهو بين النائم واليقظان فسلموا عليه ، فقال أحدهم لصاحبيه : قد طفتم الليلة مشرق الأرض ومغربها ، فهل رأيتم بقعة أكثر ذكرا وقرآنا من هذه البقعة ؟ فقالا : لا . فقال أحد الأملاك للآخر : فما حد ما تصل اليه بركة هذا المجلس ومدده ؟ فقال : ينتهى الى حد باب الحاكم من جهة باب النصر ، فقال : وما حده من جهة الشرق ؟ فقال : الى حد باب الشعرية على يسار الداخل منه .

ويعقب « الشعرائى » على هذه الرؤيا قائلا : مازالت هذه البركة تتسع وتتسع حتى شملت الكثير من المدن والقرى بل والأقطار (١) .

ويحضر المريدون مجالس الذكر والعبادة كما يحضرون مجالس التصوف التى يعقدها لها شيخهم وغيره من الشيوخ الذين كانوا يترددون كثيرا على الزاوية ، ويعمل حديثهم فى نفوسهم عمل السحر ، فتصفو وترق وتهذب . وهكذا يجد المجاورون زادهم الروحي الكامل فى ظلال هذه الزاوية المباركة .

وبجوار هذه الرعاية الروحية يحضر المريدون حلقات الدروس العلمية المختلفة من فقه ونحو وشريعة وطب وتوحيد وغير ذلك من فروع العلم ، فقد كانت الزاوية مدرسة حافلة بشتى المعارف والفنون .

ويعد « الشعرائى » من نعم الله عليه أن طلاب زاويته لم يحتاجوا الى غيره فى مختلف علومهم فقد أعطاه الله من علوم الشريعة

(١) للتأليف الكبرى ص ١١٢ .

واللغة ما يكفى أصحابه ولا يحوجهم الى الخروج ليقروا القرآن على غيره أو ليتفقوا فى مختلف المذاهب والعلوم من فقه وبيان وبديع ومعان وطب وتفسير وميقات وفرائض وغيرها ، كل علم يطلبونه يجدونه عنده ، وقد وضع كتابا فى الطب لهذه الغاية عنوانه « مختصر تذكرة السويدي فى الطب » .

واذن فقد كانت الزاوية حافلة بكل ما يطلبه المريدون من غايات ، ووجدوا فى ظلها كل عون مادي ورعاية اجتماعية وزاد روحى وعلمى ، وتخرج فيها الكثيرون من التلاميذ الذين ساروا على درب أستاذهم وانتفعوا بعلمه وعمله .

قال له أحد السائحين : لقد طفت بكثير من البلاد فى مصر وخارجها فلم أر مثل هذه الزاوية نفعا وعمرانا .

وقال له الشيخ « أبو الفضل » شيخ بيت بنى الوفا : طغنا مشارق الأرض ومغاربها فلم نجد أكثر خيرا ولا ذكرا ولا علما ولا أدبا من أهل زاويتك والمجاورين بها .

وهذا التقرير نفسه يقرره « الشبلى » (١) .

وقال « المناوى » صاحب طبقات الشاذلية : كان الناس يسمعون لزاوية « الشعراني » دويا كدوى النحل ليلا ونهارا (١) .

كما يقرر الدكتور توفيق الطويل أن هذه الزاوية حفلت بالقراء والعلماء فى الفقه والحديث والتفسير والنحو وما إليها من العلوم واكتظت بالقراء فى التصوف والمقيمين على ذكر الله وقراءة الأوراد والأحزاب (٢) .

(١) التصوف الإسلامى والامام الشعراني ص ٥٠ .

(٢) الشعراني لتوفيق الطويل .

● الشعراني ورجال الأزهر

« الشعراني » ابن الأزهر ، فقد استظل بظله منذ أول يوم وطئت فيه قدماء أرض القاهرة ، وبين جدرانها تلقى ألوانا مختلفة من العلوم والمعارف ، وعلى أيدي علمائه الأجلاء درس أصول المولد العلمية وفروعها ، وتعلم فنون الحكمة ، ولم تنقطع صلته بالأزهر حتى بعد انتقاله منه الى جامع « الغمري » فقد ظل يتردد عليه ويولط على حضور كثير من الدروس فيه . يحكي عن شيخه الامام « شمس الدين الديروطي » قائلا : وقد حضرت مجلس وعظه في الجامع الأزهر مرات (١) . وطالت مدة خدمته لشيخه « نور الدين الشوني » الذي كان ملازما للجامع للأزهر ، والى الأزهر يرجع الفضل في نبوغه في كل العلوم الشرعية واللسانية والعقلية التي حصلها وأجادها وبرع وألف فيها .

« والشعراني » لا ينكر ذلك ولكنه يباهي به .

وقد ظل الأزهر منارة العلم والعرفان « والقلعة التي قامت على حراسة علوم للدين واللغة حتى الآن ، وبعد أن عمرت أكثر من ألف عام » (٢) وكان علماء الأزهر محل ثقة الشعب والحكومة يتصدرون الزعامة ويمثلون القيادة الروحية ، وعنهم تصدر الأحكام التي تجدد لها للصوت المسموع ، والآراء التي تصادف الآذان

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) مساجد ومعاهد ج ١ ص ٢٤ .

الصاغية ، ولقد مرت بالأزهر فترات حالكة جمدت فيها العلوم والفنون ، ووقفت العقلية الأزهرية عند حد لا تتخطاه ؛ وكان ذلك في العهد العثماني الذي أصاب الحياة المصرية - بصفة عامة - بموجة من الكساد في شتى مراقفها ، ووصلت عدواها الى الأزهر « فجف ماؤه وذوت نضرتة وغشيه الظلام » (١) . ولا غرابة في ذلك ، فقد نقل للعثمانيون الى القسطنطينية ذخائر الكتب والآثار ونفائس العلوم والمعارف ونابغى الصنائع والفنيين ، وقبضوا على الأعلام من أئمة العلم وقادة الفكر وزعماء البلاد ورحلوهم الى تركيا ، وفي تاريخ « ابن اياس » قائمة بأسماء كثير من هؤلاء (٢) .

وسرت علوى الجمود الذهني الى النفوس ، فأثارت عند بعض العلماء نار الحقد والمودة على النابقين والتابعين ، وأكل الحسد قلوب هؤلاء لأنهم رأوا غيرهم قبلة العلماء والرؤساء ، فأخذوا يضعون في طريقهم الأشواك ، ويشيرون حولهم الغبار ، ويفترون ضدهم الأقاويل ، وينشرون حولهم الشبهات ، ويدسون عليهم بالحق وبالباطل .

والحقد - في الحقيقة - ليس له زمان ومكان ، ولكنه يظهر حتى في أزهر العصور وأزهى الأمكنة ، فهو داء في النفوس الرخيصة التي لم يهذبها الايمان الكامل ، ولم ينورها الاثار الكريم . الا أنه في أوقات الجمود الذهني والنفسي يصبح نارا تتأجج فتأكل القلوب ، ويسرى شواظها فيلتهم المثل والمبادئ ويقضى على القيم والأخلاق . ولا يبالى الحاقدون حينئذ بما يترتب على ذلك من نتائج وآثار ، وغاياتهم المريضة تبرر وسائلهم الشريرة .

(١) مساجد ومعاهد ج ١ ص ٢٤ .

(٢) ص ١١٢٤ .

وهذا ما أصاب « الشعراني » من هؤلاء .

اعتبره بعض الفقهاء مارقا عن الدين لسبب - في رأيهم - هو أنه كان يؤثر علم الباطن على علم الظاهر ، وأداه ذلك - في نظرهم - الى الخط من شأن العلوم الدينية التي تجيء اكتسابا (١)

« والشعراني » لم يكن يؤثر علم الباطن على الظاهر ، ولم يخط من شأن العلوم الدينية كما زعموا ، ولكنه كان يرى ويعتقد ما يراه ويعتقده شيخه الخواص من أن الحقيقة والشرعية كفتا الميزان والانسان قلبها ، وكان دائما يقول : الشرعية والحقيقة وجهان لشيء واحد وهو الشرع الحنيف .

والسبب الرئيسي ليس هذا ، وإنما هو الغيرة والحسد ، فقد علت منزلة « الشعراني » وأصبح مقصد الناس ومعقد أملهم ، وتواضع له الحكام والزعماء ، وأصبح يمثل للقيادة الشعبية الحقيقية التي كانت للأزهريين .

أثار هؤلاء بشأنه فتنة في الأزهر لم تلبث أن استفحل أمرها وازداد خطرهما حتى وصلت الى الحجاز وغيره من الأقطار الإسلامية . وكما فعل الفقهاء في عصر « ابن عربي » معه فعل معاصرو « الشعراني » وكما زيف الفقهاء على لسان « ابن عربي » وقلبه كلاما ونسبوه اليه وشنعوا بسببه عليه كذلك فعل الفقهاء مع « الشعراني » ، فقد زيفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » ودسوا في ثنايا كتاب « البحر المورود » كلاما يخالف الشرع واستصعدروا بذلك حكما جائرا ضد « الشعراني » .

واستفحلت الفتنة بعد أن أحكم الخصوم للخطة واتقنوا

(١) الشعراني لتوفيق الطويل .

تزويرهم ، وروجوا هذه المقالات الزائفة فى مختلف الأقطار ، ولبت هذا للتزييف قائما فترة طويلة ، وقد تزعم اشغال هذه الفتنة فى الازهر « الشيخ حسين العبادى » (١) الذى وقف كل همه على تبني قضيتها واثارة الخواطر والأذهان ضد « الشعراى » ويقص « الشعراى » طرفا من هذه الخصومة بأسلوبه قائلا : -

« دسوا على فى كتابى « البحر المورود » جملة من العقائد الزائفة ، وأشاعوا تلك العقائد فى مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا برىء منها ، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه ، فما سكنت للفتنة حتى أرسلت اليهم النسخة التى عليها خطوطهم » وكان ممن انتسب لنصرتى الشيخ الامام « ناصر الدين اللقانى المالكى » رضى الله تعالى عنه ، ثم ان بعض الحسدة أشاع فى مصر ومكة أن علماء مصر رجعوا عن كتابتهم على مؤلفات فلان كلها ، فشك بعض الناس فى ذلك فأرسلت النسخة للعلماء ثالث مرة فكتبوا تحت خطوطهم : كتب والله من ينسب الينا أننا رجعنا عن كتابتنا على هذا الكتاب وغيره من مؤلفات فلان » (٢) .

وظل « الشعراى » يكافح خصومه الذين تصدوا له فى كل ميدان ، وحاولوا أن يخطوا من شأنه عند مناصريه ، ويحكي صاحب « المناقب الكبرى » عن ذلك قائلا : ان بعض للناس سعوا عند « ناصر اللقانى » بالباطل زاعمين له أن « الشعراى » يجمع بين النساء والرجال فى مكان واحد ، فتغير خاطر « ناصر الدين اللقانى » لذلك ، ولكن « الشعراى » تمكن من أن يزيل مافى

(١) البحر المورود للمسة .

(٢) اليوايت فى الجواهر ص ٧ .

نفس الشيخ حين أطلعته على حقيقة حاله وأنه برىء مما نسب إليه عن طريق كرامة من كراماته وفحولها : أنه أرسل إليه يستعير منه « مدونة الامام مالك » رضى الله عنه ، فأرسلها إليه قائلا : عساه يتوب مما هو فيه ، وكانت المدونة متعددة الأجزاء لاتحمل بسهولة ، ولا يكفى قراءتها أشهر معدودت .

وحين حملها أحد أتباع « اللقاني » المقربين أبقاه « الشعراني » عنده ، وتمكن هذا التابع أن يطلع على حاله حيث وجد صارفا وقته في العبادة والتهجد ، ولم ير عنده ما بلغ « اللقاني » عنه من أنه يجمع بين الرجال والنساء في مجلس الذكر ولا في غير مجلس الذكر . بل وجد لكل طائفة حجرا مستقلة منزلة ، ولم يغب « الشعراني » عن نظر التابع الا فترة يسيرة قبيل الفجر ثم صلى معه الصبح وحضر مجلس الذكر حتى طلوع الشمس كالعتاد ثم ناوله « المدونة » قائلا له : بلغ الشيخ تحياتي وشكري .

وحينما عاد التابع الى اللقاني « بالمدونة ازداد استهزاء « بالشعراني » فقد ظنه يعبت به ، فانه لا يعقل أن يكون قد وجد ضالته في « المدونة » في هذا الوقت القصير ، ولكن « اللقاني » حين تصفحها وجد على كل صفحة منها تعليقا بخط « الشعراني » وشرحا في بعض المواضع مما يقطع بأنه قرأ « المدونة » كلها في ذلك الوقت اليسير الذي غاب فيه عن نظر التابع قبيل الفجر بقليل . وأدرك « اللقاني » من فوره أن الله قد مد للشعراني في وقته وبارك له فيه ، وذلك لا يحدث الا لمن كانت العناية تلحظه . وقام من فوره واعتذر إليه عن ذلك التغير الذي حدث في خاطره نحوه .

وظل « اللقاني » يكرم « الشعراني » جدا ، ويحدث عن ذلك قائلا : - « كنت اذا وردت على شيوخ الشيخ « ناصر الدين اللقاني » يقوم لي من على مرتبته ويجلسني عليها بالجامع الأزهر ويجلس بين يدي كجلسة للتعليم ، فأصبر في خجل منه وحياء ولا يمكنني من فعل شيء غير هذا حتى انصرف » .

وكان « الشعراني » يدرك حسد الحساد فيعمد الى استكتاب الأجلة من العلماء على مؤلفاته كتقرير منهم بأن كتابته خالية من كل أمر خارج عن الشرع الشريف .

ولكن مكر هؤلاء الحساد كان يزين لهم أن يسعوا بالباطل قائلين : ان الشعراني اضاف الى آرائه في مؤلفاته آراء أخرى خارجة يعد أن حصل على اجازة للعلماء عليها ، وذلك ايمان منهم في الكيد للرجل ، فيعود بالنسخة اليهم مرة أخرى ليراجعوا ويقرروا من جديد .

وكان « الشعراني » يفوض أمره الى الله البصير بالعباد ليرد عنه كيد هؤلاء الكائدين ، وكان يعتقد أن هذه سنة الكون ، فما نبه أحد الا وابتلاه الله بمن ينغص عليه حاله ، وقد أثبت هذا القول في كثير من مؤلفاته ، وأيده بالشواهد الصادقة من حياة العلماء والأولياء ، وحقا ذلك ، فانه جل وعلا يقول « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » فما بالنا بغير الانبياء ؟ .

وليسست هذه الفتنة أول عقبة تعرض لها « الشعراني » فقد عرفنا أنه غادر جامع القمري لأن الحسد أكل قلوب قوم هناك فنغصوا عليه وقته فتركهم .

الشعراني والشرعية

« وللشعراني » لم يكن مناهضا للشرعية في حياته ، ولكنه ظل طول حياته حفيظا عليها مدافعا عنها حفيا بها مقيما لأركانها ، وكان يدقق في ذلك تدقيقا كبيرا ، وكان لورعه قصص تروى وتلى وتضعه على رأس قائمة الورعين . ولكنه كان لتنور بصيرته يدرك من أسرار الشريعة ما لا يدركه غيره ، وقد انكشف له من معنى التعبد ما جعله ينطق ويفعل بما لا ينطق غيره من الفقهاء أو يفعل ، فيدخل في روع هؤلاء أن هذه مخالفة مع أنها لم تخرج عن عين الشرع بل هي سره ومطلوبه .

دعا « للشعراني » في كتبه الى عدم التعبد بالكلمات ، ولكن يجب التخلق بما تدعو اليه هذه الكلمات ، فقد هاله أن يرى بعض العلماء يعكفون على دروس الفقه يفهمونها فهما جيدا ويشرحونها ويعلقون عليها ويكتبون الحواشي والتقريرات دون أن يجد لهذا الفهم أثرا في السلوك والمعاملات . فعلام - اذن - يكون العلم ؟

إن العلم اذا لم يثمر العمل لاقية له ، والعلم ان لم يكن وسيلة لتحصيل المكارم فالجهل خير منه . لقد جمدت أذهان العلماء ونفوسهم ووقفت عند حد لا تتجاوزه ، وظن هؤلاء أن غاية العلم فهم الكلمات ، وغفلوا عما يدعو اليه العلم من تخلق واعتبار ، فنعى « الشعراني » على العلماء هذه الحال ، ودعاهم الى أن يفكروا جيدا بعقولهم فيما يجب عليهم وضرب لهم الأمثلة المختلفة التي تنبههم وتحذرهم من عاقبة أمرهم .

قال لهم : ليس الغرض من تعلم القرآن أن يعرف العالم وجوه قراءاته دون الانتفاع بمكنون دعوته والتخلق بأدابه ، ويحكي في ذلك ما سمعه من شيخه الخواص قائلا : - سمعت شيخنا -

رضى الله عنه - يقول لقارىء : اقرأ القرآن من حيث ما هو كلام الله
لا من حيث ما تدل عليه الآيات من الأحكام والقصص فحسب
والمراد بالتدبر التدبر الذى أمر الله به وهو الذى يجمع القارىء
على الله (١) .

وليس الهدف من علم الكلام أن يعرف الإنسان آراء الفرق
المختلفة ، دون أن يتمكن من استشعار هيبة الخالق واحاطته وسعة
علمه ومبلغ قدرته .

وليس المقصود من دراسة الفقه معرفة أركان الصلاة
وشروطها وفرائض الوضوء ونواقضه وطرق المعاملات من غير أن
يظهر أثر ذلك فى اتقان الركوع واتمام الخشوع والخضوع
وادامة الصلاة وكثرة التهجد وحسن السلوك ، وكان يقول
للعلماء : لا يكمل العالم فى مقام العلم حتى يصبح الشارح - وهو
الله جل وعلا - مشهودا له فى كل عمل مشروع .

الامعان فى الخصومة للشعرانى :

قام الفقهاء وقعدوا لذلك ، كيف يجعل « الشعرانى » من
نفسه معلما لهم ، وبأى حق ينحى باللائمة عليهم ؟

كيف ينقد زهوم وغرورهم ؟ ويفند علمهم ويحكم عليهم
بالبطل ؟ .

ثار الحاقدون من الفقهاء ضده ، وزيفوا - كما سبق - كتبه
وأعلنوها عليه حربا شعواء لا هوادة فيها ، ولاكوا سيرته بكل

(١) الجواهر والدرر ص ١٨٥ .

نسان ، ووضعوا من شأنه فى كل مجلس ، وأثاروا ضده الحواطر والأذهان .

ووقف « الشعرانى » شامخ الرأس من هذه الفتنة لم تلن له قناة لأنه موثق أن الله سينصره .

ولما لم يجد هؤلاء نتيجة سلكوا طريقا آخر وهو الإيقاع به عند السلطان ، فانتهزوا لذلك الفرصة ، وزينوا عند نائب السلطان أن « الشعرانى » يحرك مؤامرة ضد الحكم للقائم ، ولاحت هذه الفرصة حين غضب بعض نواب السلطان على ناظر النظار فى عهده فاخفى فى بيته ، وذهب اليه « الشعرانى » ليلقنه درسا فى كيفية معاملة أولى الامر ووجوب الطاعة لهم ، فنقل هؤلاء الخصوم الى النائب ما يفيد أن « الشعرانى » اجتمع مع ناظر النظار ليطيحا به ويستبدلا به غيره ، ويبدو أن النائب قد أعار هذا الكلام أذنا صاغية فتغير مزاجه من جهة « الشعرانى » .

وسرعان ما كانت عناية الله أسرع من الأذى الذى أرادته خصوم « الشعرانى » له فقد صدرت الأوامر السلطانية من تركيا بأقصاء النائب عن منصبه ، فيسرع الى « الشعرانى » فيترضاها ويستعطفه ويعتذر اليه . والعجيب أن الأوامر عادت بعد ذلك الى النائب بالبقاء فى منصبه (١) . ويقف الخصوم مذهولين ، فقد بات مؤمراتهم بالفشل .

ويرقبون فرصة أخرى ، وحانت هذه الفرصة التى يقصها « الشعرانى » بنفسه قائلا :

ان عليا باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله أونفیه ، فطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل ، فأتوا الى فطلمت

(١) النائب الكبرى ص ١٩٨ .

للباشا فآكرمنى وقبل شفاعتى ، وقال لى : لا تكلف خاطرك قط الى طلوع القلعة وارسل لنا ورقة فقط ، فبلغ ذلك الحسدة فاجتمعوا وزيفوا على مسائل فى العلم كاذبة ، واضافوا الى أمور منفرة لعلى باشا ، ثم رفعوها اليه ، فلما قرأها قال : أما المسائل المتعلقة بالشرعة فذلك الى العلماء ، وأما غير ذلك فلا أقبله فيه أبدا ، وإنما رجعت فى أمره الى قلبى ، فارسلوا اليه قصة ثانية وثالثة فمزقها وشاع فى مصر أن الباشا يحب فلانا ، فقال الحسدة : قد صار أهل مصر مع « الشعرانى » وكذلك الوزير ، فكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان .

• فكتبوا فى قصة خلاصتها أن شخصا فى مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق ، وكثرت أتباعه ويخاف على المملكة منه ، والمستول من صدقات مولانا السلطان نفيه من مصر .

• ورشوا بعض الوزراء ليحملها الى باب السلطان ، فحملها ، وقبض الله لى الشيخ « عبد اللطيف أمين الدين » فنفى عنى كل هذا ، وقال : ان القصة كلها زور على الرجل للصالح « (١) » .

وحين يثس هؤلاء الكائدون من قصدهم انحط مستواهم الى درجة التفكير فى اغتياله - وبخاصة بعد أن تزايدت شهرته ، وارتفعت مكانته فى نفوس الناس ، والتف حوله كثير من طلاب العلم وصالحى العلماء ، وحمل لواء الدفاع عنه كثير من منصفى للفقهاء فى مختلف المذاهب - فدمسوا له السم فى الطعام فأنتج الله منه ، وأكل الطعام المسموم أولاد داعيه الى هذا الطعام فماتوا (٢) ، وكان ذلك درسا قاسيا وعقابا رادعا .

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٤١ .

(٢) المناقب الكبرى .

ولكن هذا الدرس لم ينبه هؤلاء المعاندين الى الكف عن محاولاتهم ضد هذا الرجل الصالح ، فأغروا به من يترصد له الطريق ليقتل عليه بواسطة خنجر أو سكين ، ولكن ذلك التبييت لم يسفر الا عن فشل تام أضرم نار الحقد والبغض وزاد من حدة الغيرة والحسد ، فلجئوا الى وسيلة أخرى هي وسيلة الارجاف بموته ، علمهم يصلون بالخيال الى عالم يمكنهم الوصول اليه عن طريق الحقيقة ، وكتبوا بشائعة موته كتباً وأرسلوها الى بقاع مختلفة كدمياط والمحلة والاسكندرية .

ولكن هذه الشائعة لم تلبث أن تبذرت أمام الحقيقة الماثلة الحية ، وباءت كل هذه المحاولات - كما باء غيرها - بالفشل ، وبقي «الشعراني» قويا خالدا الذكر يملأ الأذهان والقلوب والأسماع . وخمدت الفتنة . وصدق الله العظيم للذي يقول « . . وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » .

● أخلاق الشعرائى

وفر « الشعرائى » على قارئه بهذا كبراء بما تركه من آثار تدل على أخلاقه وصفاته ، فله فى ذلك ثروة ضخمة خصص لها فى كتبه أماكن متفرقة ، وأفرد لها كتابا خاصا أسماه « لطائف المنن والأخلاق » يقع فى مجلدين .

وقارئ الكتاب يخرج منه بصورة دقيقة لأخلاق هذا الصوفى الكبير ، ولسنا مع من يقول : أن « الشعرائى » كان كثير التحدث عن نفسه ، فالحديث عن النفس مقبول ، متى ارتفع الانسان عن نفسه وانتصر على وساوسها ، ولم يصبح حديثه مجرد اعلان شخصى يهدف الى رفع القيمة فى أعين الناس كما يفعل للداعون لأنفسهم فى المحافل وميادين الانتخابات .

وقد قطع هو بنفسه الطريق على من يظن ذلك الظن حين أدلى ببيان عن سبب تأليف الكتاب ، وأوضح ذلك فى عدة أمور :- منها ، لقتداء اخوانه به فى هذه الأخلاق التى كان يتخلق بها دون أن يشعروا به ، فلما حثهم عليها أجابوه بأن ذلك فوق ما يطيقون ولايمكن لأحد أن يتخلق بما يأمرهم به ، فأظهر أخلاقه لهم بعد استشارة الله فى ذلك .

ومنها ، استدامة شكر الله على ما أنعم به عليه من محاسن الأخلاق والصفات .

ومنها أعلام أهل عصره بدرجةه فى العلم والعمل ليقنتوا به فى حفظ كتب الشريعة والتخلق بأدابها .

ومنها : استغناء من يريد من اخوانه أن يذكر شيئا من مناقبه عن الفحص عنها وتتبع آثارها ، وربما زاد فيها أو نقص منها . كما يقع في ذلك جامعو مناقب العلماء والصالحين .

والحديث عن النفس وارد شرعا - إذا كان الهدف منه الإصلاح لا التباهي ، وقد أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله : وأما بنعمة ربك فحدث . وهو أمر له ولأمته ، وتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه مفتخرا فقال : إنما أنا رحمة مهلطة ، وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وأنا مسيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا ابن عبد المطلب . . وغير ذلك من آثار كريمة واردة .

واقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم كثير من العلماء والمصالحين ذكر منهم « الشعرائي » في كتابه : الفقيه المحدث « عبد الغافر للفارسي » و « العماد الأصفهانى » و « ياقوت الحصى » و « لسان الدين بن الخطيب » و « أبا عبد الله القرشى » و « أبا الربيع المالقي » و « أبا شامة » و « أبا حيان » و « الحافظ بن حجر » و « جلال الدين السيوطي » وغيرهم .

ومن كلام « محيي الدين بن العربي » في الحديث عن النفس : ليس فوق مرتبة من يزكى نفسه - إذا كان صادقا - إلا مرتبة من زكاه الحق تعالى عموما وخصوصا ، وقد زكى الله العرب عامة بقوله : كنتم خير أمة أخرجت للناس - وزكى النبي يحيى عليه السلام بقوله : وكان تقيا وبرًا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ، وقد زكى عيسى عليه السلام نفسه بقوله : وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . . وسلام الله تعالى على يحيى وتزكيتة له أعلى

مرتبة من سلام عيسى على نفسه ، وسلام عيسى على نفسه أعلى
مرتبة من سلام الحواريين عليه .

وفى ذلك دليل على اباحة أن يزكى الانسان نفسه صادقا .
متى كان يسعى من وراء ذلك لى تحقيق هدف شريف ، والتزكية
المنوعة بنص القرآن هى المبنية على الظن لا على اليقين .

و « الشعرائى » فى ذكر مناقبه يقتدى بأستاذه القرييين
منه : « جلال الدين السيوطى » الذى يقول : انما ذكرت مناقبى
اقتداء بالسلف الصالح وتعريفا بحالى فى العلم لياخذه الناس عنى
وتحدثنا بنعمة الله تعالى ، لا افتخارا على الأقران ولا طلبا للدنيا
ومناصبها وجاهها - معاذ الله أن أفعل ذلك . و « الخواص »
الذى يقول : اذكر كمالاتك ما استطعت فانه بذلك يكثر شكرك لله ،
واياك والاكثار من ذكر نقائصك ، فانه بذلك يقل شكرك ،
فما ربحته من جهة نظرك الى عيوبك خسرت من جهة تعاميك عن
محاسنك التى جعلها الله فيك .

والصالحون - بصفة عامة - دأبوا على العناية بذكر
ما تخلقوا به من آداب عالية وصاغوا ذلك فى كل ما أثر عنهم
من شعر ونثر ، وهم واثقون فى ذلك من سلامتهم من داء الغرور
والمفاخرة الذى أصيب به كثير من الناس .

ونحن لا يمكننا مرد كل ما تخلق به « الشعرائى » من أخلاق،
ولكن حسبنا الاشارة الى بعض ذلك مما وضعه فى موضع القمة
بالنسبة لسالكى الطرق والمريدين والمقتدين .

فمن ذلك « زهده » العظيم ، والزهد لا يسمى زهدا الا اذا
كان عن قدرة أما اذله كان عن حاجة فليس زهدا .

و «الشعراني» كان قادرا وزهد .

أوتي المال فارتفع عنه وزهد فيه وانصرف عن طريقه والقاء
على قارة الطريق ، وبذره في صحن المسجد وفرقه على فقراء
المكتب ورده على أصحابه في أكثر الأحيان .

- عرض عليه أحد الكبراء ثلاثة آلاف دينار ويزوجه ابنته
فأبى .

- أوصى له قاضي الاسكندرية بثلاث ماله وكان نحو
مائة ألف نصف فرد ذلك عليه .

- أوصى له الشيخ « خضر » الذي رباه وهو يتيم بخمسمائة
دينار ذهباً فردها على ورثته وأوصت له زوجة الشيخ « خضر »
بنحو أربعين قطعة ذهباً فأخذها وفرقها . الى غير ما سبق من
أمثلة .

ولم يكن زهد « الشعراني » منصرفا الى المال فحسب ، ولكنه
تعداه الى الزهد فيما لايزهد فيه الصالحون أنفسهم . لقد زهد في
العلم .

فبعد أن اغترف منه ما شاء له أن يقترف نودي من أستاذه
« الخواص » أن يزهد في ذلك للعلم ، وأن يغسل صدره منه .
فباع كتبه وتصدق بثمانها واحتجب عن حضور مجالس العلم حتى
شعر أن صدره لم يعد فيه مسألة من العلم ، وحين فتح الله عليه
بعلم لدني ، وأخذ يعيب منه ويروى ظمأه ويكتب من قبضه ما شاء
أن يكتب طلب اليه شيخه أيضا أن يزيل ما كتب بالماء ، واستجاب
« الشعراني » لذلك مرات ومرات .

والزهد في العلم آخر ما يزهد فيه للزاهدون لاسيما اذا كانوا
من العلماء . فالعلم طاعة ، فكيف يزهد الانسان في الطاعة ؟ ،

ولكنها التربية الخلقية الممتازة التي تريد أن تبني قمة شماء وطريقها في ذلك قطع للعلائق والركون الى الأسباب • وللشعراني كتاب أوردته « بروكلمان » تحت عنوان : الدر المنظوم في زهد العلوم •

وعن طريق هذا الزهد توصل « الشعراني » الى بناء مجده للعلمي الشامخ ، فقد أفاض الله عليه من لدنه رحمة وعلما ، وفتح أمامه مغاليق الحكمة فغرف من بحرها وذاق من فيضها ما أشار الى بعض حقائقه في آثاره النفيسة التي تركها ، وعن طريق الزهد يحقق الانسان كل كمال ، فالزهد هو معراج الواصلين ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة الزاهدين ، وهو أساس الطريق الصوفي ووسيلة للمريد الى بلوغ أسمى الغايات الكمالية ، وليس وسيلة فحسب ولكنه غاية أيضا ، وهذا سر ما سمعنا شيخنا السيد محمد علي منصور الأقدمي رضي الله عنه يردده : -

وتجملوا بالزهد دوما والأدب فالزهد معراج لنيل وصال

ولذا اجتمع مع الزهد الخشية فقد تحققت الثمرة عاجلا وهذا ما نفهمه أيضا من ترديد شيخنا رضي الله عنه : -

وتخلقوا - هيا - بأخلاق العلاء وتجملوا بالزهد بل والرهبة

واذا كان زهد « الشعراني » قد وصل الى هذه الدرجة من السمو فمن الأولى أن يزهد في كل مباح بعد ذلك • فقد زهد في كل مظهر ، وزهد في معاشرة الناس فاعتزلهم حينما من الدهر ومكث بعيدا عنهم وارتدى الخرق البالية الملقاة على قارعة الطريق وفوق الكيمان وزهد في الحلال الطيب ، وروض نفسه على أن يقتات مما يهمله باعة الفجل والكراث والخس في الأماكن التي ينظفون فيها بقولهم •

وزهد فوق ذلك فى الكرامات ، فقد أعطاه الله غيضا من الكشف يشير إليه بقوله : ومما أنعم الله به على كشف حجابى فى أوائل دخولى فى طريق القوم حتى سمعت تسبيح الجادات والحيوانات ، وذلك أنى كنت أصلى المغرب خلف الشيخ « أمين الدين بن النجار » امام جامع الغمري بالقاهرة فأنكشف الحجاب عن قلبى من صلاة المغرب الى طلوع الشمس ، فصرت أسمع كلام أهل مصر ثم اتسع الأمر الى قرى مصر .

ولكنه زهد فى ذلك ورأى من رحمة الله به أن يسدل على قلبه الحجاب ولولا ذلك لذهل عقله كما يقول .

وتناول زهده للرغبة فى الظهور ، فقد أخذ العهد على أصحابه أنهم لا يثنون عليه فى مجلس ولا يجيبون عنه عدوا الا أن يرد أحدهم عن عرضه امتثالا لأمر الشارع الحكيم ، ولا يقوى على الزهد فى الشهرة الا من كملت حاله وقويت روحه ، لأن حب الشهرة له سلطانه على النفوس والقلوب .

والزهد فى الظهور أو الشهرة أمر له معناه عند الصوفية ، وحال ذاقوا من جناها حلاوة عرفوا هم حقيقتها وقيمتها ، وأطلقوا على ذلك « الخمول » وقالوا : من دفن نفسه فى أرض الخمول نبت ، وقالوا أيضا : حب الظهور يقصم الظهور . وهنئ أسلوب مطرز بجناس بدیع . وقال « ابن عطاء الله السكندري فى حكمه : ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه . ويعلق « الشيخ زكريا الأنصارى » شارح الحكم على ذلك بقوله : السالك اذا تعاطى أسباب الشهرة فى بدايته قل أن يفلح فى نهايته ، وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص فمبنى أمره فى الابتداء على الفرار من الخلق واحمال الذكر وعدم

حب الشهرة ، حتى اذا فئيت أوصافه وبقي بربه كان مع موله ان شاء أظهره ان شاء أخفاء (١) . ولا يخفى أن الشيخ « زكريا الأنصارى » كان من شيوخ الشعرائى .

وقد كان « الشعرائى » فى زهده الظهور وللشهرة انما يضرب على وتر حساس فى المجتمع ، فما قتل الأخلاق الا الرغبة فى التسلط والشهرة وذئوع المصيت ، لأن الذى يرغب فى ذلك لا يفكر فى أى الوسائل يسلك قصدا لغايته وتحقيقا لهدفه ، ولو غش أو خدع ، وكم من أناس شهروا على حساب مبادئهم وظهروا على حساب أخلاقهم ، ومتى ظفروا عموا عن كل ما كانوا يتشددقون به من مثل ، ونسوا كل ما تحدثوا به من فضائل . أليس الصوفية اذن أطباء قلوب ؟

وهكذا يمضى « الشعرائى » فى تحقيق أقصى مقام فى الزهد ، فيسلمه ذلك الى مقام آخر يسميه الصوفية « زهد الزهد » وهو أن تصبح الدنيا فى يد للزاهد لا فى قلبه ، ويستطيع أن يتقلب فى النعمة دون أن يستهويه شئ منها أو تتعلق همته بزيف بريقها ، وهذا ما يفسر لنا سلوكه حين كان يرد كل ما يقدم اليه من هدايا فى بادئ أمره ثم يقبل بعض هذه الهدايا بعد ذلك ، فقد ردها حين كان يخشى أن تصرفه عن غايته ، وقبلها حين عرف أنها تعينه على تحقيق غايته .

كان يجزع من الادخار فى أول أمره وكان لا يستقر به مكان حتى ينفق آخر درهم على الفقر له قبل أن يقبل الليل ، ثم لم يلبث أن قوى حاله ، فادخر لمجاورى زاويته ما يكفيهم ويفى بحاجتهم

(١) شرح حكم ابن عطاء الله لابن عباد الرندى ص ١٢ .

على المستوى المتوسط ، وقد كانوا ينعمون بما لا ينعم هو به ، فيطمعون اللحم والفاكهة والحلوى ، وكان يكتفى بكسرة من الخبز ويحمد الله على ذلك . ويذكر صاحب « المناقب الكبرى » ذلك قائلا: كان صدره يضيق اذا بات عنده دينار أو درهم ولا يأوى الى بيته حتى يجد من يأخذه ولم يزل على ذلك الخلق حتى دخلت سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، فاطلمه الله على أمر دعاه الى أن يضع عنده بعض المال ، ويعلل ذلك بقوله : ان فى ذلك تسكيناً للجزء الذى يضطرب فى الانسان ويهتم بالرزق وينسى ضمان الله لبرزقه ويخاف أن يضيعه (١) .

وفى هذا التعليل رجوع الى الطبيعة البشرية التى لا يمكن أن ينساها الانسان ، وقديما قال الحكماء : لذا أحرزت النفس قوتها اطمانت ، ولكن « الشعرائى » والحق يقال لم يشغله أمر قوت نفسه ، ولكنه كان يشغله أمر قوت مثات أصبح مسئولاً عن كسائهم وغنائهم وعلاجهم ونفقتهم ، وفى ذلك يقول الدكتور « توفيق الطويل » : اضطر الى قبول الأوقاف على زاويته حين كثر المجاورون حوله وثقلت التبعات على كاهله ، فمكث ذلك من أن يتكفل بالانفاق على مريديه ثلاثين عاما دون أن يزاول عملاً يدبر عليه مالا .

واننا لنلمس فى « الشعرائى » أنه كان يرد احسان المحسنين ولكنه كان يقبل وقف للواقفين ، فهل ثمة تناقض فى موقفه ؟

وللاجابة عن ذلك لابد أن تعرف موقف كثير من الصوفية من قبول الصدقات . انهم ينظرون اليها على أنها تطهير لصاحبها كما يشير الى ذلك القرآن الكريم فى قوله : « خذ من أموالهم صدقة

(١) المناقب الكبرى ص ٩٠ .

تطهرهم وتزكّهم بها « فكثير منهم يمتنع عن قبولها لأن فيها تحملا لأوضاع المتصدق ، « والشعراني » كان كل همه أن يربى في نفوس مريديه العزة والكرامة ويأبى عليهم أن يعيشوا على فضائل الاحسان (١) فاليد العليا خير من اليد السفلى ، وفي ذلك ارتفاع بهمتهم وسمو بمكانتهم ، وهذا هدف تربوي وروحي حكيم .

ويتصل بالزهد اتصالا وثيقا « الورع » وهو إحدى الصفات البارزة في « الشعراني » رضى الله عنه ، وقد طبعت فيه هذه الصفة من أسرته التي كانت تبالغ في الورع مبالغة كبيرة . فهذا جده الشيخ « نور الدين علي الانصاري » يقول : الأصل في الطريق الى الله تعالى طيب المطعم . وكان له في الورع قسم ثابتة : كان اذا أراد أن يطحن قلب الحجر وأخرج ما تحته وأطعمه كلاب القرية ، واذا غرغ من طحنه ترك للناس بعض دقيق قمحه . وكان لا يأكل فراخ حمام الأبراج ولا يأكل عسل النحل ، لأن الناس لا تطيب نفوسهم بما تأكله من زروعهم ، بدليل ما يقومون به من وسائل لدفعها عنها ، وناقشه ابنه في ذلك مرة قائلا له : لقد أباح الله للنحل أن تأكل من ثمار الناس في قوله تعالى « ثم كلى من كل الثمرات فأسلكي سبل ربك ذللا » . فليس في ذلك ما يضير لأن الآية تفيد العموم ونحن من العموم ، فأجابه والده : الخاص مقسم على العام وقد حرم الله أن يرعى الانسان بقرته في زرع الناس ثم يشرب لبنها . وقصص هذا الجهد في الورع كثيرة ، وقد ورث « الشعراني » عنه ذلك الورع .

والورع مقام من مقامات الصوفية أو حال لهم ، اذا تحققوا به دققوا في كل شيء وحاسبوا أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة . وقد

(١) الشعراني لتوفيق الطويل .

تحقق « الشعرانى » بذلك • وقد مر بنا أنه رمدت عينه مرة فأتوه بلبن مريض فلم يقبله الا بثمانه ، وهذا ورع لم يسبق اليه •
ومن تمام ورعه أنه كان يستوى فى نظره الذهب والتراب ولو أن السماء أمطرت ذهباً لما وجهه عنده داعية ليلتقط شيئاً منه ، وكان لا يأكل من هدايا الظلمة ، وينصف كل من يعامله فى البيع والشراء ، وكان لا يطعم ضيفه ولا أهله ولا أولاده ولا أصحابه شيئاً فيه شبهة ، وكان يكره الأكل من طعام النذور والأعراس الواسعة والعزائم ، ومينى ذلك على العفة التى وهبها الله له وقال فى ذلك فى لطائف المتن : كانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى فأغنتنى - والحمد لله - عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لى أنى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنىوى من مدة بلغت الحلم ولم يزل الحق سبحانه يرزقنى من حيث لا أحتسب الى وقتى هذا •

ومما أخذ عليه فى اليهود ما يشير اليه بقوله : أن يكون سدانا ولحمتنا القناعة والتعفف والأكل من الكسب الحلال بطريقة الشرع الشامل لمد اليمين بالسماء الى حضرة الله تعالى اذا عجزنا عن عمل الحرفة المعتادة ولا نأكل بديننا • ولكون « الشعرانى » أصبح مقصد الناس فى التوسط لدى المستولين فى مصالحهم ، فانه رأى أن من شرط الشافع العفة والورع عما بأيدي الولاة فانهم اذا رأوه زاهدا فيما رغب فيه ملوكهم قضلا عنهم عظموه ضرورة وأحبوه وقبلوا شفاعته وتبركوا به (١) •

كان لا يأخذ أجرة دولاب فى أيام بطالته ، ولا يأخذ خراج أرض أكل زرعها البود أو شرقت أو لم تأت بمحصول ، وكان لا يتقاضى الخراج معجلا لاحتمال الموت •

(١) لواقع الأنوار القنسية ص ٥٢ •

كان لا يقبل هدية قليل له عنها قبل حضورها لاستشراف النفس لها ، كان يلبس الطيلسان حياء ، ومن شروط لبسه أنه يجبر لابسه على أن يكون نظره الى الأرض .

ومن تمام ورعه أنه كان لا يسيء الظن بأحد من المسلمين إطلاقا ، وكان يحمل كلامهم على أحسن محامله ومن ورعه كان يستحي أن يقول في صلاته : خشع لك سمعي وبصري ، فربما يكون بخلاف ذلك فيعقبه بقوله : خشوعا أستحق به الحسف والمسخ لولا حلمك وكرمك لأن سداى ولحمتى الذنوب والخطايا بالنسبة لجلال وجهك .

كان لا يعلم أصحابه بولائمه حتى لا يتكلفوا له شيئا أو يساعده بغيرنية صالحة .

تلك أمثلة من ورع « الشعرائي » الذي أصبح فيه مضرب المثل ، وهو الذي فتح أمامه الطريق لينطلق سريعا نحو غايته . والطريق الصوفي مشيد على الآداب والأخلاق قبل كل شيء ، والصوفية يقولون : كل من زاد عليك في خلقه زاد عليك في تصوفه . سمعت شيخنا « الأقدمي » رضى الله عنه يقول : ان حروف اسم « الفقير » تشير الى قمم خلقية رائعة ، فالفاء فرار الى الله تعالى ، والقاف قناعة بما أعطاه الله ، والياء يأس مما فى أيدي الناس ، والراء رغبة فى الله وزهد فيما عداه .

وتواضع « الشعرائي » أشهر من أن يذكر ، وللتواضع حقيقة عند الصوفية ، يفسرها « ابن عطاء الله السكندري » بقوله : ليس المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه دون ما صنع .

وللمتواضع الحقيقي علامات منها : عدم الغضب اذا عيب أو أنقص قدره ، وعدم كراهية الذم ، وشدة الحرص على ألا يكون له

جاء عند الناس ، والتزام الصدق في حاله بالألا يرى لنفسه موضعاً
في قلوبهم .

فهل صدقت هذه العلامات في « الشعرائى » ؟

أجل ، فإنه لم يخضب لنفسه قط ، وقد ورد عنه أنه كان
يأخذ كل ما سمعه من واعظ أو خطيب في حق نفسه ، ولا يجعل
خطابه لغيره كما يفعل الفقهاء والفقراء في عصره .

كان يزجر كل من رآه يرفع مقامه على أشياخه بالقلب
واللسان ، لا سيما إذا قال له أحد : أنت خليفة الشيخ (فلان)
لأن من شرط الخليفة الحقيقي في نظره أن يكون على صورة من
استخلفه في الأخلاق والعلوم والمعارف . وعبر لا يرى له مقاما
مع أشياخه .

ومن علامات تواضعه أنه كان لا يستفتح مجلس ذكر وفيه
من هو أكبر منه سناً أو شرفاً .

وكان لا يحب التميز عن اخوانه في مجلس ذكر أو علم ،
ويتأدب مع أصحاب الحضرات الالهية ، وكان ينفر طبعه ممن يقبل
يده ، ولا يتكدر ممن ناداه باسمه المجرد ، ويشعر بالضيق حين
يسنمع الى من يمدحه في المجالس بتنظم أو نثر من حيث خوفه
رؤية نفسه وكان في موقفه من المدح ينظر الى ثلاثة أمور : خوفه
من فتنة المدح واعترافه بنعمة الله عليه بمدح المادحين له ، وتقلمه
نفسه حين ذلك وإخراج ما شابها من كدر بسبب حب المدح .

كان يخدم بنفسه الفقراء القاطنين عنده للعلم والقرآن
والأدب ، ولم يشك إطلاقاً من التعب في تحصيل ما يأكلون
وما يلبسون ، ولو صاروا عنده ألوفاً ، وقد بلغ عدد الذين حفظوا
القرآن عنده ألفى قارئ . وقد مر بنا أنه كان يرى في نفسه

التقص دائما ، وتلك احدى امارات التواضع ، ويبلغ من تواضعه أنه كان يخفض جناحه لفسقة المؤمنين ولا يحقر أحدا منهم الا من حيث فعله فقط ، بدليل قوله تعالى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » ويرى أنهم أولى بالعظة . لأنهم من أصحاب الحظوظ السيئة التي تستدعى الشفقة .

وكان يبالي في تحقير نفسه ، وهذه صورة رسالة ورتت في آخر كتاب من كتبه أرسلها الى الشيخ « شمس الدين الذهبي » توضيح ذلك : -

من الفقير الحقير الذليل الذي استحق الخسف به حال صلاته فضلا عن غيرها عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الى الأخ العزيز العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ شمس الدين الذهبي - نفعنا الله تعالى ببركات سلفه في الدنيا والآخرة آمين .

« سلام الله تعالى ورحمته وبركاته ، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وبعد .

« فاني عبد مذنب قد صرت أسير الخطأ ، وما بقى يرجى لي صلاح حال ما بقيت في هذه الدار ، والمستول من فضل الأخ الا ينساني من الدعاء باصلاح الحال والأمان من خسف الأرض بي في هذا الزمان ، فاني عجزت عن رد نفسي عن المعاصي الظاهرة والباطنة وعن أكل الحرام والشبهات حتى اسود قلبي ووجهي ، وقد صرت محسوبا على الأخ ، فيسأل الله تعالى أن يحميني من الأكل من هدايا الظلمة ، وكل من لا يتورع في كسبه ، فان الأعمال الواقعة على جوارح العبد تكون بحسب اللقمة ، فان أكل حراما تولد منه أفعال كالشبهة ، وان أكل خلاف الأولى تولد من ذلك فعل خلاف الأولى ، ونقول : استغفر الله العظيم بعد السلام » .

فهذه الرسالة التي يحمل على نفسه فيها حملة شعواء تعكس لنا حقيقة تواضع « الشعراني » الذي يرى نفسه دون ما صنع ، وتبين أن تواضعه ناشت عن شهود عظيمة الحق وتجل صفاته وذلك الشهود هو الذي يحقق انحقاق النفس وخضوعها ، فانه لا سلطان للنفس أمام سلطان الله وقهره ولا شرف لها أمام كبرياء الله وعظمته .

والصوفي الحق هو الذي يذكر سيئاته وينسى حسناته ، فذكر السيئات يضاعف من جهده وعمله فلا يعطى لنفسه فرصة للاغترار أو التماهى فى الباطل ، ويقلم أظفار كبرها ، وبذلك تنطفئ شهوتها وتحسن حالتها .

ويأخذ « الشعراني » التواضع مقاما له بعد أن جاهد فى سبيل التحقق به ، حتى يصبح فضيلته التي يتحل بها فى كل مكان . ويأخذ بعض المؤرخين عليه أنه كان يتواضع أمام السلاطين والأمراء والرؤساء ، وعدوا ذلك من أسباب الخط عليه والزراية به ، وقالوا : انه يتواضع لهم مدهانة ورياء وخوفا .

هم ذكروا ذلك ولكنهم غفلوا عن دقيقة من دقائق تواضع « الشعراني » لهؤلاء ، قلما ينبه لها أحد ، ذلك أن الأمر أو القاضى أو المحتسب أو الزعيم لم يقصد الفقير بالزيارة الا وقد اعتقد أن هذا الفقير أفضل منه ، وما دخل عنده الا وقد خلع رداء كبريائه وتجرد من عظمته وضخامته تحت عتبة هذا الفقير ، ولولا هذا الفهم ما قصده ولا فكر فى الخطو اليه . فاذا ما تواضع « الشعراني » لزاثرية من هؤلاء فانه لم يتواضع لهم الا على هذا الأساس من الفهم ، أما كون هؤلاء الزعماء أو الساسة ظالمين خطائين فقد سبق أن عرفنا أن « الشعراني » كان يرى أن المخطئ أحق بالعطف والاشفاق ، وهو يذكر الأثر الذي يقول : كل ابن آدم خطاءون . وعلى هذا الاعتبار يرى أن زائريه هؤلاء لهم الفضل والمزية من حيث

شبهوهم ارتفاع منزلة الفقراء فوق منزلتهم . فلا غضاضة من التواضع لهم حين يزورونه .

وعلى العكس من ذلك نراه في منتهى السدة والغلظة عليهم حين يقصدهم هو ، وقد خاطبه أحدهم مرة قائلا : نحن سفربون الى السلطان أليس لك حاجة عنده ؟ فأجابه الشعراني في غلظة : ونحن مقربون الى الله أليس لك حاجة عنده ؟ فسكت « الباشا » ولم يجب .

والحديث عن أخلاق « الشعراني » يطول .

فقد كان قدوة ، والقُدوة مثل أعلى شامخ يمتاز بالعلو والسمو الى درجة الاعجاز في القدرة على الوصول اليه ، ومن كان كذلك فلا بد أن يكون في كل أخلاقه مثالا يحتذى .

وليس معنى ذلك أن يكون مجردا تماما من النقص والعيب . فالكمال لله وحده ، والعصمة للأنبياء . ولكن هناك نسبا ومستويات ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين قاعدة صوفية . وقد تصبح الصغيرة في حق الكبراء كبيرة ، كما تصبح الكبيرة في حق الصغار صغيرة . وربما يكون بعض من تقلدوا « الشعراني » نظروا اليه بهذا المقياس .

الا أن المهم أن يكون حكمنا على الأشخاص مجردا من الهوى . واذا أردنا أن نحكم على شخص كالشعراني فإننا يجب أن نقيسه على من كان مثله في الكمال ، أما اذا قسناه على أنفسنا فهو من أكمل الكل وحسبنا أن نرى أمثلة من صدقه وصراحته وتواضعه وكرمه وغيرته على الحق وجهاده في سبيله ونفعه للناس وإصلاحه للمجتمع ورعايته للفقراء وستره للمورات وغير ذلك ، فنرى فيه نموذجا قريبا قل أن يوجد مثله ، والمنصفون « للشعراني » ينظرون اليه من هذه الزاوية .

ودراسة الأشخاص ما الهدف منها ؟ اليس الاقتداء هو الهدف ؟

والاقتداء يمكن أن يأتي بغير الهدم ، وإذا أردنا أن نترسم خطأ شخص وجب علينا أن نبحث عن أجمل شيء فيه ونترسمه ، أما إذا بحثنا عن المساوىء أو اخترعناها ، ووضعناها - كما يقولون - أمام مجاهر العلم الحديث ، ووزناها بتلك الموازين المفرضة التي تتلمس النقائص وتسميها ظفرا ، فلا بد وأن تتهاوى هذه المثل الشماء في نفوسنا ، لا سيما في هذا الزمن الذي صيغت المادية فيه نفوس الناس وعقولهم وحببت اليهم الكفر بالمبادئ والتقاليد .

لقد أشار الدكتور عبد الحليم محمود الى ذلك المعنى في كتابه عن « السيد البدوي » بقوله : وبعض الناس يحاول دائما أن ينزل بالقيم الشامخة لأن نفسه هو ناقصة ولأنه يشعر بالحق دائما على كل قمة ولأنه لا يؤمن هو نفسه بالقيم الكبرى والمبادئ السامية تجده يسير في محاولات ملتوية للنزول بأصحاب هذه المستويات التي يعرفها الكاتب من نفسه ومن أمثاله : مستويات النقص في بعض صوره .. والا فبماذا تقسر آكل لحوم الصالحين وهم في عالم الحق ؟

نعم ، بماذا نفسر ذلك التحامل الشبهيد والضوضاء المفتعلة ضد كل صالح وعبرى ؟

اللهم الا بذلك المرض الدفين الذي يأكل قلوب الحاقدين على النابيين والناجحين ، والا بذلك الابتلاء الذي قضى الله به على كل مقرب في حياته وبعد موته ؟

وكما ابتلى « الشعرائى » بمن سلقوه بالسنتهم الحداد في حياته ابتلاء أيضا بعد مماته بمن نبشوا سيرته ولاكوا أخلاقه ، ورموه بالكذب والاختلاق والتفاق .

والرجل برىء كل البراءة من هذه التهم التي بان زيفها
وظهر عوارها .

ودعوى الكذب جاءت بسبب ما يقصه فى كتبه عن كراماته
التي أكرمه الله بها ، ودعوى النفاق جاءت بسبب موقفه من الحكماء
وذوى البطش .

وموضوع الكرامات موضوع قديم حدث فيه نقاش على مدى
الأزمان والأجيال ، وتصارعت فيه الآراء بين مؤيد ومعارض .
ولكن الموقف الفصل فى ذلك هو سيرة الرجل نفسه واستقامته
فالاستقامة خير من ألف كرامة .

والكرامة - بغض النظر عن امكان حدوثها الذى أيده العقل
والنقل - تظهر ما طبع عليه صاحبها من خلق فاضل وصفات
حميلة . ان هذه السيرة العطرة التى ظلت باقية خالدة طوال هذه
القرون الخمس بالنسبة للشعرانى وطوال القرون الماضية بالنسبة
لغيره . ألا تصلح أن تكون كرامة حقيقية لصاحبها ؟

وماذا يبغى العقلاء من الحياة ؟ ألا يبغون الأثر الخالد
الباقى بما يقدمونه من أعمال جليلة ؟ وقد يظفر بعضهم بذلك وقد
لا يظفر أكثرهم .

والمصلحون عادة يعيشون فى أذهان الناس وخواطرم .
ولكن الذين يعيشون منهم أكثر هم أولئك الذين وقفوا حياتهم
على الإصلاح الروحى ، هؤلاء كونوا لأنفسهم شعبية حقيقية تقف
على أرض صلبة - بأسلوب العصر الحديث -

وكم من الناس يمثل فى روحه صورة خالدة لأبى الشهداء
« الحسين بن على » ولبطلة كربلاء « السيدة زينب » وللبدوى

« العربي أحمد » ولقطب الأولياء « المسوقى » ولشيخ الطريقة
« الشاذلى » ولسلطان العارفين « ابن عربى » ولغيرهم ممن وقفوا
حياتهم على اشعال جذوة الحقيقة فى عالم الاشباح .

نعود فنقول ، أليست هذه هى الكرامة الحقيقية ؟

وماذا يبتغى الانسان من كرامة بعد ذلك ؟ وكم من الناس
يحملون بهذه الحياة ؟؟

أما الكرامات المادية فمصيها الفناء .

لقد ناقش « المنساوى » فى كتابه « الكواكب السرية »
و « اليافعى » فى كتابه : « نشر المحاسن الغالية » موضوع
الكرامة وذكرنا من الأدلة النقلية كثيرا من أمثال قصة مريم ورزقها
من غير حساب ، وقصة أهل الكهف ، وقصة البقرة التى كلمت
صاحبها ، وقصة الثلاثة نفر الذين انطبق الغار عليهم ثم انفرج
بسبب دعائهم ، وقصة سارية وعمر ، وغير ذلك ، الى جانب
الكثير من الأدلة النقلية والعقلية التى ردا بها على المعتزلة الذين
يرون انكار الكرامة . مما هو مفصل فى مواضعه فى الكتابين
المذكورين وغيرهما من الكتب .

واذا كان « الشعرائى » وأمثاله حصلوا على الكرامات
الحقيقية التى خلدتهم فى الحياة فلا نستكثر عليهم تلك الكرامات
المادية التى يفيضها الله على من يشاء من عباده تكريما لهم وتعظيما
لشأنهم وتأييدا لجهادهم وتثبيتا لهم فى مواقفهم ، واذا أكرم الله
عبدا فأحيا روحه وأضاء ظلمات نفسه وقضى على كل غشاوة فى
قلبه ، فلا نستكثر عليه أن يخرق له حجاب الحس فىرى مالا يمكن
لغيره أن يراه ويطلع على مالا يقدر غيره على الاطلاع عليه ، ويفيض
الله عليه من مواهب العلوم مالا يفيضه على غيره .

وإذا كنا نؤمن بالقياس العقلي فما بالتنا نجح من عنه في مجال
الحديث عن الأولياء والصالحين ؟

أليس العلماء هم ورثة الأنبياء ؟ ومن العلماء ؟ هم العامنون
بعلمهم الذين أنار الله بصائرهم وأشار إليهم الأثر الكريم : من
عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وكرامة الولي من الميراث
الذي ورثه من النبي .

فإذا ما حدثنا الشعراني أنه سمح تسبيح الوحش والطير
فلا غضاضة في ذلك ، وإذا قال انه كشف له فرأى بلد كذا أو
قرية كذا فلا تكذبه في قوله . فشواهد حاله تصدقه في مقاله .
وحسن خلقه ينفي عنه سوء الظن به .

أما ما ورد بخصوص تواضعه الذي أوله بعضهم بأنه تفاق
وجبن ، فهذا ما يجعل عنه قدر « الشعراني » الذي اتسم بالصدق
والصراحة والشجاعة .

ان مواقفه العديدة تنفي عنه كل مظنة في ذلك الادعاء ،
ولقد مر بنا ما يوجب علينا أن نفطن الى دققة من دقائق تواضعه
أمام قاصديه من الكبراء والعظماء ، وأن هذا التواضع يتقلب الى
بأس وقوة وصلابة حين يقصدهم ، بقي شيء آخر يجب أن نفطن
إليه هو : علينا أن نفهم أقوال « الشعراني » في ضوء مكانته
وزعامته في قلوب الجماهير ، ان كل كلمة يقولها لها فعل السحر
في نفوسهم ، ولذلك كان كلامه يصدر صدور التصريحات
السياسية التي من شأنها تطمين الخواطر وتثبيت القلوب ، فمإذا
يكون الموقف مثلاً اذا ما تحامل على نائب أو دعا الى بغض
سلطان ؟

ان ذلك بلا شك سيكون له أثره فى انارة فتنة ليس من
الحكمة اشغالها فى الوقت الذى كان يعيش فيه « الشعرانى »
والشعب ليس فى حاجة الى تحمل مظالم جديدة وارهاب أكثر .
لقد كان الشعب فى أيام « الشعرانى » يعيش فى أعقاب أيام
ظلم طال مداه استهلك كل قوته وطاقته فلم يعد ينحمل المزيد
من المتاعب . لذلك كانت مهمة « الشعرانى » العمل على تقوية
الروح فعن طريقها يأخذ الشعب كل زاد فى طريق اصلاحه
ومواصلة مسيرته الى النهوض . وايضاح ذلك يستلزم الحديث
عن أثر « الشعرانى » فى المجتمع الذى يعيش فيه .

● الشعراني المصلح الاجتماعي

لا يستطيع أى مصلح ان يؤدى رسالته الا اذا وجد في نفسه القدرة على الاضطلاع بمسئوليتها بما في ذلك الفهم التام لها وللظروف التي يعمل فيها وللطبيعة البشرية التي يتعامل معها. مع ايمانه الكامل بهذه الرسالة ، والمفاع عنها دفاعا مسنميتا يصل الى حد الاستبسال والتضحية في سبيلها . فهل كان « الشعراني » ، كذلك ، حتى يكون جديرا بلقب المصلح الاجتماعي ؟ .

أجل ، كان للشعراني ذلك التفهم الكامل لرسالته وما يحيط بها من أجواء وظروف ، وكانت لديه القدرة الكاملة على استنباط الأمور وإدراك ما في النفوس من خلجات وأسرار ، وكان على علم تام بأدواء المجتمع وقضاياه ، وكانت له — بما خطر الله عليه من استعداد خاص — مقدرة على تحمل مسئولية رسالته وأدائها على وجهها الأكمل .

ولبيان ذلك لابد من معرفة ملامح ذلك المجتمع الذي كان يعيش « الشعراني » في ظله ، وقد سبق الإشارة الى بعض ذلك في اجمال يحتاج الى شيء من التفصيل .

كان النظام الطبقي يظل المجتمع بمعنى أنه كانت هناك طبقة غالبية وطوائف مغلوقة ، والطائفة الغالبة هي طبقة المالكين والسيلاطين ونوابهم والأمراء وحاشيتهم . وطائفة التجار الذين اجتمعت ثروة البلاد في أيديهم ، وهؤلاء هم الحاكمون الآمرون الناهون . وسواد الشعب بطوائفه المختلفة من حرفيين ومهنيين وفلاحين وموظفين وفقهاء وفقراء مغلوب على أمره خاضع لغيره .

ولا قوام للنهوض فى دولة من الدول واقتصادياتها منهاره .
وقد عانى الشعب من وراء ذلك الكثير ، وانهارت من آثار هذه
المعاناة المثل والقيم ، فالفقر عدو الأخلاق الأول ، وقد يدفع الفقر
بعض النفوس الى سلوك الطريق المؤدى الى المسجد واللجوء الى الله
وفى ذلك خير ، ومن هنا يصبح الفقر فضيلة ، والغنى - اذا ما أفقد
صاحبه التفكير فى الصلاح - رذيلة .

كان هذا - كما قدمنا - دافعا الى اقبال الناس على التصوف ،
ولكن كثيرا منهم تصوفوا وهم مغلوبون على أمرهم ، تصوفوا على
جهل بحقيقة التصوف ، فخلطوا الجيد منه بالردى ، وأدخلوا فيه
ما ليس منه وشوهوا معاله بالخرافات ، ولذلك عانى منهم التصوف
الشيء الكثير ، وأقل أثر لذلك هو التطاحن الذى حدث بين الطوائف
الصوفية المتعددة التى برز الخلاف بينها واضحا ، وتحول النصوص
فى ظلها الى مظهر شكلى أكثر منه ممارسة عملية وذوقا وخلقا .
وقرب على ذلك الكثير من التنافر والتشاحن الذى هو آكره ما يكون
للجو الصوفى الذى قوامه التسامح والتواضع والايثار والفتوة .

وما أصاب المتصوفة من انقسام أصاب الفقهاء كذلك فقد
استفحل الخلاف بين رجال الفقه ومذاهبه وأضحى التعصب واضحا
بينهم ، مما حدا بالسلطين الى تخصيص قاضى لكل مذهب يتحاكم
اليه الناس وكان هؤلاء القضاة يعينون بمرسوم من السلطان .

وأدى هذا الانقسام بين رجال التصوف وبين العلماء والفقهاء
الى شيوع روح القرقة فى الأمة كلها ووصلت عدواها الى الأديان
فلم يعامل المسيحيون كما كانوا يعاملون فى ظل الحلفاء بالعدل ،
بل أصابهم الكثير من الجور وتناهى المسئولون الآثار الواردة فى
الاستيضاء بقبط مصر خيرا ، الا أن هذه المعاملة كانت تختلف من
وقت الى آخر ، فتشتد أو تقل أو تتلاشى روح الاضطهاد التى كانت
تظلل علاقة المسلمين بالذميين .

ويبدو أن هذا التفرق الذى بدأ بين صفوف الأمة إنما هو مظهر للعزلة التى فرضها المالك والحكام على أنفسهم بعيدا عن الشعب « فقد ظلوا بمعزل عنهم بجنسيتهم وعاداتهم ، وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المالك حتى صاروا أخص صفاتهم ، ولم يكن زواج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعيا الى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم ، ولعل هذا كان ترفعا منهم على أهل البلاد المحكومين ومحافضة على « الاورستقراطية » التى تؤهل للعرش بدون نظر الى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية » (١) فلما جاء العثمانيون أمعنوا فى هذا الاستعلاء والترفع على الشعب .

وفى ظل هذا المجتمع المتباين الذى يكثر فيه الفساد وتنحكم فيه الطبقة تنشأ عادات وتقاليد مختلفة بعضها غاسد والقليل منها صالح ، والألقاب التى ظل الناس يتوارثونها جيلا بعد جيل حتى أبطلت فى عهدنا الحاضر من بقايا ذلك العصر الذى كان «الشعراني» يعيش فيه .

كانت المجاهرة بالمعاصى والافتخار بالمظالم أمرا شائعا ، وكانت السخرة سائدة ، وأما الرشوة فكان لها مقام عال يتحدث الناس بأمره فى المحافل .

ويصحب الفقر ضيق الخلق وسرعة الغضب والتنازع بالألقاب وسوء الظن بالناس .

وكان الاسراف فى الولائم والموالد والأعراس لدى طبقة الموسرين أمرا محتوما ، كما كانت هناك ولائم تقام على القبور . وهى ولائم فيها الكثير من الاسراف والتظاهر .

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٥٤١ .

وكان للنساء - رغم احتجابهن - شأن كبير ، وكن يخرجن الى الأسواق والحمامات فرادى وجماعات •

وكان الفقر يدفع كثيرا من الناس الى البحث عن الوظائف والتكالب عليها ، وكانت مشيخة الزاوية من الوظائف المرموقة التي يتطلع اليها الكثير ، وهذه الفقر هو الذى دفع الكثيرين الى انشاء التكايا والزوايا ووقف الخيرات عليها •

وهناك عادة كانت شائعة فى ذلك العصر وما زال لها بقايا فى طريقها الى الانقراض هى عادة البحث عن الكنوز الدفينة (المطلب) وتلك عادة رباها الخيال الذى أيقظه الفقر والبؤس ، وأشعلته الرغبة فى تحصيل ما عجز الانسان عن تحصيله بالوسائل المشروعة الطبيعية •

وتفشيت عادة منومة هى عادة الأخذ بالثأر التى أشعلت الأحقاد وأكلت الأكباد •

وكانت هناك طائفة لها مميزاتا هى طبقة الفقراء وسكان الزوايا المنتشرة فى المدن والقرى ولها أوقافها ومباشرها ومجاورها ومعلموها ، ويبلغ عدد هؤلاء الآلاف الذين كانت لهم نظمهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد أشرنا سابقا الى أن بعض المؤرخين اعتبر هؤلاء طبقة متميزة بسبب كثرتهم الغالبة •

تلك هى بعض ملامح المجتمع فى عصر « الشعراني » فماذا صنع من اصلاح ازاء ذلك ؟

لقد شملت رسالته الاصلاحية المجتمع من نواح متعددة • من ناحية الحاكم ، ومن ناحية المحكوم ، ومن ناحية ما يسود المجتمع من عادات وتقاليد وخلافات •

الشعراني والحاكم :

بلغ « الشعراني » في نفوس الحكام منزلة رفيعة جدا ،
ووصل بمكانته الى حد لم يصل اليه غيره من الفقهاء والعلماء
والصوفية المعاصرين له .

وحسبك أن السلطان « الغوري » كان يحبه محبة شديدة
ويعتقه اعتقادا جازما في صلاحه وولايته . وكذلك كان
« طومان باي » من بعده يحبه ويقربه .

ولما جاء « سليم باشا » الى مصر قصده بالزيارة وتواضع له
واكرمه وقبل شفاعته وأهدى اليه كثيرا . وتولى في عهده من نواب
العثمانيين خمسة عشر نائبا أولهم « خير بك » وكانوا جميعا
يجلونه ويعظمونه ويقربونه ويخشون بأمره ، وكان أكثرهم محبة
له « سليمان الخادم » و « خسرو باشا » و « قاسم باشا »
و « داود باشا » . و « علي باشا » الذي كان أشهر النواب محبة
فيه ، ولقد استأذنه مرارا في النزول لزيارته فلم يأذن له أدبا منه
مع ولاية الأمر ، وقضى على يد الشيخ عدة حوائج للناس . ولم يقع
ذلك لأحد غيره من صوفية عصره ، حتى لقد شاع بين الناس أن
الباشا ليس عنده أفضل من « الشعراني » .

فاذا ما تركنا الحكام الى غيرهم من الأمراء والوجهاء وجدناهم
كذلك بالنسبة له حبا واکراما وتعظيما ، كان الأمير « محيي الدين
ابن يوسف » من ملازميه ومعتقيه ، وكان أولاد الأمير « جمال
ابن الأمير شرف الدين » يجتمعون معه ويتلقون العلم على يديه ،
وكان القاضي « محيي الدين عبد القادر » الذي أنشأ الزاوية من
مريديه ، وكان الأمير « حسن بك الصنجق » من تلاميذه الذين
تفانوا في خدمته . ولقد تردد على أعتابه أمراء الألوية فمن دولهم
وخضع لأوامره أكابر الأمراء والباشوات « (١) » .

(١) الغطله التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٩ .

أجل ، لقد بلغ « الشعرائى » هذه المنزلة الرفيعة فى نفوس
الحكام ، فماذا فعل بهذه المنزلة التى آكرمه الله بها ؟

لقد استغلها لوجه الله والاصلاح استفلالا حسنا ، وعن
طريقها تمكن أن يسدى الى الخلق كثيرا من الخدمات ، فقد وقف
فى وجه استبداد هؤلاء الحكام الطغاة وأجبرهم على أن يحدوا من
ذلك الجبروت الذى أذلوا به الشعب وظلموه . وسلك فى طريق
ذلك وسائل مختلفة .

زهد فى أيديهم كان أولى الوسائل لتحطيم غرورهم
وجبروتهم ، فانه لا شىء يظلم من كبرياء المتكبر أكثر من اشعاره
بأنه أحقر من أن تنتظر منه شيئا أو تقبل منه عطاء ، وهذا يدل
على أن « الشعرائى » كان عالما بخفايا النفوس وأسرارها ، فقد
اختبر نقطة الضعف فى هؤلاء المتجبرين وأذلهم بها ، فتعفف عما فى
أيديهم وترفع عنهم فعنوا له وخضعوا لهيبته ، وليس معنى ذلك
أنه تكلف الورع والزهد ليصل الى غايته ، ولكنه تحقق بهاتين
الصفتين فجنى ثمارهما ، ولو كان متكلفا لذلك لما وصل الى هذه
النتيجة القيمة ، وقديما قال الصوفية : لو سقطت قلنسوة من
السماء لما جاءت الا على رأس من لا يريدھا . وهذا أمر مشاهد
فما ينتظره الانسان غالبا لا يأتى وكثيرا ما يبطئ ، والذا نظرنا الى
سبب التجافى بين الناس وجدنا مرده فى الغالب الى الطمع الذى
يدور فى نفوسهم ، والرغبة فى الاستئثار بما فى أيديهم .

فمن طريق الزهد وبى « الشعرائى » نفوس الحكام وطوعها له
حتى أصبحت فى قبضة يده .

شفع فى كثير من الظلامات واستجيب شفاعته ، ويحدث
عن ذلك قائلا : تشفعت عنده السلطان « الفورى » والسلطان
« طومان باى » و « خايربك » وغيرهم من باشاوات مصر فقبلوا

شسفاعتى ، وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى . كما يقول :
ومما من الله به على كثرة قبوله شفاعتى عند الأمراء ولا أعلم الآن
أحدا فى مصر أكثر شفاعاة عند الولاة منى ، فربما يفنى «الدست»
الورق فى مراسلاتهم فى حوائج الناس فى أقل من شهر (١) .

ويحدث صاحب « المناقب الكبرى » أنه كان يحبه جميع
القضاة وشيوخ الاسلام وأحبهم فيه شيخ الاسلام « صالح » وشيخ
الاسلام « حامد » وشيخ الاسلام « محمد بن عبد الكريم » وشيخ
الاسلام « محمد شاه » واتفق له معه أنه حبس الشيخ « أبابكر
الغمرى » فاستشفع أقرابه « بالشعرانى » عند « محمد شاه » فكتب
له « الشعرانى » هذه الرسالة :

أما بعد : فيعلم مولانا أن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء
والأقطاب بمصر أربعة أولهم بيت السادات « بنى الوفا » ومن
كلامهم : أولاد الفقراء كشجر الزيتون كلها طيب أصلها وفرعها
ولا تخلو من زيت طيب وهم آثار أنوار الرحمن فى الأرض فمن
تهاون بهم فكانما تهاون بالرحمن وقد أسرع الله بهلاكه ، ومن
عاونهم هناك الله تعالى بالجنة ومن سترهم ستره الله وجبر كسره .
ثانيهم بيت سيدى « شمس الدين الحنفى » ومن كلامه : اذا
كان بنو الفقراء رمادا فلا تطأ عليهم بقدمك فتحرق وتوشك أن تقع
فى سوء الخاتمة .

ثالثهم سيدى « مدين الأشمونى » ومن كلامه : لا تقاطع رحم
أولاد الفقراء ينقطع فيهم رحم أستاذيك من أهل الولاية والعرفان .
رابعهم ، بيت سيدى « أبى العباس الغمرى » جد هذا الرجل
الذى حبسته ، ومن كلامه : لحوم أولاد الفقراء مسمومة فمن عاداهم
فقد عجل بهلاك نفسه بسم ساعة .

(١) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ١٦٦ .

ولقد عرضت نفسك لبلاء عظيم وداء لا دواء له ، والرأى عندى
التدراك منك بالدواء بإطلاقه واستعطافه واغتنام السلامة من
العطب ، ونسأل الله الحفظ والأمان .

فعندما قرأ المكتوب استعطف المحبوس وأطلقه واستغفر الله
تعالى ورجع عن معارضته (١) .

وهذه الرسالة تعطينا صورة عن أسلوب « الشعرائى » فى
شفاعته الذى يدخل به على المتشفع عنده ، ان المتشفع له صاحب
حق وعنده قوة يجب أن يعمل حسابها .

وتحقيق هذه الشفاعات لا يأتى الا عن أحد طريقين : الحب
أو الخوف ، وقد اجتمع هذان الأمران فى نفوس الحكام والزعماء
بالنسبة للشعرائى ، فقد أحبوه وخافوه ، وقد يكون خوفهم مرده
الى القوة الروحية والهيبة الالهية التى أودعها الله فيه ، وقد يكون
مردها الى تلك الزعامة الشعبية التى تمثلت فيه وظهرت فى التفاف
الناس حوله وتقديرهم إياه ، ففى أعضابه اغضاب لهؤلاء واشتعال
لشورتهم ، فكأنهم اشتروا رضا الناس برضا ، الشعرائى ،
عنهم .

وكانت للشعرائى آراء فى الحكام تتلخص فى النهى عن
تملقهم والنعوة الى علم تمكين الحاكم المخالف للشرعية من
الاستمرار فى الظلم والجور ولكنه كان يدعو الى ضرورة طاعة
الحكام استجابة لأمر الله تعالى بوجوب طاعة أولى الأمر (٢) .

وقد حدث أنه وقف أمامهم وقفات حاسمة ، كما أنه أشعرهم
بأنه فى مقدوره أن يزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وقد أغلظ القول

(١) المناقب الكبرى .

(٢) الشعرائى لتوفيق الطويل .

لأحدهم حين قال له : اننا مقربون الى السلطان فهل لك حاجة نقضيها لك عنده ؟ فأجابته الشعراني : اننا مقربون الى الله فهل لك حاجة فنقضيها لك عنده ؟ فأفحم النائب ولم يجد جوابا .

وكان يستخف بهم في رفضه قبول هداياهم ، ويمضى في اذلالهم حين يأخذ منهم المال في بعض الأحيان ويطوِّحه على مرأى ومشهد منهم ومن الناس . وفي ذلك دليل على نهية عن تملقهم ، وعدم رضائه عن ظلمهم للرعية وجورهم عليها .

وفي مقابلاته العديدة للحكام لم يقصد من وراء ذلك الا رفع ظلم وقع على كاهل أحد أفراد الشعب أو وساطة لشخص بتيسير مهم له ، حتى لقد كثر قصده لئلك حتى قال له أحد النواب : انه يعز علينا أن يكثر قصدك لنا بنفسك ، يكفي أن تكتب الينا بما تريد ولا تتعب .

ولكن همة « الشعراني » لا تقبل أن تقف عند حد الرضا بالكتابة دون أن يشفعها بالمصاحبة رغبة في قضاء ما يريد من مصالح الناس . وتجاوزت وصاته حدود القطر فتناولت الوصاة بأحد أتباعه في الخارج ، فكتب يوصي بالأمير « جانم الحمزاوى » الذى كان لوصاته ، أثر كبير في توفير الرعاية له في الأماكن التى قصدها في رحلته .

وذلك مثال يدل على أن منزلة « الشعراني » وصلت الى البلاط السلطاني في تركيا فعملوا لها ألف حساب وحساب ، ويقول الدكتور توفيق الطويل : ان ذلك كان له أثره في استصدار قانون خاص يقضى بأن من تظاهر بصفات الملوك وعارض أركان الدولة فيما يفعلون كان مصيره السجن أو النفي أو الاعدام . ويذكر ان الشعراني خاف من هذا القانون ، وهو الذى جعله يفرط في ضرورة الدعوة الى طاعة الحكام .

والحق أن الشعرائى لم يكن خائفا من صولة القانون أو سطوة الحكام ، ولو كان الأمر كذلك لكف عن تعاليه عليهم ، ذلك التعالى الذى كان يرى فيه تعظيما للشريعة وتمكيناً لقدر الدين وشرف العلم . وهذا التعالى كان يظهر فى رد هداياهم ، أو التطويح بها فى مواجهتهم أو فى توجيهاته لهم فى كثير من الأحيان أو فى ردوده عليهم بقوة وبأس حين كان يقصدهم أو يجتمع بهم فى مكان بعيد عن بيته . أما فى بيته فكما سبق كان حريصاً على اكرامهم والتواضع لهم لما سبق الاشارة اليه ولكرم الضيافة المتأصل فيه .

ولكن « الشعرائى » كان له مبدأ لم يتخل عنه ، هو أن الحاكم له حق الطاعة بمقتضى قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » على أنه كان لا يعفى الرعية من مسئولية الظلم الواقع عليها استناداً الى الأثر الشريف الوارد : الحاكم الجائر عدل الله فى الأرض ينتقم به من خلقه ثم يصير الى الله فان شاء عفا عنه وان شاء انتقم منه (١) . وهناك أثر آخر يقول : كما تكونوا يول عليكم . ومن أعمالكم سلط عليكم . والهدف من ذلك أن يصلح الشعب من حاله وأن يوثق علاقته بربه ، حتى اذا ناقض حاكمه الظالم أمده الله بعونه وأيده بنصره حتى لا يتضاعف عليه الظلم فى حال فشل مناقضته .

وعلى المستنيرين الأئمة واجب ارشاد الحكام الظالمين وعدم مكيبهم من الاستمرار فى الظلم والجور ، ولا يترك ذلك الأمر لأفراد الشعب لأنه يسلم البلاد الى فوضى لا تعلم نتائجها ، ولمعرفة « الشعرائى » بحالة الشعب ومدى ما وصل اليه من انهاك لم يشأ أن يورطه فى ثورة غاشمة ضد حكام مستبدين الريح معهم والمستقبل

أمامهم ، فعلى قدر جهده كان يكفكف من غرب هؤلاء ويتسح نهم
ويستخلص منهم ما يقدر عليه لصالح هذا الشعب المسكين .

ولعله لهذا الفهم نفسه بدأ يقبل هدايا الحكام وأوفاهم بعد
أن كان ممتنعا عنها ، لأنه رأى فى ذلك ردا للمال المسلوب من غير
حق ، وطريقا من طرق ارجاع هذا الحق لأصحابه .

وليس لنا أن نحاسب الشعرائى على عدم عصيانه للعثمانيين
فى الوقت الذى يحدثنا التاريخ فيه عن أن الصوفية هم الذين
زلزلوا الأرض تحت أقدام الشراكسة ، وأشعلوا ثورة الغضب الشعبى
عليهم ، يقول صاحب « المناقب الكبرى » فى ذلك : اجتمع رأى
الأولياء بمصر على خلق « قنصوه الغورى » لجور جلبانه وحاشيته .

ولا شك ان « الشعرائى » كان يؤيدهم فى ذلك : نعم أن
« قنصوة » كان يحبه ويقربه ويهديه هدايا كان « الشعرائى »
يرفض استعمالها لشبهتها . وربما كان يرى فى قبوله إياها
تأليفا لقلبه وترصدا لاصلاحه وأدبا مع ولاة الأمر . ومما أهده له :
سجادة وشاشا عرضه سبعة أذرع وطوله ثلاثون ذراعا مما أرسله
سلطان الهند لقانصوة ، ولكن « الشعرائى » لم ينتفع بهذه الهدية
تورعا ، فقد أعطى الشاش لبعض أقاربه فى ساقية « أبى شعرة » .
وأما السجادة فلم يستعملها مدة حياته ، ولم يرد ذلك أدبا مع ولاة
الأمر كما يقول صاحب المناقب .

وقد مر بنا أن الشعب كان ينتظر الكثير على يد العثمانيين .
ووعود الفاتحين كثيرة ، وتلك الوعود هى التى استنفدوا بها غضب
الشعب . حتى اذا ركن اليهم فتح يده فلم يجده شيئا ولكن مخزونه
من الثورة كان قد تبخر ، فهو فى حاجة الى اختزان غيره ، وذلك
يتطلب الكثير من الوقت والجهد ، فى حين أن الفاتح الذى بثقله كله

ليضرب بيد من حديد لا عواده فيها كل من نسول له بمسه
الانتقاض على الحكم الجديد . فهل ينتظر من الشعرائى وهو زعيم
روحى أبصر بالعواقب أن يقود الشعب الأعزل الى هوة سحيقة
لا يعلم قراها ؟

ولكنه قام بدوره فى حدود مجهوده الكبير لاصلاح حال هؤلاء
الحكام واستنقاذ ما يمكن استنقاذه منهم للشعب ، ويبدو ذلك
فى تنفيذ العهود التى أخذت عليه وذكرها فى كتابه « لواقح الأنوار
القدسسية » من أن لا يمكن أحدا ممن صحبه من الولاة وانقاد له
من أن يشق على رعيته أو يجور عليهم أو يفشهم أو يفتجب عنهم
أو يخلق بابه دونهم . فى الوقت الذى كان يولى جهوده كثيرا من
وجوه الاصلاح الأخرى ، وحرصه على نصيح الناس بأن يهتدوا
بأعمالهم واصلاح نفوسهم بدلا من أن يضيعوا وقتهم فى انتقاد الحاكم
وهذا الأدب فى رأى الدكتور زكى مبارك « له غور عسيق لأن
انتقاض الحكام يزعزع الوحدة القومية ويقسم الأمة الى شطرين :
رعية حاقدة وحكام مبغضين ، وسلامة الأمة لا تكون الا بالآلفة بين
الحاكمن والمحكومين » (١) وهذا كل ما كان يشغل بال «الشعرانى»
طول حياته .

الشعرانى والمحكوم :

عن طريق المدرسة التى أنشأها « الشعرانى » قام بـ سالة
اصلاحية أخرى هى اصلاح النفوس . كان مطمح أمله أن يرى مريدا
قد تهذبت روحه وسمت نفسه وصلح قلبه وتنور عقله . فذلك
الفرد هو الذى عن طريقه تنهض الأمة وتتقدم .

(١) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق .

وكانت طريقته فى اصلاح القدوة الطيبة ، فالقدوة هى
اساس النجاح ، وبدونها لا يقدر الموجه أن يفعل شيئاً .

وقد وضع لتلاميذه آداباً مختلفة تتناول شتى مرافق الحياة
والزهم باتباع هذه الآداب ، وقد كفل لهؤلاء التلاميذ الرزق حتى
لا تتطلع نفوسهم اليه فيتوزع خاطرهم ولا يتسنى لهم التفرغ لطلب
العلم وجهاد النفس . وأدى ذلك الى أن يحرز الكثير من تلاميذه
قصب السبق . فكثير من الطلاب يحول بينهم وبين النجاح فى
حياتهم عدم وجود المنبع الذى يعينهم على الاستمرار فى الطلب مع
وجود الاستعداد لذلك . وكان من أبرع هؤلاء التلاميذ « المناوى »
صاحب المؤلفات النفيسة .

ولم يكن « الشعرانى » يألو جهداً فى توفير كافة الامكانيات
اللازمة لطلابه - كما قدمنا - لأنه يرى فى ذلك رعاية اجتماعية
لهم تحول بينهم وبين الانحراف ، وقد كانت زاويته عامرة بضروب
الحير الذى يفيض عنها فيوزع على الزوايا الأخرى ويرسل منه الى
مجاورى البيت الحرام فى مكة .

ولم يكن « الشعرانى » فى ذلك يشجع الناس على القعود عن
طلب الرزق والالتجاء الى زاويته حيث يطيب لهم المطعم والمشرب
ويتوفر لهم المسكن ، ولكنه كان يشجع الطلاب على الاستمرار فى
طلب العلم كما يشجع العباد منهم على ممارسة العبادة .

وفى الوقت نفسه كان يدعو الى التكسب ويقاوم البطالة ،
ومن تصريحاته فى ذلك : « ان ترك التكسب بالعمل المشروع
والتماس الرزق عند المحسنين جهل بمقام التوكل الصحيح لأن هذا
المسلك يعرض الفقير للرياء ويفقده حسنات أعماله » .

حتى فى دعوته الى الزهد كان يدعو الى تحرى الدافع النفسى
اليه تحليلاً من وساوس النفس الخفية التى تزين للانسان الشر

فى صورة الخير وتلبس له الخير رداء الشر . فىقول لمريديه :
« لا ينبغى للفقير أن ينساق الى الزهد بباعث من شعوره باللذة من
نعيم الترك وخلو اليد وراحة القلب والا كان هذا انصرافا من لذة
الى لذة ، وليس هذا زهد العارفين » والزهد فى نظره لا يكون
عن خلو اليد ، وانما يكون بخلو القلب مع امتلاك اليد .

وكان « الشعرانى » فى قوله هذا يرد على المتصوفة المتعطلين
الذين حاولوا أن يحملوا التصوف جريرة بطالتهم .

وكان ينصح أتباعه من الصناع بقوله : « الاجتهاد فى العمل
واتقانه يقدم على التوافل والتطوع للعبادة » ، وكان يقول للنجار :
« لتكن مسبحتك منشارك » . وللزارع : « لتكن خلوتك حقلك »
وللتاجر : « لتكن عبادتك أمانتك » .

و « الشعرانى » طريقته ساذلية . وهذه الطريقة تنهم جدا
بالعمل وتلغو اليه وتحذر من البطالة ، وكان « الساذلى » رضى الله
عنه يكره أن يرى أحد تلاميذه فارغا من عمله الذى يصل بسببه
رزقه اليه ، وكان لا يحب من أحدهم أن يترك حرفته متجردا منقطعا
بل كان يوصيهم دائما أن يحافظوا على أعمالهم الدنيوية ، ويقرنوا
بينها وبين أورادهم وأذكارهم ذاما التسول والتكفف ، لأنه مناف
لاتباع السنة التى تعد أحد أصول هذه الطريقة .

و « الشعرانى » ابن الطريقة الساذلية البار ، وقد عكف على
احياء معالم الشريعة الاسلامية بهذه الطريقة ، وكان يقتلدى بالسلف
الصالح من الصوفية وغيرهم من الفقهاء - فلا تعارض بينهما عنده -
فى أهمية العمل بالنسبة لتحقيق الكرامة الانسانية .

وحقا ذلك فائمة الصوفية يدعون الى العمل وعلى سبيل المثال

نذكر قول بنان الجمال (١) : الاعراض عن الأسباب جملة يؤدي الى ركوب البواطل . وقول « عبد الله بن المبارك » : (٢) لا خير فيمن لا يذوق لذة المكاسب ، و « الفضيل بن عياض » (٣) . كان يقول : لم يترين الناس بشيء أفضل من الصدق في طلب الحلال ، وكان « السري السقطي » (٤) يقول : أعرف طريقا مختصرا قصدا الى الجنة . فقال له « الجنيد » (٥) ما هو ؟ فقال « السقطي » : لا تسأل احدا شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يكون له عمل يقتات منه .

والمتتبع لسير الصوفية وأخبارهم وأقوالهم يعثر على كثير من ذلك الذي يؤيد الدعوة الى العمل والزهد في البطالة .

وقد وضع « الشعرائي » للتوكل آدابا يفهم منها أنه لا ينافي العمل . فقد يكون الانسان متكسبا وهو منوكل ، وليس ذلك غريبا . والقرآن الكريم يقول : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، والمؤمنون هم الذين يأمرهم الله بالعمل في قوله : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله .

(١) بنان الجمال من أجلاء شيوخ الصوفية . ومن رجال الطبقة الثالثة توفي بمصر سنة ٣١٦ هـ .
 (٢) ولد سنة ١١٨ هـ وكان عالما فقيها عابدا من أئمة المتصوفة ومتتبعيهم توفي سنة ١٨١ هـ .
 (٣) ولد بسمرقند وتوفي بمكة سنة ١٨٧ هـ من رجال الطبقة الأولى في التصوف .

(٤) هو أبو الحسن سري بن القلس السفطي يقال انه خال الجنيد وأستاذ وهو امام بغداديين وشيخهم في وقته توفي سنة ٢٥١ هـ .
 (٥) هو أبو القاسم الجنيد بن الخراز أصله من نهاوند ومولده ونشأته بالعراق كان من أئمة القوم وساداتهم وهو مقبول على جميع الألسنة توفي سنة سبع وتسعين ومائتين .

ومن هنا كان « الشعرائى » يصحح أوضاعا اجتماعية بين أتباعه بنعكس أمرها على غيرهم عن طريق القدوة الطيبة التى يراها الناس فى هؤلاء ، وعن طريق ترتيب الآثار على المؤثرات - وهو بذلك يعنى عن التصوف ما لحقه من تشويه وانحراف نتيجة لسوء فهمه وضيق أفق بعض المنتمين إليه .

وفيما اُحد على « الشعرائى » من عهود ترغيب الاحوان الذين لا يكتفون التعبد بعلم ولا غيره فى التكسب بالبيع والشراء والزراعات وكل ما يساعدهم على القوت بطريق شرعى لا على وجه التكاثر والمفاخرة . وحثهم على التفكير فى طلب الرزق مبادرة لقطع خاطر الاهتمام بالرزق لا حبا للدنيا من حيث هى دنيا . فان فى الانسان جزءا يهتم بأمر المعيشة ويضطرب ولا يسكن حتى يحصل العبد كفايته ، وعليهم ألا يتعاطوا أسباب تعطيل الرزق من معاصر وعدم ايثار . ومن آداب الرزق الاجمال فى طلبه وعدم الترصده له كل مرصد والاجتهاد فى تحرى الحلال والابتعاد عن الحرام والشبهات . ومن الآداب الاجتماعية التى يراها التسامح فى البيع والشراء وعدم المشاحة فى ذلك فقد رحم الله امرءا سمعا اذا باع واذا اشترى .

لما انه من الآداب التى أراد أن يأخذ بها تلاميذه ايثارهم الزواج على العزوبة ، وعدم سلوكهم طريق النرهب الذى كان يسلكه بعض المعاصرين له من الصوفية ، ورأيه أن عبادة العازب ناقصة ، وكما نصحه بالزواج نصحه بايثار الدين على غيرها ان أراد الزواج ولو كانت شوها أو قبيحة . فصحة الدين لا يعد لها أى صحة أو جمال بعد ذلك .

وصحح « الشعرائى » فى زاويته الآداب الاجتماعية التى يجب أن تحكم العلاقات بين المقيمين فيها وأهم هذه الآداب الايثار الذى

يربى الصوفية أبناءهم عليه ، والذي يفتقله المجتمع فلا يجده الا بين الأخوة الصوفيين الحقيقيين الذى يفنى الفرد منهم فى مصلحة أخيه ويقدمها على مصلحته الخاصة ويتفقد آحواله ويرعى شئونه حاضرا وغائبا . وكان هو قدوة تلاميذه فى ذلك . فكان ينحمل عنهم الأذى ، ولا يسيء الظن بأحد منهم أو من المسلمين ، وكان يتواضع لهم كما يتواضع لغيرهم وكانوا لا يرونه فاترا عن خدمتهم ليلا أو نهارا ، بل ساهرا على مصالحهم ، متفقدا لشئونهم ، بارا بهم ، مؤثرا لهم على نفسه فى لين الطعام فيقدم لهم ما لا يقدمه لنفسه أو لأسرته ، وبذلك طبعهم على الحب الخالص الخالى من كل خطرة من خطرات الشك أو النفاق أو الأثرة .

وكان حسن السياسة لمن رآه يبعض أخاه بدون وجه حق بأن يقبل عليه ويقربه حتى اذا مال اليه سارقه بذكر صفات من يبعضه حتى يميل خاطره اليه شيئا فشيئا ، وبذلك تصفو نفسه ويزول ما بها من جفاء ، وتلك عادته التى دأب عليها بين تلاميذه ، فلا يقبل أن يرى بينهم تباغضا أو تضاعنا أو أثرة أو حسدا أو غير ذلك مما يبرز عادة فى المجتمعات الخاصة والعامة ، ولذلك أصبح المقيمون بالزاوية مثالا صادقا لما يجب أن يكون عليه الفرد المثالى فى طباعه وسلوكه . وقد مر بنا كيف أن أحد الكبراء أرسل قاصدا يفرق أموالا بين أفراد الزاوية فلم يتحرك أحد من مكانه واستغرب القاصد ذلك ، وبذر « الشعرانى » المال للصبيان والمساكين .

وقد عود تلاميذه عدم الركون إلى الشهرة أو الوقوف عند الرغبة فى المدح والثناء ، كما عودهم كظم الغيظ وعدم الاستجابة للغضب بما أخذ عليهم من عهود فى ذلك بالا يثنوا عليه فى مجلس وألا يجيبوا عنه عدوا الا اذا كان ذلك ردا عن عرضه امتثالا للشارع الحكيم .

وتلقن تلاميذه عنه كل صفاته تلقنا عمليا وانطبعا بها في سلوكهم الذى غيروا به كثيرا عن معالم المجتمع الذى يعيشون فيه .
فقد أصبحوا قدوة لغيرهم من مجاورى الزوايا الأخرى التى كانت سائدة فى عصره ، من أمال زاوية « السبت خديجة ابنة درهم ونصف » التى أنشأتها بالقرب من جامع التركمانى وجعلتها مدرسة ومسجدا وزاوية وماوى للصوفية وأما كبر من الأعيان والقضاة وخطب بها القاضى الشافعى كمال الدين الطويل (١) أحد معاصرى « الشعرانى » ، ومدرسة الدشطوطى التى أنشأها نجاة زاوية الشيخ يحيى البلخى ، وكان يفصدها كثير من الأعيان والفقهاء (٢) .
وغيرهما من المدارس والزوايا التى تجدها مذكورة فى مصادرنا .

الشعرانى والعادات :

ونجح « الشعرانى » فى حملته التى أعلنها على كثير من العادات السيئة كالشعوذة والتضليل الذى احترفه بعض الناس .
وفضح بدعوته المتسولين الذين استظلوا بظل الدين والتصوف واتخذوا التسول حرفة وصناعة .

كما حمل على طائفة من شذاذ المجتمع ، أولئك الذين ينسبهم من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال ، ويبدو أن ذلك الشذوذ ليس قاصرا على زماننا نحن الآن بل كان أيضا فى زمن « الشعرانى »
لذلك نراه يذكر فى عهده التى أخذت عليه وعلينا ألا يتشبه أحد من الرجال بالنساء وبالعكس .

(١) تاريخ ابن اياس ص ١١٨٨ .

(٢) تاريخ ابن اياس ص ١١٧٧ .

ودعا الى مراعاة الحشمة والوقار فى زى النساء ، ووضع لهن أمثلة يقتدين بها فيما وصفه لهن من أخلاق زوجانه اللاتى اعتبر من بركة الله عليه أنه أصلح له شأنهن - وصلاحن كما يراه كان فى استدامة طهارتهن . واكثرهن من العبادة والصلاة ولا يؤخرن الفرائض عن أوقاتها الا لضرورة شرعية واستقامتهن له فى طاعته فلم يكلفنه شراء شيء ما يتعلق بهن من أكل أو ملبس بل كن معه على ما يفتح الله تعالى به عليه .

وكان هو فى معاملته لهن فى منتهى الورع والمبالغة فى العدل الذى شرعه الله ، ويشهد لذلك حديثه عنهن بكل اجلال . ففي هذه الشهادة بيان لما كان يكنه للمرأة من احترام ، ولا غرابة فى ذلك فهي نصف المجتمع ، وفى صلاحها صلاحه وفى فسادها فساد . وقد شهدت له دائرة المعارف الاسلامية فى ذلك حين قالت : « احترامه الكبير للمرأة يكبره فى نفوس الناس اكبارا عظيما » .

وانه ليجدنا عن احدى زوجاته حديثا يترك القدوة الصالحة تأخذ طريقها بين صفوف النساء بسرعة وبدون تكلف ، فيقول عن « غاطمة أم عبد الرحمن » : انها كانت تحرم خلفه فى الليل فيقرأ بها فى الركعة الواحدة خمسة عشر حزبا فلا تترك وقوفها الا لكاء طفلها ومرضت عينها فلم تمكن الكحال (طبيب العيون) من رؤية عينها وتحاملت على نفسها حتى ان المرض ترك أثره فى عينها فضاقت عن الأخرى .

و « الشعراى » حين يتحدث عن ذلك يريد أن يصل بحديثه هذا الى ما يجب أن تكون عليه المرأة من حسن معاشرة وقناعة ورضا وحسن رعاية لأفراد أسرتها ومراعاة تامة لقواعد الحشمة ، والترفع عن كل ما يشين المرأة أو يحط من قدرها فى نظر أقرب المقربين

اليها وهو زوجها ، ولذلك نراه يعد من أفضل زوجته أنه لم يطلع مرة واحدة على دخولها الخلاء في المدة الطويلة التي عاشها فيها والتي تعد بحوالى عشرين سنة منذ تزوجها في سنة احدى وأربعين وسعمائه الى سنة ستين وتسعمائة حين توفيت . وذلك تكلف شديد أصبح طبعاً بطول احتماله ومصاحبته .

ومن العهود التي ذكر انها أخذت علينا ووجب الوفاء بها ما يذكره « الشعرائى » في كتبه من أن ثامر النساء بصلاتهن في بيوتهن ، وترغيبهن في لزوم البيت ، ونبين لهن ما في ذلك من الفضائل حتى لا يحتجن الى الخروج لسماع واعظ أجنبي ، فاننا مسئولون عن عيالتنا . ويعلق « الشعرائى » على ذلك قائلاً : ومن تأمل بعين البصيرة ما يقع للنساء من الآفات اذا خرجن للواعظ لم يسمح لامراته بالخروج الى مثل ذلك ، مع أن نساء هذا الزمان قد عمهن الجهل (١) .

« والشعرائى » - رحمه الله - كان يقول ذلك في زمانه ، فماذا ترى كان يقول عن زماننا الذى لم يقتصر فيه خروج النساء الى الواعظ أو دور العلم ؟ فما أبعد الفرق بين زماننا وزمانه !

كان يدعو الى حسن المعاشرة الزوجية ويقول : أخذت علينا العهود بالوفاء بحق الزوجية وحسن العشرة بين الطرفين ، وكان يرى ما يراه شيخه « الخواص » من أن أخلاق الزوجة على صورة أخلاق زوجها في نفسه ، فاذا استقامت استقامت ، ويستشهد في ذلك بكلام « الفضيل بن عياض » انى لأعصى الله فأجد ذلك في خلقى دابتنى وامراتى وخادمى (٢) .

(١) لوافح الأنوار القدسية ص ٢٧ .

(٢) لوافح الأنوار القدسية ص ١٣٦ .

ومن حقوق الزوجية حسن الانفاق على الزوجة والعيال في حدود المتوسط مع الاقتصاد وأدبهم والصبر عليهم وترغيب النساء في الزهد في الحرير وما يشف عن جسم المرأة ففي إباحة ذلك دعوة الى الفساد . ورحم الله « الشعرائي » الذي كان ينهى عن ذلك في داخل المنزل ، فماذا كان يحدث لورآه الآن على أجساد النساء في الطرقات والشوارع ؟

ولو نظرنا الى أسباب الشقاق في الأسرة نجد لها نعود في أغلب أحوالها الى عدم رضا الزوجة وقلة قناعتها بالدخل المقسوم لها ، فهي متطلعة دائما الى المستوى الأرفع مما يكلف الزوج كثيرا من العناء والارهاق الذي يسلم الأسرة الى النزاع والشقاق . وحتى عمل الزوجة الآن - ان لم يكن لها عاصم من دين أو خلق - لا يخل هذا الاشكال ، فالشعرائي قد ضرب على الوتر الحساس في اصلاح حال الأسرة التي يعتبرها المشرعون الخلية الأولى للمجتمع ، وفي صلاحها صلاحه وفي فساده فساده .

ويتعمق « الشعرائي » في داخل الأسرة ويرى استقامتها في كمال قوامة الرجل عليها ، وبمقتضى هذه القوامة يجب عليه أن يسوس أسرته سياسة معتدلة لا تناقض فيها ، ومن تمام ذلك أن يحفظ حرمة في بيته وأن يحتفظ بهيبته كاملة في نفوس زوجته وعياله ، فلا يؤنبهن على شيء ثم يسرع في ترضيتهن حتى يكن هن البادئات ، قبذلك لا يصغر في عين امراته أو أحد أفراد أسرته (١) .

وهو يرى أن قوامة الرجل أساس استقرار الأسرة لذلك نراه يأنف من الاسراف في ترضية الزوجة اسرافا يمكنها من الأخذ

(١) السحر المورود ص ١٧٦ .

بناصيته وقيادته في سبيل تحقيق مآربها ، فذلك أدعى الى اهدار
كرامة الرجولة وتضييع حق الرجل الذي ورد في حقه الأثر
الشريف : لو كنت أمرا أحدا بالسجود لغير الله لأمرت الزوجة
بأن تسجد لزوجها .

ومن تمام اصلاح الأسرة عدل الرجل في قوامته عليها
فلا يؤثر أحد أفرادها على الآخر وبخاصة في الوصايا التي كان
يريد بعض الأفراد أن يمايزوا بها بعض الأولاد أو الزوجات على
الآخرين .

« والشعراني » حين تتصفح أخلاقه المنالية تجد فيه القدوة
الطيبة التي هي وسيلة يتمكن بها المصلح الاجتماعي من أداء
رسالته ، فقد كان - رضى الله عنه - من رجال التصوف الذين
تخلقوا تخلقا كاملا بأدابه ومثله ، وطبق معنى الأثر الشريف الذي
يقول : « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »
تطبيقا عمليا ، فوسعهم منه رحمة شاملة وكرم وبذل وإيثار وأمر
بمعروف ونهى عن منكر وغير ذلك مما نجده مفصلا في موضعه ،
وحسبنا أن نذكر منه أمثلة :

فهو يقول : انى لأشعر بشعور المعذبين والمظلومين حتى لكان
كل عذاب أو ظلم واقع بأحد من الناس وقع بى . وتلك أسمى
آيات الرحمة والاخوة الصادقة .

ويحكى فى سياق ما من الله به عليه قائلا : ثم سترى
لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالعصية
فانهم أشقى الناس حينئذ ، ثم غيرتى على أذننى أن تسمع زورا
وعيسى أن تنظر محرما ولسانى أن يتكلم باطلا ، ثم كنرة شفقتى
على دابتي وكبراهيتي . أن أحمل سوطا ، ثم أخذى كل كلام وعظت

به الناس فى حق نفسى أولا وفى حق الناس ثانيا واستغفرى من ذلك ثالثا ، ثم عفوى العام عن كل مسىء الى . ويستطرد قائلا : ومما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى الا اذا علمت من نفسى القدرة بأذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس وتحمل الأذى منهم وجلب الراحة لهم .

فأى مثالية وأى إيثار أبعد من هذا ؟ وأى أثر للإصلاح الاجتماعى تتركه هذه المثالية وذلك الإيثار ؟

لقد لفت « الشعرائى » بمثالية خلقه التى كان لها أثرها العظيم فى الإصلاح الاجتماعى نظر كل من أرخوا عنه وشهدوا له فى هذه الناحية الخلقية الاجتماعية شهادة قيمة . ومن ذلك ماكتبه الدكتور زكى مبارك عنه « فهذا الرجل الذى نضيفه الى أصحاب المطامع كان من نوادر الأخلاق ، وفى كتبه صحائف تكتب بماء الذهب ، ولو شئت لقلت بمداد القلوب فقد حدثنا هذا الرجل - وهو صادق - أنه كان يزجر من يراه يتجسس على عيوب الناس وهذا أدب نبيل ، وحدثنا - وهو صادق - أن من مبن الله عليه كثرة ستره لعورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصى ، وأنه يرى ذلك من جملة الواجبات ، وهو الذى يقول : ان من جلة سترنا للمسلم أن نغلق عليه بابه اذا رأيناه خارجا منه وهو سكران ، ونأمر الأجنبية التى معه فى الخلوة المحرمة أن تنزل من حائط الحار ان خفنا أن أحدا ينظرها اذا خرجت من المحل الذى هو فيه . كل ذلك حتى لا يعلم أحد بعصيان ذلك الرجل ولا سيما اذا كان جارا لنا ، وكم يترتب على كشف السوءات من مفسدة ، فإياك يا أخى أن تفشى سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فانه يحكى ذلك لكل الناس ان كان ماذجا ، وان كان حاذقا فيحكى ذلك لبعض الناس ويأمرهم بالكتمان فيصير كل واحد منهم بخبر صاحبه ويأمره

بالكتمان حتى نمثلي البلد ، وأحدهم يحسب أنه كنم ما رأى
والحال أنه هتك أخاه بين الناس ، ولا يكتفى بذكر ذلك بل يذكر
أن من نعم الله عليه انشراح صدره ومطاوعة نفسه في محبته ستر
عورة عدوه وكراهته لكشفها مع أن الغالب على الناس اظهار الشماتة
بالعدو واطهار عورته .

« وهذا الأدب دعا اليه « الشعرائى » فى جميع مؤلفاته ، وهو
يرى أن العصاة من أصحاب الجذود العوائر ، وينظر اليهم بعين
الشفقة والعطف ويترقى فى هدايتهم الى الله ، وهذا من أخلاق
الأنبياء ، والذي يلفت النظر فى هذا الموطن هو التفاضى عن عيوب
الأعداء لأنه يفرض قوة عظيمة فى ضبط النفس ، فهو من أخلاق
الأقوياء من الرجال (١) .

وليس لنا من تعليق على هذه الآداب الاجتماعية العاليه الى
أراد « الشعرائى » أن يغير بها وجه المجتمع سوى ما نرثى به حالنا
فى هذه الأيام وما وصل اليه بعضنا من انحلال يبدو فى المجاهرة
بالمبازل والمفاخرة بها ، ويبدو أكثر فى صورة الاعلان عما يرتكبه
بعض الناس من فاحشة منتهزين فى ذلك الفرص المختلفة . ومدعين
— كذبا — أن فى الاعلان عنها عبرة وعظة تحذر الناس من التماذى
فى الانحراف والشر ، ولعمري أن الضرر الناجم من وراء التشهير
بفضائح الناس أعظم مما يزعمونه من اصلاح .

لقد كان « الشعرائى » — رضى الله عنه — عالما وأباً وطيباً
روحياً يداوى الناس ويعالج نفوسهم . اتسح صدره لآلام الناس
فوجدوا عنده ما يخفف آلامهم ويمحو مساءاتهم ويذهب أحزانهم .

(١) التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق ج ٢ ص ٢٧٧ .

لقد كان من أهداف اصلاحه محاربة الدعة والبطالة فى دواوين الحكومة وبين الموظفين ، ومحاربة الاستكثار من الوظائف حتى يجمع الشخص بين وظيفتين أو أكثر ، لأنه كان يرى فى ذلك ضياعا لوقت الدولة فى مالها وجهدها ، وتضييعا لمبدأ تكافؤ الفرص بين الناس ، ولذلك نسمعه يقول « هاكم السادة العلماء للواحد منهم عدة وظائف هو واعظ فى المسجد وموظف فى الحكومة وطبيب للعائلة ولا يقوم بأحدى هذه الوظائف على الوجه الذى يرضى الله ، بل هى سبيل للمال الحلال أو الحرام ، لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لتنتفرغ لخدمة الناس كافة (١) » .

وكما وجه قلمه للمطالبة باصلاح الأداة الحكومية لفت أنظار المسؤولين الى العناية بالفلاح والاهتمام بأمره فهو رب الثروة ، فلا يجب انقاله بالضرائب التى تضطره فى كثير من الأحيان الى بيع بقرته أو محراثه وكل حاصلاته لتسديد هذه الضرائب حتى لا يدخل السجن ، وفى الوقت نفسه دعا الفلاحين الى الاجتهاد فى أعمالهم ورغبهم فى الزرع وغرس الأشجار واستنباط الأثمار لما فى ذلك من حث على الأحياء وسعة الرزق (٢) » .

« والشعرانى » يرى أن الإنسان مدنى بالطبع فهو لا يعارض علماء الاجتماع فى ذلك . ولهذا كان يأمر بالمخالطة ولا يدعو الى العزلة الا عند الخوف من الاختلاط على أن يكون ذلك لأجل ، فمن العهود التى أخذت عليه ما يشير اليه فى « لوائح الأنوار » بالترغيب فى العزلة عن الناس اذا لم يأمنوا على أنفسهم عند الاختلاط ، فان أمّنوا عليها فالمستحب الاختلاط وليس للكل الهروب من الناس .

(١) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى ص ١٦٦ .

(٢) لوائح الأنوار القدسية ص. ١٨٤ .

وهناك ناحية تنبه لها « الشعرائى » فى الوقت الذى غفل فيه معاصروه من العلماء والصوفية عنها : هى الدعوة الى الجهاد الذى هو أساس صلاح المجتمع وتقدمه ونهوضه ويقول فى ذلك : « أخذ علينا العهد ألا نثأون بترك تعلم آلات الجهاد كالرمى بالنشاب والمصارعة والمدافعة ونحو ذلك ، ثم لا نتركها بعد التعلم حتى ينفك اعدائنا . وهذا العهد قليل من الناس من يعتنى به اكتفاء بعسكر السلطان ، ولسان حالهم يقول : اذا وقع دخول عدو بلادنا فعسكر السلطان يكفى . فذلك جبن وكسل وبيس طباع » ثم يقول : « لا نفر من جماعة اجتمعنا معهم على أمر فيه اقامة للدين كالجهاد فى سبيل الله أو أمر بمعروف نعين عليه أو ازالة منكر أو مجلس ذكر الا لضرورة شرعية . . وهذا العهد يتأكد العمل به على علماء هذا الزمان وصوفيته لكونهم رؤوس الناس فان قاموا فى أمر قامت العامة معهم وان غفلوا غفلت فالله تعالى يحب كل من حفظ شريعته » (١) . وهو يرى فى ذلك وجوب قبام القدوة بواجبهم فى المجتمع .

« والشعرائى » يرى أن الشهادة هى اسمى ما يجب أن يطمح اليه الانسان لذلك يقول فى موضع آخر أخذ علينا العهد اذا لم يقسم لنا الجهاد ألا ننفر من الأمور التى ورد أنها تلحقنا بالشهداء فى ثوابهم بل نلتقاها بالرضا فان لم يتيسر فبالصبر على الأقل . فليستمع الناس الى هذه الآراء فى هذه الآونة التى حانت فيها فرصة الجهاد واغتنام شرف المشاركة فيه .

وهناك ناحية أخرى تنبه لها أيضا وكان المجتمع المصرى - وما زال - يعانى منها هى الأخذ بالثأر ، وحاول « الشعرائى » بمختلف الطرق أن يقف فى طريق هذه النزعة المخربة ، ولم يأل

١. لواقح الأنوار القدسية ص ٢٩٧ .

جهدا فى النصيحة لمن قتل والده أو أخوه أو ابنه أو أحد من دوى قرياء بأن يدع هذا الأمر للقضاء يتصرف فيه ولا يكل ذلك الى نفسه لما يترتب على ذلك من الفوضى والاضطراب والفساد ، ويخطو خطوة أكبر فى تحبيب العفو عند هؤلاء عن القاتل استجابة لقوله «الى فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (١) .

وكان يقوم بالاصلاح بين المتخاصمين استجابة للعهد الذى أخذ عليه بالاصلاح بين الناس والنصيحة لهم والتضحية فى سبيل ذلك بالمال والوقت والجهد . ولا يخفى أثر ذلك فى المجتمع (٢) .

الشعراني والمذاهب :

« والشعراني » فهم أسرار مجتمعه وعرف أن أهم ما ينخر فيه التفرقة بين صفوف الأمة ، فحاول أن ينهى الناس عن أسباب هذه الفرقة ، ويؤلف بين قلوبهم ، ووضع لمريديه سياسة مبصرة فى معاملة أهل الفرق الإسلامية كالجبرية والمعتزلة « وهذه اللقطة تدل على اهتمام « الشعراني » بتصفية البيئة الإسلامية وحمايتها من الجدل المؤذى الذى يفسد ما بين الناس من صلات الاخاء » (٣) ووضع فى ذلك كتبه القليلة التى لم يسبق اليها ، والتى تدعو الى التوفيق بين المذاهب المختلفة .

فقله عمل على التوفيق بين الآراء المتشعبة فى مذاهب الفقهاء ، وفى كتابه « كشف الغمة عن جميع الأمة » حاول أن يجمع بين المذاهب الأربعة من غير أن يعزو الأحاديث الى مخرجيها من الحفاظ

(١) لوائح الأنوار القدسية ص ١٧٦ .

(٢) لوائح الأنوار القدسية ص ١٨٩ .

(٣) الصوف الإسلامى فى الأدب والاخلاق ج ٢ ص ٣٠٢ .

اكتفاء بعلم أهل كل مذهب بمن خرج دليلهم ، ثم صنف بعده كتاب « المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين » عزا فيه كل حديث الى من رواه ، فكان ذلك تخريجا لأحاديث « كشف الغمة » وقد نقي « الشعرائي » بذلك المذاهب من التطرف وأبعد الدخلاء عن ساحتها .

وألّف كذلك كتاب « الميزان الحضري » الذي استوحاه من الحضرة عليه السلام في ليلة مشرقة على سطح جامع الغمري وقال في مقدمته : أخذ الحضرة بيدي وأوقفني على عين الشريعة ورأيتها بعيني ورأيت اتصال جميع أقوال العلماء بها لا يخرج قول من أقوالهم عنها ، ولم يلبث أن شرّحه بكتاب آخر اسماء « الميزان الشعرائية » قال في مقدمته : الشريعة كالشجرة العظيمة المرفوعة وأقوال علمائها كالفرع والأغصان فلا يوجد لنا فرع من غير أصل ولا ثمرة من غير غصن ، كما لا يوجد أبنية من غير جدران ، وقد أجمع أهل الكشف على أن كل من أخرج قولا من أقوال علماء الشريعة عنها فانما ذلك لقصوره عن درجة العرفان ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمن علماء أمته على شريعته بقوله : العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان . كما قال في موضع آخر : كما لا يجوز لنا الطعن فيما جاء به الأنبياء على اختلاف شرائعهم فكذلك لا يجوز لنا الطعن فيما استنبطه الأئمة المجتهدون بطريق الاجتهاد والاستحسان) .

وسبب الاختلاف في رأى « الشعرائي » يعود الى أن الشريعة من حيث الأمر والنهي على مرتبتين : تخفيف وتشديد ، والمكلفون لا يخرجون عن قسمين : قوى وضعيف ، فالقوى خطب بالتشديد والضعيف خطب بالتخفيف . فلا يؤمر القوى بالنزول الى الرخصة ولا يكلف الضعيف بالصعود للعزيمة وقد رفع الخلاف في جميع أدلة الشريعة وأقوال علمائها - في رأى الشعرائي - عند كل من

عمل بهذا « الميزان » لأنه لا يخرج قول من أقوال الأئمة جميعهم
عن مرتبتى الميزان : التخفيف والتشديد .

وكما عمل على التوفيق بين مذاهب الفقه « عمل على التوفيق
بين الفقه والتصوف أو بين الشريعة والحقيقة وخصص لذلك الجانب
الأكبر من دراساته وكتبه ، كما جاهد للتوفيق بين التصوف ورجال
الكلام والتوحيد وأصحاب النظر العقلى من الفلاسفة والمتكلمين ،
وآلف كتاب « اليواقيت والجواهر » لذلك السبب ، ويقول فى
مقدمته : - وحاولت المطابقة بين عقائده أهل الكشف وعقائد أهل
الفكر حسب طاقتى ولم يسبقنى الى ذلك أحد - وسنعرض بتوفيق
الله تعالى لهذا الكتاب فيما بعد .

ويعد الاستاذ المرحوم « طه عبيد الباقي سرور » الشعرانى
شبيهاً بالغزالي فى ناحية وهى محاولة التوفيق بين الفقه والتصوف ،
ولكنه يخالفه فى ناحية أخرى : هى أن الغزالي حارب الفلسفة ولم
يهادنها ، والشعرانى لم ينكر الفلسفة على طول الخط .

وهكذا يمسى « الشعرانى » فى طريقه محاولاً جمع شتات
الأمة على كلمة واحدة حتى يجتمع شملها ويعظم أمرها .

ولا يكتفى بذلك التقريب بين آراء العلماء والصوفية ، ولكنه
يولى بقوته الروحية الى محراب التصوف محاولاً ازالة ما فى صفوفه
من خلافيات عن طريق تطهيرها من أديعاء التصوف ، فقد هاله ما
وصل اليه التصوف من حال يعبر عنها بأسلوبه : « كان التصوف
حالا فصار كاراً ، وكان احتساباً فصارا اكتساباً ، وكان استتاراً
فصار اشتهاً ، وكان اتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف ، وكان
عمارة للصنوبر فصار عمارة للغرور ، وكان تعففاً فصار تملقاً ، وكان
تجريداً فصار ثريداً » وهى عبارة تجمع الى جمال المعنى جمال
الأسلوب .

وهو يحدثنا عن اقبال شيوخ التصوف - فى مختلف كتبه -
على جمع الدنيا والاغترار بها - فهذا شيخ يدعى الزهد والفناء ويكثر
المال ويحرم أولاده منه فيصرخون للشعرانى أن ينجيهم من شر
أبيهم . وهذا شيخ يأنف أن يركب الحمار ويقول : أنا استحي
أن أمر بالحمار فى طرقات مصر . مع أنه يتعمم بالصوف وله عذبه
وشعر - على حد تعبير « الشعرانى » - وهو يحدثنا فى طبقاته عن
طوائف المجاذيب الذين يحرفون القرآن ويكشفون عن سوءاتهم ،
ومع ذلك يعتقدهم الناس ويسرون لمآهم ويتبركون بهم ، فان كان
المجنوب مغلوبا على حاله ، فكيف يسلب عقل غيرهم من الذين
يهملون لمآهم ؟

ويأسف « الشعرانى » لكثرة الخلافات التى نشبت بين
الصوفية بسبب عدم التفهم الكامل لرسالة التصوف التى تدعو
الى الاخلاص والايتار والمحبة وتحذر من الخصام والفرقة والاثرة .
وليس يرجع ذلك الا الى انصراف هؤلاء عن للجوهر الى العرض
والى اتخاذ الدين حرفة يأكلون باسمه . فدعا الى العلم والمجاهدة
وتزيين القلوب بدلا من تزيين الوجوه يقول فى كتابه .
« لواقع الأنوار » : مر رجل يبدو النور على وجهه ويتعجب الناس
منه ، فقال « الخواص » : أعوذ بالله ، فسأله « الشعرانى » عن
سبب استعاذته ، فقال : اذا أحب لله عبدا نور قلبه حتى يعرف
دقائق نفسه وخفايا شهواتها ، واذا كرهه جعل نوره فى وجهه
وأظلم قلبه فيخفى عليه حاله فيقع فى المحظورات دون أن يدري

ودعا الصوفية جميعا الى الاكتساب حتى لا يصبحوا عالة على
المجتمع ويأكلوا باسم الدين ، ويقول فى ذلك : المروءة من الايمان
ولا مروءة لمن يسأل الناس وهو قادر على الكسب ، وله قصة
طريقة يروها عن « المتبولى » شيخ شيخه « الخواص » : رأى فقيرا
دخل زاويته ومكث فيها وترك الكسب فقال له « المتبولى » :

لم لا تحترف وتقوم بنفسك وتستغنى عن حمل الناس لك الطعام ؟ فقال له : لما دخلت الزاوية رأيت بومة عمياء فى هذه الطاقة يقدم لها صقر ما تحتاج اليه فقلت فى نفسى : أنا بالتوكل أولى من هذه البومة . فقال له « المتبولى » : يا ولدى ، ولم ترضى لنفسك أن تكون بومة ولا تكون صقرا ؟ فحجل الفقير وتاب وخرج ييحب عن عمله .

وربما كان مثل هذا النوع رائجا فى حياة « الشعرائى » فقد ألح عليه كثيرا ، لذلك نراه يخاطب الصوفية : لياكم والتوكل كتوكل العوام بترك التكسب بالتجارة والزراعة والصناعة ونحو ذلك واللجوء الى سؤال الولاة والأغنياء فذلك جهل بمقام التوكل .

ورأى الغرور سائدا بين صفوف الصوفية فحارب هذا الغرور والتعالى ، ونادى بأن التواضع حلية للعلماء وهو أساس التصوف . كما رأى أن المباهاة بالباطل تذهب زينة الورع وتقضى على هيبة المتصوف ، ولا دلعى لما كان يحدث بين أرباب التصوف من مظاهر تنم على شقاق فى النفوس وخلاف فى البواطن ، ولذلك كان يرى أنه من الواجب أن يؤلف بين هذه الطوائف المختلفة ويقول لهم : زى الفقير فى روحه وباطنه لا فى مظهره وإشارته ، وكان يرشدهم جميعا الى ما يجب عليهم نحو العهود ولوائيق التى أخذت عليهم .

وكتب الشعرائى كلها لم يكتبها الا ليبين للصوفية حقائق طريقهم وكيف يسيرون فى حياتهم على هدى وبصيرة ، والمطلع على هذه الكتب يدرك منها سر تأليفها أولا ، ومدى ما وصل اليه « للشعرائى » من معرفة تامة فى كشف ما وصل اليه أدعياء التصوف من جهل تام بالطريق الصوفى وآدابه . وكتبه التى تدور حول هذه المعانى كثيرة منها : لطائف المنن والأخلاق ، وآداب

العبودية ولواقح الأنوار القدسية ؛ والبحر المورود ، ودرر الغواص ؛
والجواهر والدرر ، وتنبيه المغترين ، وقواعد الصوفية وغيرها .

ويخطو « الشعراني » خطوة أخرى نحو تحقيق رسالة الاسلام
السمحة في وجوب معاملة للذميين معاملة حسنة تتفق مع ما تدعو
اليه هذه الرسالة من مراعاة خاصة لشعور هؤلاء وتطبيق مبادئ
العدالة الاجتماعية معهم ، وقد فطن المستشرقون لهذه الناحية
الانسانية في أخلاق « الشعراني » وما تنطوى عليه دعوته من
مبادئ اجتماعية سامية فاثنوا عليه في مؤلفاتهم ثناء نبهت عليه
دائرة المعارف الاسلامية بقولها « ما جبل عليه من أمانة وغيرة
واستقامة وانتصار للعدل وانسانيته وتسامحه وما تميز به من
صدق وصراحة في نظراته لتواضع النصارى واليهود تواضعا
جعلهم مثالا للعلماء فيه .. كل أولئك يكبره في نفوس الناس
أكبارا عظيما » .

ويقول الدكتور توفيق الطويل في ذلك : كان « الشعراني »
يتحامل على مدعى الطريق ويحاربهم بغير هوادة ولكنه كان غير
متعصب ، كان واسع الصدر متسامحا حتى مع المسيحيين واليهود
في عصر سادته التعصب الديني ، بل كان يثنى على تواضع هؤلاء
الذميين ، ويضعهم مثالا أعلى للمسلمين ، ويحذر من التورط في
التكفير مخافة الله (١) .

ومن نافلة القول التصريح بأن « الشعراني » رضى الله عنه
كان نه في كل زاوية من زوايا الحياة المصرية في عصره منفذ من
القول أو الفعل يدعو الى الإصلاح . وفاء لرسالته التي فذر نفسه
لها واضطلاعا بمسئولية المصلح الاجتماعى على الوجه الأكمل
مستعدبا في سبيلها كل ملاقاة من عناء .

(١) الشعراني لتوفيق الطويل .

● في معراب التصوف

الشعراني بين يدي شيوخه :

لقى « الشعراني » كثيرا من الشيوخ منهم من ترجم له ومنهم من لم يترجم له ، وكلهم كان لهم تأثير على نحو معين في حياته الصوفية ، وعرف عن طريق قراءاته المتعددة ومعارفه الصوفية كثيرا من شيوخ التصوف الراحلين ، وكان لهم كذلك في حياته صدى قريب أو بعيد .

الا أنه كان يفسر لبعض هؤلاء من الراحلين والمعاصرين اجلالا خاصا ، ومن هؤلاء شيخه « على الشنوني » الذي دله على مدى ما تورثه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من فيوضات روحية والهامات نورانية ، وهو الذي أشار عليه — كما قدمنا — بالانتقال الى جامع الغمري حيث خصص مجلس الصلاة على النبي .

وللصلاة على النبي ميزة معينة لا تتوفر في غيرها من الأذكار . هي أنها تقوم مقام الشيخ في الارشاد والتوجيه ، ولعله لذلك السبب لم يتخذ « الشعراني » شيخا خاصا لفترة طويلة من الزمن ولم يعترف بشيخ خاص الا لثلاثة نفر هم « المرصفي والشناوي والخواص » .

وليس غريبا أن تكون للصلاة على النبي هذه التمرة في ملك الميزة ، لأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح كل فلاح . فالنبي هو الرحمة المهداة ، وبواسطته أنعم الله علينا بنعمة الاسلام والايمان ، وعن طريقه عرف الناس أسس الهداية والنور . وعن

طريق الصلاة عليه يتعرف الانسان عليه . وعن طريقها يعرف الانسان ضابط الشكر على نعمة الله الكبرى المهداة لنا برسائله المثلى . وقد أفاضت الكتب الصوفية في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . وسردت في ذلك كل ما نزل من وحى ، وروى من أحاديث ، وجاء من آثار ، وأوضحت مدى تأثيرها الروحي الذي يظهر في تهذيب الروح والوجدان .

ولا غرابة في ذلك فنحن مأمورون من قبل الحق جل وعلا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ومن الأحاديث الواردة في فضلها قوله عليه الصلاة والسلام ، أكثروا من الصلاة على فان صلاتكم على مغفرة لذنوبكم واطلبوا لى الدرجة والوسيلة ، فان وسيلتي عند ربى شفاعتي لكم ، وورد فى الأثر : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب النفس يرى فى وجهه البشر ، فقالوا : يا رسول الله ، أصبحت طيب النفس يرى فى وجهك البشر ، قال : أجل أتانى آت من ربى . فقال : من صلى عليك من أمتك مخلصا من قلبه صلاة صلى الله بها عشر صلوات ، وكتب له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ورفع به عشر درجات . »

ويذكر الصوفية فى كتبهم أن المصلى على النبي يشعر بلذة روحية كلما تردد اسم النبي بالتكريم والتعظيم كما يشعر محب النبي بهذه اللذة كلما شغفت مسامع قلبه صلوات المصلين وخامرت فؤاده أشواق العاشقين وعلى قدر ما يخالج القلوب من الأنس والبهجة فى هذا المقام تكون معايير الحب والتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أجل هذا داوم « الشعرائى » على مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم الذى ظل يقيمه كل ليلة منذ افتتحه فى عام

ثمانيه عشر وتسعمائة حتى فارق الحياة سنة ثلاث وسبعين وسعمائة
أى مايزيد على نصف قرن من الزمان .

وأثمرت الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثمارها فى
قلبه وروحه فاستنارت بصيرته وتهذب وجدانه وصفت نفسه ، وكان
حزبه الذى يتلوه فى غير أوقات المجلس ويديم تلاوته يحتوى على
تكرار صيغة الصلاة على النبى ألف مرة بهذه الصيغة « جزى الله
سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عنا خيرا بما هو أهله » .

وهناك صيغ أخرى كان يصلى بها على النبى حفلت بها أحزابه
وأوراده ودعواته .

وطالت صحبة « الشعرانى » لشيخه « الشونى » الذى ظل
حفيا به حتى حانت وفاته فدفن فى الضريح المقام بزاويتيه فى
مواجهة الداخل . وذكر « الشعرانى » عن هذا الشيخ كثيرا من
المآثر التى أثمرتها فضيلة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى
حياته ، كما ذكر طرفا من مناقبه وسيرته التى كان يعتز بها والتى
شاهدتها منه فى طوال صحبته له والتى قدرها على وجه التقريب
بخمسة وثلاثين عاما .

وتأثر « الشعرانى » بشيخه الصالح « محمد بن عنان » رضى
الله عنه فى الاجتهاد فى العبادة فقد كان كما حكى عنه يتهيا أتوجه
الليل من العصر لا يستطيع أحد أن يخاطبه الى أن يصلى الوتر ، فاذا
صلى قام للتهجد لا يستطيع أحد أن يكلمه حتى يضحى النهار ، وكان
هذا دأبه ليلا ونهارا شتاء وصيفا . كان « ابن عنان » قواما مجتهدا
يقول عنه « الشعرانى » : كنا ونحن شباب فى ليالى الشتاء نراه وهو
واقف يصلى على سطح جامع الغمرى ثم ننام ونقوم فنجداه قائما يصلى
وهو متلفح بحرامه ، فنقول : هذا الشيخ لا يكل ولا يتعب والناس

من شدة البرد تحت اللحف لا يستطيعون اخراج شيء من
أعضائهم .

ومن هدى هذا الشيخ تمرس « الشعراني » بكثرة العبادة
وأدام السهر ولازم التهجد وواظب على قيام الليل وظل ذلك دأبه
طول حياته .

ولم تحجب صحبة « الشونى وابن عنان » الشعرانى عن أن
يلتقى بشيوخه الآخرين ، وهو يعترف بلاقائه للكثيرين منهم فى
عبارته التى سبق إيرادها « ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل
الطريق ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب فلم يكن لى ودیعة عند أحد
منهم سوى ثلاثة : على المرصفى ومحمد الشناوى وعلى الخواص رضى
الله عنهم ، فسلكت على يد الأولين شيئا يسيرا وكان فطامى على يد
الخواص » .

ولا يقدح ذلك فى تأثير « الشونى » أو « ابن عنان » أو غيرهما
ممن لاقاه « الشعرانى » فان التأثير الروحى له دوجات متعددة ومنازل
مختلفة . ومن أجل ذلك اعتنى الصوفية بالشيخ وعقدوا أهمية كبرى
عليه ، وحرصوا على أن يكون لكل مرید شيخ يسلك على يديه فهو
خبير بمفاوز الطريق وعقباتها ولكل شيخ ذوق خاص قد يتناسب مع
لمرید ولا يتناسب مع غيره ، ولذلك قد يصاحب المرید شيخا ويخلص
فى مصاحبته ولا يتنفع منه الانتفاع المرجو حتى يصاحب غيره فيكون
الفتوح ويتحقق الأمل .

ولا يتعارض هذا مع خاصية « الصلاة على النبى » التى سبق
أن قلنا انها تمتاز بأنها تسلك من غير شيخ ، فالمقصود بذلك أنها
تند المرید ولكن اكتمال حاله لا يكون الا بواسطة الارشاد الصحيح
على يد الكمل من الشيوخ .

ولكل من « المرصفي والشناوي والخواص » حاله الذي أثر
على نحوهما في « الشعراني » .

التقى بالشيخ « نور الدين المرصفي » وكان من اللائمة
الراسخين في العلم ، وله مؤلفات نافعة في الطريق من بينها ،
مختصر لرسالة القشيري « التي تعد أحد أعمدة الطريق الصوفي ،
وطلب منه « الشعراني » أن يلقيه الذكر بحال قوية ، وكان ذلك
في بدء شباب « الشعراني » فهو لم يزل أمرد وما أن بدأ تلقيته
الذكر بهذه الصورة التي طلبها قائلا : قل : لا اله الا الله حتى غاب
عن الحس ولم يبق الا بعد المغرب من غشيته في حين أن التلقين كان
بعد العصر .

يقول « الشعراني » ومكثت خمسة عشر يوما مطرودا
لا أستطيع الاجتماع به لسوء أدبي معه في قولي : لقيت بحال
قوية .

ثم طلب منه « الشعراني » بعد ذلك أن يلقيه الذكر مرة
أخرى فسمع منه لا اله الا الله ثلاث مرات فما استتمها حتى غاب
عن وعيه ، ورأى في نومه الليلة رؤيا فهم منها أن تلقين الذكر
كان له أثره في روحه ، فقد رأى : كان الشيخ قد غرس ثلاثة
« ميابر - ابر غليظة - » كانت معه في جسمه . وحين قص الرؤيا
على شيخه سربها وقال له : الحمد لله الذي أظهر أثرها فيك .

ثم طلب منه أن يلقيه الذكر مرة ثالثة ، فتلقيه بصحبة
الشيخ « أبي العباس الحريثي » الذي كان بشهادة « الشعراني
أصفى قلبا وأكبر سنا وأعرف بمقامات الرجال » .

ومازل « الشعراني » يتردد بصحبة « الحريثي » على الشيخ

« المرصفي » مدة حياته حتى توفي سنة نيف وثلاثين وتسعمائة
وتقدر صحبة « الشعرائي » له بحوالى عشرين عاما .

وقد تأثر « الشعرائي » به فى الورع والزهد ، فقد كان
يلقب بجنيد عصره ، وقد أوصاه بقوله : اياك أن تسكن فى جامع
أو زاوية لها وقف ومستحقون ولا تسكن الا فى المواضع المهجورة
التي لا وقف لها ، لأن الفقراء لا ينبغي لهم أن يعاشروا الا من
كان من حرفتهم وعشرة الضد تكدر نفوسهم . وقد انتفع
« الشعرائي » بهذه اللوصاة وحافظ عليها فترة طويلة حتى تمكن
من حاله وقهر دواعي نفسه تماما ولم تعد الدنيا تملكه فانتقل
الى الأماكن التي لم تستشرف نفسه اطلاقا الى خيراتها وحين بنى
زاويته كان صالحا لأن يتصرف فى شئون أوقافها لصالح المجاورين
والفقراء وأهل العلم دون أن يستمرى نعمة ذلك أو يستكين اليه
بل ظل على حاله الكامل من الزهد والورع .

وتعلم كذلك من « المرصفي » كيف يسوس المريدين ويربهم ،
فللمرصفي ذوق عال فى التربية وكلام يدل على بعد فى الهمة ودقة
فى الفهم ، ومن ذلك قوله : المريد أحوج الى الشيخ حال اعوجاجه
فيمضى له التلطف به وعدم الغلظة عليه أو الهجر له ، الا أن يكون
قد وثق به لقوة العهد الذى بينه وبينه .

وللشعرائي كتاب اسمه « رسالة الأنوار القدسية » تحدث
فيه عن كلام شيخه « المرصفي » (١) كما طرز بهذا الكلام حواشى
كثير من مؤلفاته .

وكما تأثر « الشعرائي » بشيخه « المرصفي » ، تأثر كذلك
بشيخه « الشناوى » .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦ .

وكان الشيخ « محمد الشناوى » يمتاز بالتواضع والأدب مع الفقراء ، وكان يقول : ما دخلت على فقير الا وأنظر نفسى دونه ، وما امتحنت قط فقيرا . قال عنه « أبو العباس الغمرى » : يموت الأدب فى الفقراء بعد محمد الشناوى ، وكان أوسع أشياخ عصره خلقا وأكرمهم نفسا ومن أقواله : الطريق كله أخلاق لا أقوال ودعاؤ (١) .

وورث « الشعرانى » عن شيخه سوى هذه الصفات صفوة الفتوة الصوفية ، التى يفنى الفقير نفسه بمقتضاها فى سبيل قضاء حاجات الناس وتيسير مصالحهم . يقول « الشعرانى » عنه : كان رضى الله عنه قد أقامه الله فى قضاء حوائج الناس ليلا ونهارا ، وربما يمكث نحو الشهر بعيدا عن بلده لا يتمكن من الذهاب إليها بسبب إغشغاله فى أمور الناس ، وكان كريما مضيافا لا يرى لنفسه ملكا مع الله ، فقد كانت له أموال وبهائم وحبوب وغيرها كلها على اسم المحتاجين لا يتخصص منها بشئ ، وكان لا يقبل شيئا من هدايا العمال والمباشرين وأرباب الدولة ، ويقول : من شرط الداعى أن يطعم الناس ولا يطعموه (٢) .

وكان أهل « الغربية » وغيرها لا يزوج أحدهم ولده ولا يختنه الا بحضوره ، وكان نشيطا فى الحث على إقامة الأذكار فى كل مكان ومن كلامه فى ذلك : أشعلنا نار التوحيد فى هذه الأقطار فلا تنطفىء الى يوم القيامة .

وكان له تأثير آخر فى « الشعرانى » من حيث محاربة البدع التى ظهرت بين الطوائف الصوفية . يحدث « الشعرانى » فى

(١) المرجع السابق .

(٢) الكواكب السائرة ص ٩٧ .

طبقاته قائلا : وهو الذى أبطل البدع التى كانت تطلع بها الناس فى مولد سيدى « أحمد البدوى » رضى الله عنه من نهب أمتعة الناس وأكل أموالهم بغير طيبة نفس ، وتعلموا أنه حرام وكانوا قبله يرون أن جميع ما يأخذونه من بلاد الغربية حلال ويقولون : هذه بلاد سيدى أحمد ونحن من فقرائه ، وكانوا يطلعون بالصدق والمزمار فأبطل ذلك وجعل عوضه مجلس الذكر (١) ، وكان جادا كذلك فى إبطال السخرة ، فقد كان الشعب يلاقى الأمرين من عنف الحكام فى تسخيرهم ونجح فى ذلك (٢) وقد أذن « الشناوى للشعرانى » فى تلقين الناس العهد مع جماعة من مريديه وأنشده فى ذلك متمثلا .

أهيم بليلى ما حييت وإن أمت أوكل بليلى من يهيم بها بعلى وتوفى فى هذه الليلة من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، وقد دعا للشعرانى بأن يظل محل نظر الله ورعايته ولا يحرم ذلك طرفة عين (٣) .

ويقول « الشعرانى » أنه استشار فيما بعد شيوخه « الخواص » فى تنفيذ إذن « الشناوى » له بتلقين الناس العهد فأشار عليه بترك ذلك لأن هذا الزمان للذى هم فيه قد قل فيه الصديق فى طلب الطريق .

وقد ظهر صدق نظرية « الخواص » فإن قوما غلبوا على « الشعرانى » وألحوا عليه فى تلقينهم الذكر فلقنهم حلم يفلح منهم غير واحد ، ويقص فى ذلك هذه القصة : طلب جماعة شيوخنا « محمد الشناوى » رضى الله عنه من الفقير التلقين لهم بعد موت

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) الكواكب السائرة ص ٩٥ .

(٣) الطبقات الكبرى ص ٢ ص ١٢١ .

الشيخ ، فأبيت ، فالحوا على بقول الشيخ رحمه الله أنى خليفته من بعده ، فشق ذلك على لما أعلم من نفسى . فلقنت منهم جماعة فראيت كاتنى أخطى النعال خياطة محكمة ، فلما أنهى النعل يتفسخ بنفسه كما كان أولا ، فعلمت الوجه من ذلك (١) .

والوجه الذى يقصده هو عدم اذن شيخه « الخواص » .

ويعلق « الشعرانى » قائلا : الجالس للطريق بغير اذن لا يصلح للطريق ولا للأدب ، وربما يقصد من ذلك أنه لم يستمع لنصح « الخواص » فلم يفلح أكثر من لقنهم ، ولكن « الشعرانى » كان قبل أن يستمع الى نهى « الخواص » قد لقن كثيرين وأفلحوا جميعهم .

و « الشعرانى » يشير بذلك الى ضرورة الاذن ، والاذن من شروط الدعوة ، وقد ورد ذلك بالنسبة للأنبياء عليهم السلام فالقرآن الكريم يقول : « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ودلعيلى الى الله بأذنه وسراجا منيرا » . ولا يكتفى « الشعرانى » بأذن الشيخ فقط ، ولكنه ينتظر من وراء اذنه اذنا آخر من الله ويعتبر من شروط الشيخ ألا يركن الى الاذن له بالسلوك والارشاد من شيخه أو غيره ، لأن الاذن لم يضمن له من الله تعالى حال اذنه له عدم المقت أو السبب حتى يطمئن الى للاذن ويركن اليه بأنه خال من ذلك (٢) .

وفى صدق نظرية وصول المرید على يد شيخ آخر غير الذى سلك عليه أولا يقول « الشناوى » قد يرضع الشيخ مريدا ويكون قطامه على يد غيره .

(١) آداب العبودية ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) آداب العبودية ص ٥٢ .

وقد تحقق ذلك فى « الشعرانى » الذى يقول : كان فطامى
على يد « الخواص » .

وحقا ذلك فقد كان « للخواص مع الشعرانى » شأن وأى
شأن . ؟؟؟

الشعرانى والخواص :

كان « الخواص » أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان « الشعرانى »
حجة فى مختلف العلوم والفنون ، فكان فى اجتماعهما آية على أن
العلم الحقيقى ليس وقفا على الكتب ، وليس شرطا فى تلقيه أن يكون
بين يدي عالم أو فقيه . لقد تلقن « الشعرانى » العالم على يدي
« الخواص » الأمى فنون الحكمة العالية التى لم يكن علمه سبق
الى قطرة من قطراتها .

لقد كان فى ذلك درس يعلم الناس جميعا كيف يكون التواصل
العظيم ، وكيف يجب على العالم ألا يغتر بعلمه ، أو يعتقد فى نفسه
مهما أوتى من شهادات أو حصل على إجازات أنه وصل الى نهاية
المطاف .

والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، لا يأنف من اليد
التي تقدمها ، ولا يتعالى على اللسان الذى يلقنه ، ولا يتسامى على
الإنسان الذى يجلسه بين يديه .

لقد كان فى اجتماع « الشعرانى بالخواص » إشارة كريمة الى
المعنى الكريم الذى يفهم من قصة « موسى والحضر » عليهما السلام ،
وقد تعلم « موسى » النبى على يدي الحضر علما لم يدركه وحكمة لم
يكن يعرفها .

وليس لقاء « الشعزاني والخواص » بدعا في موضعه . فكم
أمرى بز علما بفضلله وذوقه ، ولقد تلقى « أحمد بن المبارك » وهو
العالم البارع أصول العلم الحقيقي على يدى شيخه « عبد العزيز
الدباغ » الأمرى ، وقال عنه « ابن المبارك » فى كتابه « الإبريز »
الذى ترجم فيه عن بعض الحقائق التى تعلمها منه : شاهدت من علومه
ومعارفه ما غمرنى وبهرنى وسمعت منه ما لم يطرق سمعى من
قبل (١) .

وتلقى « الغزالي » على يدى شيوخه الصوفيين علما لم يقرأه فى
كتاب ولم يطلع عليه فى صحيفة .

واستفاد « عز الدين بن عبد السلام » قاضى قضاة مصر وشيخ
علمائها من « الشاذلى » رضى الله عنه علما قرظه بقوله : هذا علم
قريب العهد من الله .

اجتمع « الشعزاني بالخواص » وحدثت بينهما محاوراة قصيرة
قرر « الشعزاني » على أثرها أن قوة روح هذا الشيخ الأمرى قد
استولت عليه استيلاء تاما ، واستحوذت على قلبه وروحه واعتقد
اعتقادا جازما أن الخير كل الخير فى الاستجابة التامة لما يأمره به ،
وأن كلمات صفيه « البهلول » التى طال ترددها فى حناياه لن تؤتى
أكلها الا على يد هذا الشيخ .

قال له الخواص : الى من تنتسب ؟

قال الشعزاني : الى السلطان أحمد سلطان المغرب نسبيا ،
والى محمد بن الحنفية شرفا .

قال الخواص : وما عملك ؟

(١) الإبريز المقتمة .

قال الشعراني : العلم ، أقرؤه وأطلبه وأعلمه .

قال الخواص : سلطنة وشرف وعلم مع فقر لا يجتمعن ، فإن أردت مصاحبتي فاختر الفقر على ما عده . وتنازل « الشعراني » طائعا عن نسبه وشرفه وعلمه . واختار صحبة « الخواص » على هذا الشرط ، ويحدثنا « الشعراني » عن طرف من مجاهداته التي قام بها تحت إشراف شيخه فيقول : « كانت مجاهداتي على يدي سيدي » على الخواص « كثيرة متنوعة منها أنه أمرني أول اجتماعي عليه ببيع كتبي والتصدق بتمنها على الفقراء ، ففعلت ، وكانت كتبنا نفيسة مما يساوي عادة ثمنا كثيرا ، فبعتها وتصدقت بمنمها ، فصار عندي التفات اليها لكثرة نعي فيها وكتابة الحواشي والتعليقات عليها ، حتى صرت كأنني سلبت العلم ، فقال لي : اعمل على قطع التفاتك اليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فانهم قالوا : ملتفت لا يصل فعملت على قطع الالتفات اليها . بعد مدة خلصت بحمد الله من ذلك . ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيرا منهم فقال لي : اعمل على قطع انك خير منهم ، فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيرا مني .

ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعتة فرأيت نفسي حينئذ أننى صرت أفضل مقاما منهم ، فقال لي : اعمل على قطع ذلك أيضا ، فعملت حتى قطعتة .

ثم أمرني بالاستغفال بذكر الله سرا وعلانية والانقطاع بالكلية اليه ، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فمكثت على ذلك شهرا .

ثم أمرني بترك الشهوات مطلقا فتركها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة في الهواء ،

وصارت العلوم الثقيلة تزاحم العلوم الوهية فى صدرى ، ثم أمرنى بالتوجه الى الله تبارك وتعالى فى أن يطلعنى على أدلتها الشرعية ، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبى ممسوحاً من العلوم الثقيلة لاندراجها تحت الأدلة ترادفت على حينئذ العلوم الوهية (١) ، .

وفى أحد الأيام كان يقف بالفسطاط تجاه الروضة بناء على أمر من شيخه فرأى العلوم تتزاحم على قلبه من كل فن فسطر من ذلك صحائف كثيرة وعرضها على شيخه ، فأدرك أنها علم مخلوط بفكر وكسب ، فأمره بحرقها ، لأنه مازال بينه وبين العلم اللدنى الحالى ألف مقام (٢) .

ومازال « الشعرانى » و « الخواص » يأمره بإزالة ما يكتب حتى فتح الله عليه بعلوم سطرها فى كتابه « الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية » فأمره « الخواص » بإبقاء ذلك وقال له : الآن ثم أمرك وعلا نجمك (٣) .

ويحتوى هذا الكتاب على الآداب التى يجب أن يتحلّى بها العبد فى حياته مطلقاً وفى طلب العلم النافع ، وعلى الآداب التى يجب أن يتحلّى بها الفقراء وشيوخهم وعلى خاتمة توضح المقامات الساقطة التى ينبغى للمريد الصادق تحاشيها .

وبعد ذلك لقنه « الخواص » العهد والذكر ، ولازم « الشعرانى » شيخه وجعل يغترف من بحر علومه حتى حصل من المعارف الصوفية والأسرار الروحية مالا يحيط به حصر ولا يدركه عقل .

(١) الصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٣٦ .

(٢) الشعرانى لتوفيق الطويل .

(٣) المناقب الكبرى ص ٥٧ .

يقول « الشعرائى » : غطست فى بحر علوم شيخى خمس مرات . فلما أردت أن أغطس السادسة استحال البحر حجرا ، وفى كل مرة كنت أغطس فيها كنت أجد صيدا من خزائن علومه رضى الله عنه .

وجد فى المرة الأولى خزانة على بابها قفل ، ففتحها بقول : لا اله الا الله . ورأى فيها علوما برزت من اللوح المحفوظ الى هذا العالم على اختلاف طبقاته .

وفى المرة الثانية وجد على باب الخزانة قفلين ففتحهما باسم : الله . ووجد هناك آيات من القرآن الكريم من أول « سورة الحاقة » حتى نهاية القرآن الكريم ، ورأى تفسير ذلك مكتوبا بمعان وعبارات لا تدركها العقول .

وفى المرة الثالثة وجد على الخزانة ثلاثة أقفال ففتحها : بالرحمن الرحيم .

وفى الرابعة كانت الأقفال أربعة ففتحها : بحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفتح الأقفال الخمسة فى المرة الخامسة : بسبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

كان فى الخزانة الثالثة علوم الحديث الشريف والتفسير ، وكان فى الخزانة الرابعة علم التأويل ، وفى الخامسة وجد جملة صالحة من حقائق متفرقة تقبلها العقول ولا تنكر منها شيئا .

وحاول « الشعرائى » أن يضمن بما أدركه من خزائن هذه العلوم فلا يبوح بأسرارها ، ولكنه رأى رؤيا فهم من تأويلها حرمان البخيل من الرحمة ، فأذاع ما رأى ليتنفع به أهله .

وربما كان المقصود بالاقفال ومفاتيحها هو ما تضمنه الذكر من أسرار ، وما تحتويه أسماء الله الحسنى من معان وما تفيض به من فيوضات على نحو ما أشار اليه الاستاذ طه عبد الباقي سرور فى كتابه « التصوف الاسلامى والامام الشعرانى » .

ولا ينكر أحد أهمية الذكر بالنسبة للطرق الصوفية فهو أحد أعمدة الطريق بل هو روحها وبدونه لا يتمكن المريد من أن ينال شيئاً من الطريق .

وعاش « الشعرانى » ابناً باراً بشيخه « الخواص » فقد أدرك فضله وعرف منزلته ، وفهم أن مبنى علومه على الكشف الصحيح والتعريف الالهى لا مدخل للفكر والنظر فيها بوجه من الوجوه (١) .

وقد وصف « الشعرانى » شيخه بقوله : رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم الا العلماء انعاملون لأنه رجل كامل عندنا بلا شك ، والكامل اذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريباً فى الاكوان (٢) .

ويعتبر الدكتور زكى مبارك منزلة « الشعرانى » من « الخواص » بمنزلة « أفلاطون » من أستاذة سقراط ، لأن مجهود « الشعرانى » فى بث علوم أستاذه لا يقل أهمية عن مجهود « أفلاطون » فى نشر ثقافة اليونان ، وليس ذلك بغريب بالنسبة لما أثر عن « الخواص » من علم ومعرفة ، وحسبك من ذلك قوله : من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم أنه من أهله فليرد كل قول الى قائله ، وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته الى من استفاده منه وينظر نفسه بعد ذلك « (٣) » .

(١) المناقب الكبرى ص ٥٨ .

(٢) التصوف الاسلامى والامام الشعرانى ص ٢٨ .

(٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والاخلاق ج ٢ ص ٣٠٨ .

ويروى « الشعراني » عن « الخواص » أنه على الرغم من أميته فإنه كان ينكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما نفيسا ينحير العلماء فيه .

وقد نأثر « الشعراني » بشيخه في كثير من اتجاهات سلوكه .

كان « الخواص » متواضعا ويدعو الى الزهد مع التمسك بأسباب الرزق ، فقد كان يعظم أرباب الحرف النافعة في الدنيا وإن صغرت هذه الحرف كالزبال والسقاء والطباخ وغيرهم ويكرمهم ويدعو لهم . كما كان يعظم العلماء وأركان الدولة ويقوم لهم ويقبل أيديهم ويقول : هذا أدبنا معهم في هذه الدار . وكان يستقبل زائره بالذهاب اليه ويقول في ذلك : كل خطوة يمشيها الناس الى الفقير تنقصه من مقامه درجة ، فقليل له : فكيف تذهب أنت اليهم ؟ فقال : أنا أذهب وأدعو الله ألا ينقص درجتهم .

وكان كسب « الخواص » من عمل يده ، كان في أول أمره طوافا يبيع الصابون والجميز والعجوة وكل ما وجد ، ثم تاجر في الزيت سنين عديدة ، ثم صار يشتغل بجدل الخوص الى أن مات ، وكان يقول في ذلك : أنا لا تطيب نفسي بكسب نفسي ، فكيف تطيب بكسب غيري ؟ .

ويقدر « الشعراني » صحبته للخواص بحوالى عشر سنين ، ولكن ذلك تقدير تقريبي ، فالواقع أن الصحبة طالت الى ما يقرب من أربعة عشر عاما ابتداء من حوالى سنة احدى وثلاثين وتسعمائة الى وفاة الخواص سنة خمس وأربعين وتسعمائة .

وقد أثمرت هذه الصحبة ثمارها اليانعة في قلب « الشعراني » ، وروحه وسلوكه ، ولم يضيع هذه السنين هباء ، ولكنه كان ينتهز

كل فرصة ممكنة ليسأله عما غمض عليه علمه أو استغلق عليه فهمه ، وكان ثمرة ذلك كتابين جليدين • أما أحدهما فهو كتاب « درر الغواص في فتاوى سيدى على الخواص » ويتضمن هذا الكتاب أسئلة كان يوجهها « الشعرائى » للخواص فيجيب عليها بأسلوبه ويصورها الشعرائى بعبارته وفى ذلك يقول : فهذه نبذة صالحة من فتاوى شيخنا •• التى سألته عنها مدة صحبته له مترجما عن معنى بعضها لكونه رضى الله عنه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلسانه يشبه لسان السريانى تارة والعبرى تارة فإذا علمت أن الجواب لا يدرك الا بحروفه ذكرت جوابه بلفظه من غير شرح لمعناه •

ومن اجابات « الخواص » على أسئلة « الشعرائى » ندرك مدى ما كان عليه من تحقيق وتمكن ، مع ملاحظة أن « الشعرائى » كان عالما فهو لا يسأل الا عما استغلق عليه فهم العالم البارع • واليك نموذجا من هذه الأسئلة :

يقول الشعرائى : سألته عن قول أحمد بن حنبل حين طلب من الله تعالى أن يدلّه على ما يقرب العبد فأجابه الحق تعالى : بتلاوة كلامى بفهم وبغير فهم •

وكانت اجابة الخواص عن الفهم وغير الفهم أن الفهم خاص بعلماء الشريعة المطهرة ، وغير الفهم خاص بعلماء الحقيقة وهم كمل العارفين ، اذ العارفون ليس لهم أدلة الى فهم كلام ربهم او غيره الا بالكشف والذوق لا الفهم والفكر ، ومرادنا بهذا الكشف هو كشف العلوم والمعارف الحاصل بالنفث والروع لا الكشف المعهود فى الحس بين أرباب الأحوال ، فان العلوم ليست محسوسة حتى يكشف عنها كما يكشف عن الاماكن البعيدة فى الكشف الصورى ، وقد جعل الله تعالى لعلماء الشريعة نظير هذا الكشف الفهم بواسطة الاجتهاد والأدلة المعلومة بينهم وأطال فى ذلك ثم قال : واعلم أن الله

تعالى قد أخبر في كتابه عن أقوام: ان هم كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أقوام من أمته يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم . فكيف يكون هؤلاء الأقوام متقربين اليه بعدم العلم الذى هو الجهل (١) ؟

وسأله عن أسرار العبادات وما تهدف اليه من معان تدنى على العقول والأفهام ، ومن ذلك سؤاله عن الحكمة فى وجوب استقبال القبلة قائلا له : أألقى تعالى فى جهة الكعبة دون غيرها مع أن الجهات كلها فى حق الحق تعالى واحدة ؟

فأجاب الخواص : انه لا يستقبل الحق تعالى من العبد الا روحه لا جسده . فالعبد اذن مستقبل للحق فى غير جهة بباطنه . وليحذر العبد أن يتوهم أن نفسه قد أحاطت بها الجهات كصورته الظاهرة خوفا أن يبقى الحق فى وهمه كالدائرة المحيطة فان ذلك جهل بالله تعالى ، بل كما يرى نفسه التى هى ليست من عالم الحس فى غير جهة كذلك يكون الحق . وأما ظاهر العبد فانما هو متوجه الى جهة القبلة المخصوصة وذلك ليجمع همه على الأمر الذى هو فيه . فانه لو لم يؤمر باستقبال جهة معينة وكان على حسب اختياره تبدد حاله وكان يترجع عنده فى كل وقت جهة ما وربما تكافأت فى حقه الجهات فاحتاج الى فكر واجتهاد فى الترجيح فيتبدد بالكلية ، فلذلك اختار الحق تعالى له ما يجمع همه ويريح قلبه (٢) .

وأما الكتاب الثانى فهو « الجواهر والدرر » أوضح « الشعراني » أنه أُلّفه بعد أن التمس منه بعض الاخوان الأتريين عنده ذكر ما تلقاه من شيخه « الخواص » وما قاوضه فيسه من الجواهر والدرر حال

(١) درر الخواص ص ٨

(٢) درر الخواص ص ٨٣

مجالسته مدة عشر سنين ، وقد وسم كل قولة منه باسم شيء من
الجواهر النفيسة اشارة لعزة الجواب عنها بين اظهر العلماء على حسب
درجات ذلك الكلام فى النفاسة ، ما بين ماس وكافور وياقوت وجوهر
وبلخش (١) وزبرجد ولؤلؤ ومرجان وزمرد وغير ذلك .

ويحتوى هذا الكتاب على أجوبة أيضا عن أسئلة سألها
« الشعرانى » لشيخه وعلى أقوال سمعها منه .

ومما ورد فى هذا الكتاب تحت عنوان « ياقوت » : سألت
شيخنا عن قوله تعالى « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » هل هذا النصر
لهم دائما فى كل وقت أم هو خاص بمواقب الأمور فتكون الدولة
للمؤمنين ؟ فقال رضى الله عنه : النصر دائما مع الايمان لما فيه من
شدة الاستناد الى الله تعالى فقلت له : فمن أين وقع للصحابة رضى
الله عنهم الانهزام فى بعض المواطن وهم المؤمنون بيقين ؟ فقال :
جامعهم الانهزام من ضعف توجههم الى الله تعالى حين أعجبتهم كثرتهم
فلم تغن عنهم شيئا (٢) .

ومما ورد تحت عنوان « كبريت احمر » أوصانى شيخى رضى
الله عنه وقال : لا تقم لأحد من الاخوان وغيرهم الا أن لا تعلم من
نفسه الميل الى ذلك ، فانك اذا قمت له حينئذ كبرت نفسه بغير حق
وأساءت فى حقه هو حيث لا يشعر - فقلت له : ومن أين لى العلم
بذلك وحسن الظن بالمسلمين واجب ؟ فقال رضى الله عنه : حسن
الظن لا علم (٣) فقم له اكراما ، ولو كان فى الباطن بخلاف ما ظننت
وأمرك محول عنك . فقلت له : فان كان مشهدى أنى دون كل الخلق

(١) البلخش نوع من الأحجار الكريمة .

(٢) الجواهر والدر ص ١٠٩ .

(٣) لا علم : يعنى ليس علما ، واللفظ الوارد نص عبارة الشعرانى .

فى الرتبة ؟ فقال رضى الله عنه : صاحب هذا المشهد يقوم لكل وارد عليه من عصاة هذه الأمة لأن الناس كلهم عنده أهل فضل عليه والقيام لأهل الفضل مطلوب ، لا سيما ان حصل بذلك جبر خاطر لأخيك المحجوب (١) .

ولحرص « الشعرانى » وتورعه حاول أن يستطلع رأى « الخواص » فى اتخاذ شيخ آخر بعده اذا ما قدر للخواص أن يسبق للعالم الآخر ، فأشار عليه بعدم ذلك ، لأنه أنس فى تلميذه النجابة فلم يعد فى حاجة الى أن يتعلم على أحد فقد صار أستاذا ، ولأنه رأى أنه لا يوجد بعد من الشيوخ من يستحق الصدارة - ومصدق ذلك نجده تحت عنوان « فيروزج » : قلت لشيخنا : هل آخذ العهد بعدكم ان سبقتم العهد بالوفاة ؟ فقال رضى الله عنه : لا تنقيد بعدى على صحبة أحد من هؤلاء المشايخ الظاهرين فى النصف الثانى من القرن العاشر لتعذر الوفاء بحق كل منكما على صاحبه ، لكن لا بأس بزيارتهم كل قليل ، فقلت له : فهل أمر بذلك جميع أصحابكم من بعدكم فقال : لا تنقيد على أحد منهم فان الله تعالى له خواص فى كل عصر يقبلون الترقى على يد من شاء الله تعالى ، على أن الطريق الآن قد صارت اسما لا رسما ، وتزىي المريدون بزى الأشياخ ، وتلبس على أكثر الناس أمر الشيخ وتمييزه عن المريد ، بل ربما ادعى المريد أنه أعرف من شيخه بالطريق وتبعه أكثر الناس على دعواه « (٢) » .

وتوفى « الخواص » سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، وظل « الشعرانى » من بعده حاملا لواء دعوته وشعلة هدايته ما يقرب من ثلاثين عاما .

• (١) الجواهر والدرر من ١٤٣ .

• (٢) الجواهر والدرر من ٣٢٨ .

وكان يلزم « الشعراني » في أثناء صحبته للخواص الشيخ « أبو الفضل الأحمدي » الذي كان يلقبه بأخيه ويحدث أنه حدث بينهما اتحاد لم يقع له مع غيره ، ودليل ذلك أنه كان يرد على قلبه من الكلام ما يدونه فإذا ما أصبح وجد نظيره عند الشيخ « أبي الفضل » ودامت صحبتهما خمس عشرة سنة ، وتوفي ودفن « بيدر » في أثناء حجة سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، ويحكي « الشعراني » أنه في أثناء حجة سنة سبع وأربعين زار قبر أخيه في الله فرد عليه السلام . ومن تواضع الشعراني أنه كان يلقبه بشيخه وترجم له في طبقاته على أنه أحد شيوخه ، وذكره في كتاب الجواهر والدرر وأورد له طائفة جيدة من أقواله التي تدل على صفاء روح وقوة ادراك .

مع الشيوخ الراحلين :

في صحبة ابن عربي :

أخلص « الشعراني » الود لكل من سبقه من الصوفية الأجلاء ، وأفرد لهم في قلبه صفحات تقية بيبضاء وكان آلد وقت يقضيه في مصاحبتهم عن طريق متابعة سيرتهم وقراءة آثارهم واستطلاع أخبارهم ، وله في ذلك مؤلفات نافعة ، منها : لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية ، ولواقح الأنوار في طبقات الأخيار ، والطبقات الكبرى ، وإرشاد الطالبين إلى التخلق بأخلاق العاملين ، ووصايا العارفين وغير ذلك مما ألفه في مناقبهم وآثارهم ، ما بين مخطوط ومتداول .

و « الشعراني » في إعجابه بشيوخ التصوف إنما يرضى بذلك نزعتة الصوفية ويحاول أن يترسم خطاهم ليصل إلى الكمال الروحي الذي حققوه . ويمكن أن يقاس « الشعراني » بالفزالي وابن عربي

من بين الصوفية المأضين في وضوح المنهج وغزارة النتائج ، فقد كان كل منهم على علم تام بالمعارف الشرعية والعقلية واللغوية قبل نبصره في علوم التصوف ، ولكل منهم آثار جمة تشهد له بالسبق والتقدم .

وهو الى جانب إعجابه « بالغزالي » يختلف معه في ناحية ويتفق معه في ناحية . يختلف عنه في الموقف من الفلسفة ، فقد نفر « الغزالي » بعد تصوفه من الفلسفة نفورا شديدا ، وهاجمها وكتب في ذلك عدة مؤلفات يدعو فيها الى الكف عن مطالعة كتب الفلسفة وعلم الكلام ، ومن ذلك كتاب : « الجام العوام عن علم الكلام ، الذي ألزم الانسان فيه بوظائف متعددة تسلمه من الجهل والتخبط والضلال ، ومنها كتاب : « المنقذ من الضلال » الذي يوضح فيه سبب جفائه الفلسفة وإقباله على التصوف . ومنها كتاب « تهاافت الفلاسفة » الذي يناقش فيه آراءهم ويفندما ، وغيرها .

ولكن « الشعرائي » كان ينهى عن الخط على الفلاسفة وتنقيصهم وينفر ممن يذممهم ويقول عنهم : هؤلاء عقلاء (١) .

واتفق « الشعرائي » مع « الغزالي » في الرأي بأن الايمان لا التفلسف هو الطريق الى الله (٢) . وحمل من أجل ذلك على العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ، ودعا الى أن العلم الذي لا يهدي الى الله ويوصل اليه الجهل خير منه ولا غرابة في ذلك فكلاهما — برغم علمهما الواسع — لم يجدا شفاء نفسيهما الا على يد شيخ أمي .

ولعل « الشعرائي » في عدم مهاجمته الفلسفة يساير طبيعته التي تدعو الى التأليف بين طوائف الأمة المختلفة وجمع شتاتها ، وكان

(١) شذرات الذهب لابن الصاد ج ٨ ص ٣١٢ .

(٢) الشعرائي لتوفيق الطويل .

دأبه توجيه القلوب وجهة واحدة بدلا من ذلك التنافر الذى شئت.
الجهود وأضعف العزائم وله فى ذلك مؤلفات مختلفة سبق الإشارة
اليها .

ولعل « الشعرائى » فى هذا الاتجاه أيضا يقتفى خطوات
« محبى الدين بن العربى » الذى كان يكنى له اجلالا خاصا ، وأخلص
له اخلاصا يفوق كل حد يفرد له من بين مؤلفاته كتباً خاصة تشرح
آراءه وتقرب وجهة نظره وتدافع عنه .

و « ابن عربى » كان لا يهاجم الفلاسفة – وان كان لا يدعو
الى علومهم – « ولذلك نسمعه ينصح فى مقدمة الفتوحات بعلم
المبادرة الى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين ، اذ ربما يكون فى
كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول فى ذلك : اياك
أن تبادر الى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلى مثلاً ، وتقول :
هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فان هذا قول من لا تحصيل له ،
اذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلاً يكون باطلا ، فعسى أن تكون
تلك المسألة مما عنده من الحق ، ولا سيما ان كان الشارع صلى الله
عليه وسلم صرح بها أو أحد من علماء أمته من الصحابة والتابعين
والائمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة
مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت
عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ،
فلا تبادر يا أخى الى الرد فى مثل ذلك وتمهل وأثبت قول ذلك
الفيلسوف حتى تحد النظر فيه ، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشرعة
لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته (١) » .
كان « الشعرائى » معجبا بابن عربى ، ولذلك اقتفى خطواته ،
وتأثر به تأثرا كبيرا ، وليس غريبا أن نعتبره من تلامذته المخلصين،

(١) محبى الدين بن العربى سلطان العارفين ص ١٠٥ ، من سلسلة اعلام العرب
للمؤلف .

فالتلمذة ليست وقفا على المعاصرة ، ويمقتضى حق هذه الأستاذية حمل التلميذ لأستاذه كل اجلال واكبار وأخذ على عاتقه اذاعه معارفه وأذواقه وتقريبها الى الأذهان ، وصوغها فى عبارة نفى عنها كل شك وتظهرها فى صورة لا تتنافى مع الشرع ، ولاقتناعه بآراء « ابن عربى » وصفته دائرة المعارف الاسلامية بأنه يردد هذه الآراء وأنه ليست له آراء مبتكرة ، وآية ذلك فى رأيهـا أنه استخدم المصطلحات التى استخدمها « ابن عربى » لا المصطلحات التى استخدمها غيره من الصوفية ، وقد سائر الدكتور زكى مبارك آراء المستشرقين التى استندت اليها دائرة المعارف فى ذلك الفهم فقال : ان « الشعرانى » فتن فتنة عظيمة بأدب « محبى الدين بن العربى » وألف فى شرح آرائه كتابا طريفا سماه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر » واختصر كتاب « الفتوحات » وهو يحرص كل الحرص على تبرئة « ابن عربى » من فتنة القول بوحدة الوجود أو الحلول ، وهو يصر اصرارا جازما على أن مؤلفات « ابن عربى » أضيفت اليها زيادات أراد بها الدساسون تشويه سمعته فى العالم الاسلامى . ويضيف : والذى نراه أن « الشعرانى » أسرف بعض الاسراف حين جعل « ابن عربى » من أهل السنة والجماعة وحين نفى عنه ما يصدر عن مثله من الشطحات الصوفية ، ولكن اسراف « الشعرانى » مقبول لأنه صدر عن اخلاص « (١) » .

والذى يهمنا هنا أن نبعد عن « الشعرانى » تهمة الجمود التى رمته بها دائرة المعارف ، وتهمة التعصب التى رماه بها الدكتور زكى مبارك .

فلم يكن « الشعرانى » جامد العقلية بدليل أن كثيرا من مؤلفاته كانت ابتكارا صرفا لم يسبق اليه — بشهادة المستشرقين

(١) التصوف الاسلامى ج ١ ص ٢٠٤ .

أنفسهم الذين حررت دائرة المعارف بأقلامهم - وبدليل يمكنه من فهم كثير من الآراء التي حارت العقول في فهمها ووقفت أمامها حائرة لا تستطيع أن تدرى عنها القليل أو الكثير . ووحدة الوجود التي أقامت الدنيا وأقعدتها ليست بدور مع الفهم الخاطئ الذي حاول الكثيرون أن يلبسوها ثوبه ، وفهم « الشعراني » لها إنما هو دليل على تحرر عقليته وانطلاقها إلى آفاق أوسع وأرحب ، ثم تمكنه من صياغة الآراء المستعصية في أسلوب يتناسب مع عقلية زمانه دليل آخر على تمكنه من مخاطبة الناس على قدر عقولهم . تقول عنه شذرات الذهب : ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين ولا لدونة النقلة بل هو فقيه النظر صوفي الخبر له دراية بأقوال السلف ومذاهب الخلف (١) .

ويقول عنه « جورجى زيدان » انه كان له شأن عظيم ويثبت أنه كان سباقا ومبتكرا بدليل أن كتابه « الميزان الكبرى الشعرانية » - رغم بعد الصور الدينية عن أذهان المسلمين - يوجد به ثمانى صور خيالية مثل فيها « الشعراني » صوراً في ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في دار الدنيا ومن اعوج وقياس الأئمة مما لا يوجد مثله في غير هذا الكتاب (٢) . ومعنى ذلك أنه كان أحد السباقين إلى استعمال وسائل الإيضاح التي تعين على الفهم ولا يصدر ذلك الاستعمال عن جامد غير مبتكر .

و « الشعراني » ليس متعصباً فإنه برغم إعجابه بابن عربى إلا أنه كانت له شخصيته المستقلة التي تقبل وتعرض ، وقد رأينا له وقفات مع عبارات نسبت إلى ابن عربى لم يقبلها وهاجمها . يثبت ذلك الاستاذ طه عبد الباقي سرور قائلاً : حتى أننا لنراه أحياناً

(١) الشذرات ج ٨ ص ٣٧٢ .

(٢) تاريخ أدب اللغة لجورجى زيدان ج ٣ ص ٣٣٥ .

يهاجم محيي الدين وهو المحب الأكبر والتلميذ الأمين لمحيي الدين ، ويقول الشعراني في ذلك مخاطبا المريد : وليحذر أيضا من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضى الله عنه لعلو مراتبها ، ولما فيها من الكلام المدسوس عليه لا سيما الفصوص والفتوحات المكية (١) .

فالشعراني اذن لم يكن يقف أمام كلام ابن عربي موقفا سلبيًا ، ولكنه كان يناقشه ، فما يجده مسائرا للسنة يقبله وما يجد فيه مخالفة يحاول البحث عن حقيقته وأصله فربما كان مدسوسا على الشيخ وكثيرا ما يكون كذلك . وقد ذكر « الشعراني » في مقدمة « اليواقيت والجواهر » ما يدل على تدقيقه وتوقفه قائلا : لكني رأيت في الفتوحات مواضع لم أفهمها ، فذكرتها لينظر فيها علماء الاسلام ويحقوا الحق ويبطلوا الباطل ان وجدوه ، فلا تظن يا أخى أنى ذكرتها لكوني أعتقد صحتها فأرضاهما في عقيدتي كما يقع فيه المتهورون في أعراض الناس ، فيقولون : لولا أنه ارتضى ذلك الكلام واعتقد صحته ما ذكره في مؤلفه ، معاذ الله أن أخالف جمهور المتكلمين وأعتقد صحة كلام من خالفهم » (٢) .

و « ابن عربي » يستحق الحب والاعجاب وهو جدير بذلك الايثار الذي أثره به « الشعراني » وكتب في شأنه رسائل وكتبا ، وكان قد لخص كتابه « الفتوحات » المكية ، الذي يعد كنزا دينا وتحدث عنه الصوفية بأنه أجمع كتاب للتصوف لما احتوى عليه من دقائق التصوف وإشارات في كتاب سماه : « لواقح الأنوار القدسية » ثم عاد فاختصر هذا الكتاب في كتاب آخر سماه « الكبريت الأحمر » في بيان علوم الشيخ الأكبر ، وقال في مقدمته : طالعت من كتب

(١) الصوف الاسلامي والامام الشعراني ص ١٠٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر ج ٣ .

القوم ما لا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب « الفتوحات » لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة وبيان متنازع المجتهدين التي استنبطوا منها أقوالهم .

ولاعجاب « الشعراني » بأبن عربي كتب كتاب « اليواقيت والجواهر » الذي حاول أن يوفق فيه بين أقوال أهل الشريعة وأهل الحقيقة أو أقوال أهل الفكر وأقوال أهل الكشف مشيدا على كلام « ابن عربي » ، لأنه في رأيه أوسع الصوفية كلاما وأدقهم فهما وأكثرهم عبارة .

وقد دافع « الشعراني » عن « ابن عربي » في جميع مؤلفاته دفاعا مجيدا ، وأفرد للدفاع عنه كتابا خاصا عنوانه « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » وكتابا آخر ورد اسمه في قائمة تأليفه اسمه : القول المبين في الرد عن الشيخ محيي الدين (١) .

ولم يقف اعجاب « الشعراني » عند « ابن عربي » ولكنه يعجب بكل الشيوخ السابقين كما سبق الإشارة الى ذلك ، وقد ورد في « المناقب الكبرى » أن الأولياء كانوا يستزيرونه في رؤاه ويطلبون منه التوجه اليهم . وكان يلبي ذلك ويقوم بزيارات متعددة لهم ، ومن هؤلاء الذين طالبوه بزيارتهم « الامام الشافعي والدسوقي والبدوي وعمر بن الفارض » وغيرهم رضوان الله عليهم ، ولعجابه بصفة خاصة — بالبدوي لقب نفسه « بالأحمدي » و « زار قبره أكثر من مرة وأدخله في عداد كبار الصوفية ، واتصل به في رؤاه ، وفي إحدى هذه الرؤى وصف « أحمد البدوي » « الشعراني » بأنه من كبار المريدين للبدوي (٢) .

(١) حدية العارفين ، وللناقب الكبرى .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة أحمد البدوي وكتاب السيد أحمد البدوي

للدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٧ .

ثمار العلم والمعرفة :

كان لابد أن تؤتي هذه المجاهدات العلمية والروحية أكلها وتخرج شطاها ، وقد ظهر ذلك في تلك الإلهامات الغزيرة والنتائج العلمية الوافر الذي تزخر به المكتبات العربية والأجنبية ما بين مطبوع ومخطوط يشهد له بعلو الباع وحدة النظر وغزارة العلم وصفاء الروح ، فلقد أربت مؤلفاته على ثلاثمائة مؤلف وذكر كتاب « المناقب الكبرى » ما يزيد على مائة منها ، وأورد معجم المطبوعات العربية بعض هذه المؤلفات وأشار الى مضمونها ، وكذلك أشارت كتب « الأعلام » و « هدية العارفين » و « كشف الظنون » و « الحطط التوفيقية » و « معجم المؤلفين » و « شذرات الذهب » و « بروكلمان » وغيرها من المراجع الى بعض مؤلفاته ، ولا يوجد مرجع منها الا وهو يشئى عليه ثناء مستطابا ويذكر براعته الفاتقة ويعرض بعض نتاجه كنموذج صادق لما تحلت به عقليته من حركة صاخبة لا تقتصر ولما امتازت به هذه العقلية من تحرر لا يعرف الجمود .

تصوف الشعراني :

وتصوف الشعراني تصوف حقيقى مبنى على هدى وبصيرة ، ومشيد على أسس متينة من الكتاب والسنة ، فهما العماد الذى يبنى عليه كافة مجاهداته وأذواقه ، والمتتبع لحياته والمطلع على كتبه وتأليفه يدرك هذه الحقيقة الواضحة .

لقد برز « الشعراني » فى عصر غلب عليه ادعاء التصوف ، ووصموا دعوته بوصمة عار شوهت معالمة ورسمت صورة غير صادقة لهذا المنزع الروحى المشرق .

يبدو ذلك واضحا فى نعيه على ما وصل اليه شيوخ التصوف فى النصف الثانى من القرن العاشر ، والذى نرى صورة منهم فى كتابه « تنبيه المختارين » حيث أوضح لنا فيه أن أخلاق الصوفية

الحقيقيين متلازمة مع ما يدعو اليه الشرع الشريف ، وليس لهم خروج عنه ، وأن حقيقة الصوفى : عالم عمل بعلمه على وجه الاخلاص ، وأنه قد أدرك كثيرا من الشيوخ فى النصف الأول من هذا القرن الذين خلا تصوفهم من أى مظهر من مظاهر الابتداع أو الادعاء وقد قدرهم بنحو مائة شيخ ، كانوا جميعهم على قدم عظيمة فى الزهد والورع وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن استعمالها فى شئ مما نهاهم الله عنه ، وكان مريدوهم على قدمهم لم تسمح نفس واحد منهم بالسفر من أجل الدنيا ، كانوا جميعهم - شيوخا ومريدين على حد تعبيره - يستسقى بهم الغيث ، بعكس من جاء بعلمهم فى النصف الثانى من القرن العاشر الذين غلبت عليهم الدعوى ، قصارى جهد الواحد منهم تلقف بعض كلمات عن الفناء والبقاء أو غيرها من كلام الصوفية دون تحقق وذوق ومشاهدة ولا استشهاد عليها من كتاب أو سنة ، ثم « يلبس جيبته ويرخى عذبة ويطلق لحية » ويسبح فى الأرض وربما تكلف السفر الى بلاد الروم وأظهر الصمت والجوع ، فيطلب مرتبا أو مسموحا ويتوسل فى ذلك بالوزراء والأمراء ، ونتيجة ذلك كله سقوط ذلك الشخص وغيره ومن انتمى الى التصوف عامة من أعين المقصودين ، بعد أن كان الصوفية ملء العيون والأسماع ينتظر اليهم الحكام بعين الاكبار والاعجاب .

مبنى التصوف فى رأى « الشعرانى » - اذن - على العلم والعمل ، وتصوف بلا علم مبنى على غير أساس ، وقد قصده مرة شيخ له أتباع كثيرون ، وجعل يتحدث أمامه فى كلام القوم - فسأله « الشعرانى » عن شروط الوضوء فلم يجر جوابا ، فوبخه على جهله ، وأظهر له أنه مسئول عن كل هؤلاء الذين يسرون وراءه ، فهو راع وكل راع مسئول عن رعيته ، ومقتضى للرعاية أن يبين لهم أمور دينهم وحلود شرعهم ، فذلك هو الأساس الذى تدور عليه العبادة والمعرفة ، ولا معرفة بدون أساس .

تصوف « الشعرائى » تصوف بصير بأصول وقواعد لا يخرج عنها ، هذه الأصول والقواعد هى الكتاب والسنة ، وهما منار الشرع الحنيف ، ويظهر ذلك فى كل ما كتبه من وصايا وعهود ، وما ذكره فى مختلف كتبه التى يوضح فيها آراءه فى التصوف ، وما يجب أن يتحلى به المتصوف من آداب وأخلاق يرى أن الخروج عنها خروج عن آداب التصوف ، ولذلك نراه يلتزم فى تعبيراته بما يطابق الكتاب والسنة والاجماع . وينبه فى جميع مؤلفاته الى الخطأ الذى يدسه عليه خصومه والمفترون عليه ، ويتوسل الى القراء أن يصلحوا كل خطأ يجدونه من ذلك ، ونراه يلتمس التأويلات المختلفة المطابقة للكتاب والسنة لجميع أقوال الصوفية السابقين المشهود لهم بالدراية والمعرفة من أمثال « البسطامى وابن عربى وابن الفارض » وغيرهم ، فهو يوجه مثلاً قول « أبى يزيد البسطامى » : ملكى أعظم من ملكك ، الى معنى : طاعتك لى يارب باستجابة دعائى أعظم من طاعتى لك فى امتثال أمرى ، لأنك عظيم وأنا حقير وأنت سيد وأنا عبد .

ويوجه قول « الجنيد » : العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار الى دار . الى معنى : أنهم لما جاهدوا أنفسهم حتى ماتت شهواتهم حبيبت قلوبهم ، فلما جاءهم الموت المعروف فكأنهم لم يموتوا لسهولة طلوع روحهم ، اذ ليس لها علاقة بالدنيا يلتفتون اليها .. وهكذا ..

فهؤلاء الصوفية صادقون وعباراتهم التى قالوها إنما تمت بناء على ذوق عال أو شهود كلى لا تتعارض مع مفهوم الكتاب والسنة لأن التصوف فى حقيقته كذلك .

و « الشعرائى » كغيره من الصوفية يرى أن هناك شريعة وحقيقة أو ظاهراً وباطناً ، ولكن لا تناقض بينهما فالشريعة أصل الحقيقة ، أو الحقيقة لب الشريعة وجوهرها ، وفى ذلك يقول

« الشعراني » معرفا للتصوف في مقدمة « الطبقات الكبرى » : علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقذح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها . . لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية .

ويقصد « الشعراني » من علم التصوف الحقيقة التي يدركها المتصوف كثمرة من ثمار جهاده على ضوء الكتاب والسنة ، ومن خلال ما مر وما يمر من آثار « الشعراني » يمكن أن ندرك مدار التصوف في رأيه الذي لا يخرج إطلاقاً عن التحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الصفات المذمومة في ضوء تعاليم الشرع الحنيف .

مآخذ والرد عليها :

ولكن هناك بعض انطباعات تبدو في كتب « الشعراني » إذا نظرنا إليها نحن بمنظار العصر الذي نعيش فيه نجدها مجافية له ، ومن ثم فإن بعض المؤرخين يقولون عنه : انه كان يؤمن بالخرافات والاساطير ، ومن ذلك إيمانه الذي لا حد له بالكرامات ، وحديثه عن الجان حديثاً يبدو معه تشخيصهم له وتحديثهم إليه واختلاطهم به ، وقد اتخنوا من ذلك وسيلة للغرض من منزلته والخط من قدره .

والكرامة ليس لنا أن ننقضها فقد سبق الإشارة إلى ذلك ، وهي موضوع طال الجدل حوله وكثر الكلام فيه ، وليس هناك من قول زائد عليه إلا أنه أمر لا يصدق المعاند إلا بالمشاهدة ، فلينتظر حتى يمن الله عليه بمن يريه عياناً ما يذهب عن قلبه داء المكابرة والعناد .

أما الجان فالإيمان بوجودهم جزء من العقيدة الإسلامية ، وحديث « الشعرائى » عن محادثتهم له لا يدخل فى باب الاستغراب ، إذا أدركنا أن كثيرا من علماء الأرواح فى العصر الحديث ذكر امكانية الاتصال بالجان وتسخيرهم ، كما تحدث عن كثير من ألوان اذهم الذى يلحقون به البشر ، وهناك ألوان من الأمراض الحبيسة التى استعصى علاجها على أشهر الأطباء يرجع سببها الى عوارض خفية ينصح كثير منهم بالالتجاء الى وسائل أخرى أهمها البحث عن أحد الصادقين الذين أعطاهم الله قوة روحية خاصة فى القضاء على مثل هذه الأعراض (١) .

ولقد أثار هذه الثائرة ضد « الشعرائى » ما كان يتحدث به من أن الجن كانوا يحضرون حلقات دروسه وأنهم فى بعض الأحيان يعاينونه ويزعمون أولاده ، وقد دخل مرة فى حمام ففزل معه جان تمكن « الشعرائى » من الركوب فوقه حتى أزحق روحه ونجا الحمام ومن كان يدخله بعد ذلك من أذى هذا الجان المشاكس ، ومن أن الجن أرسلوا مع زعيم لهم جاءه على صورة كلب أصفر وقفز من نافذة غرفته أسئلة يجيب عنها ، فأجاب عنها فى كتاب عنوانه : كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان (٢) .

ولكن هل كان « الشعرائى » بدعا فى ذلك ؟
ان محادثة الجن ومخاطبته أمر ثابت بالأدلة النقلية الصحيحة ، وقد ثبت أن كثيرا من الصحابة رأوا الجن وحادثوهم كما حادثهم النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع كتاب عالم الجن والملائكة للأستاذ عبد الرازى نوفل وكتاب معجزات العلاج الروحى تأليف جودى وين .
(٢) الكتاب مطبوع فى مصر سنة ١٣٤٧هـ بطبعة حجازى نشر وتصحيح وتحقيق محمد عبد الله عبد الرازق فى ١٦٨ صفحة .

ألم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خاطب الجن وكلهم وأرسل اليهم ومنهم من آمن به ومنهم من كفر ؟
ألم يكونوا يستمعون القرآن وينصتون اليه ويقولون : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنّا به ولن نشتك ربنا أحدا ؟

ألم يقل القرآن بعد ذلك : وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ؟

ألم يرد في الأحاديث الصحيحة أن النبي وصحابته ورد عنهم أنهم خاطبوا الجن وشاهدوهم ، ومن بعد ذلك جاء كثير من التابعين وتابعي التابعين والفقهاء الذين لم ينكروا إمكان اتصال الناس بالجن والتحدث معهم ؟ وقد تناول ذلك الموضوع المرحوم طه عبد الباقي سرور في كتابه عن الشعراني وكان من رده على المعارضين قوله :

« بل ان الفقهاء قد وضعوا لصلات الجن بالانسان قواعد فقهية ، وصلت الى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الانسان والجان ، جاء في حاشية « ابن عابدين » كتاب النكاح : أن الحسن البصري أجاز التزوج بجنية دون العكس ، وجاء في كتاب « أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » أن الدجال أحد أبويه جنى » (١) .

ورؤية الانسان للجن ليست أمرا خارقا لأنها قد تحدث للانسان العادي ، وبعض الناس شاهدوا ذلك ، والقصص في ذلك متواترة ، وما زالت للحوادث الغريبة التي تقرأوها ونسمعها ويشاهدونها الكثير مما تصدق ما كان يحكيه « الشعراني » من أحاديث حول الجان ، وهو في حديثه فوق مستوى الشبهات ، وقد وصل

(١) التصوف الاسلامي والامام الشعراني ص ١٥٧ . وراجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (جن) .

بصفاء روحه الى ما يمكنه من اختراق الحجب ورؤية ما وراء المس،
فان لم يمكنه رؤية الجان من باب الأمور العامة التي تحدث لبعض
الناس أمكنه رؤيتهم من باب خرق العادة والكرامة التي يكرم الله
بها كثيرا من عباده الصالحين .

وهناك بعض قضايا أثرت حول بعض آرائه . من ذلك مثلا
ما يقال من أن « الشعرائى » كان له أثر فى إطفاء وقدة الحماسة
فى طلب العلم بتقييده الاطلاع والاختلاط ووقوفه فى وجه طلاقة
العقل فى تأويل النصوص المقدسة .

هذا ما يثار . وعلينا أولا أن نتبين روح العصر الذى كان
يعيش فيه « الشعرائى » ثم نحكم عليه من خلال ذلك ، وقد سبق
الإشارة الى أن الحكم على الأشخاص يجب أن يكون من خلال
الظروف والأحوال والعصور التي يعيشون فيها ، وقد أثار المرحوم
« العقاد » فى كتابه عبقرية عمر هذه القضية حين أوضح أنه يجب
أن نحكم على أبناء العصور الغابرة بمقاييس زمانهم ، فليسوا
مطالبين بأن يشبهونا ولا أن يعملوا ما يوافقنا ويرضينا ، فإذا
كانوا قسوة فى عصورهم فهم قسوة لكل جيل بعدهم ، ولا حاجة
بهم الى أن يشقوا حجاب الغيب ليقتلوا بنا .

هذه الملحوظة خفيت على كثير من النقاد فعابوا على
« الشعرائى » - كما عابوا على غيره من أئمة العصور الماضية -
ما عابوه ، وأثاروا ذلك التساؤل الذى أشرنا اليه . وعلينا بعد
ذلك مناقشته :

هل أطفأ « الشعرائى » وقدة الحماسة فى طلب العلم
حقا ؟

و « الشعرائى » فى الحقيقة لم يفعل ذلك ، ولكنه كان
معلما وأستاذا ، وهو صاحب مدرسة ظلت تؤدى رسالتها حتى
آخر نفس فى حياته ، واستمرت بعد موته تقوم بهذه الرسالة

فترة طويلة من الزمن . انه يذكر فى كتاب « لواقح الأنوار القدسية » أن من العهود المحمدية التى أخذت عليه مطالعة كتب العلم وتعليمه للناس ، وأن يكون طلب العلم على وجه الاخلاص ، فان ذلك أفضل من صلاة النافلة ، ويتصل بذلك كتابة الأحاديث الشريفة وإبلاغها الى الأماكن التى لا تبلغها ، وفى هذا اذاعة للعلم ونشره ، كما يرى أن من العهود عليه اكرام العلماء وتقديرهم ومكافأتهم .

الا أنه كان يدعو الى العمل بالعلم - وهذا أمر ضرورى فى نظره - واذا لم يتمكن العالم من العمل بعلمه فلا أقل من أن يدل عليه من يعمل به وهذا من أضعف الايمان ، وكان لا يفتأ يكرر هذه الدعوة فى مختلف مؤلفاته .

كان يحرص على أن يهذب الجوانب الروحية فى تلاميذه لأن ذلك طريق الى تحقيق الكمال فى الدنيا والآخرة ، وكان يوفر لهم فى ذلك الزاد الذى يصعد بهمهم ويقضى على فتورهم ، ولم يكن يجبر عليهم أن يسلكوا كل طريق موصل الى هذه الغاية بما فى ذلك الاطلاع على كافة العلوم ، الا أنه كان يخشى على الكثير منهم الانحراف فى المزالق التى توجد فى بعض الكتب من أمثال كتب « محيى الدين وعبد الحق بن سبعين » فحجر على هؤلاء أن يطلعوا عليها لبعده مراميها ولأنها لا تتناسب مع أفهامهم وعقولهم . وتلك سياسة تربوية حكيمة فليس من المعقول أن يسمح للمريد فى بدء سلوكه أن يقرأ ثمرة المعارف قبل أن يقرأ واجبات المريد وآداب الطريق وأمثال ذلك مما يتناسب مع أحوالهم فى أول مدارجهم .

وللغاية نفسها منعهم من الاختلاط بغيرهم حتى لا يفسد ذلك الجو الذى هبأه لهم فى طلب الكمال ، لقد كانت الحياة من حول الزاوية تموج بمختلف الفتن والمفاسد ، ومجاورو الزوايا الأخرى لم يكونوا يسلمون مما حشى به التصوف من خرافات

وأوهام . وهو له ذوق خاص في تربيته ، فكيف يسمح لهم بهدم ما يبنيه لهم من أمجاد ؟

أما وقوفه في وجه إطلاق عقولهم لتأويل النصوص المقدسة فقد أراد أن يخلق بذلك باب الفتنة التي توشك أن تطل برأسها من وراء هذا التأويل ، لقد كان « الشعرائي » يحترم احتراماً كلياً السلف الصالح ، ويرى السلامة كل السلامة في اتباعهم ، والشر كل الشر في الابتداع ، ولقد حاول في حياته أن يؤلف بين أشباه الآراء المتضاربة فكيف يسمح بالجديد الذي لا يسلم من الخطأ والانحراف ؟

إن التأويل والاجتهاد لا يتم إلا لمن كملت روحه وصفت نفسه وأطلعه الله على مكنون علمه فهذا هو الذي يتحمل مسئولية النظر في النصوص المقدسة ولا أعتقد أن « الشعرائي » وقف في طريق من اجتمعت فيه هذه الشروط .

يكفي « الشعرائي » فخراً أنه لم يقف في وجه الفلسفة — بمعنى أنه لم يتنكر لها ولم يهاجمها — ولكنه كان يناقش آراء الفلاسفة — وإن كان لا يدعو إلى تعلم علومهم — محتذياً في ذلك حذو أستاذه « محيي الدين بن عربي » والفلاسفة وإن كانت قد ضعفت في العصور الأخيرة وأصابها ما يشبه الشلل في القرن العاشر الذي أطل « الشعرائي » إلا أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له العقلية المنطلقة التي تتمتع بالحيوية والنشاط ، ولا تقف عند حدود القديم ، ولعل ذلك سر خصومة كثير من الفقهاء ومن المتصوفة أنفسهم له .

ويزداد فخره حين ندرك أنه قام بمجهود ضخم في تنقية الجو الصوفي والعقلية الصوفية مما لصق بها من كثير من الخرافات والأوهام ، ومما طبع فيها من كثير من أنماط السلوك التي شابته

التصوف وشوهدت معاملة ، والذي يفعل ذلك لا يقولون عنه : انه
ساهم فى الشلل الذى قيد الحياة العقلية بعد انتصار أهل السنة
على المشتغلين بالفلسفة والنظر العقلى .

ان « الشعرائى » يعده بعض المفكرين من أئمة الاجتهاد .
بل أطلقوا عليه مجدد القرن العاشر ، ومن كان كذلك لا يكون
مساها فى اطفاء وقدة الحماسة فى طلب العلم ، وما فعله فى
التوفيق بين المذاهب والكتب التى ألفها فى ذلك تكفل له - عن
جدارة - التمتع بهذا اللقب ، ومن الظلم البين أن نحمل « الشعرائى »
جريرة فتور الهمة العلمية فى قرن سرى فيه الجمود والتخلف الى
جميع المرافق الفنية والعلمية وقضى الاستعمار التركى على كثير من
وجوه النشاط المختلفة فى البلاد .

وقضية أخرى تثار ، تقول : ان « الشعرائى » كان متناقضا
فى آرائه ، فهو يدعو الى علم الظاهر ، ثم ينفر عنه . يدعو الى
الزهد ثم يحث على العمل . يدعو الى مجاهدة الأعداء ولكنه يدعو
الى محبة الأعداء .

والحقيقة أنه لا تناقض فى هذه الآراء .

ليس هناك تناقض بين علم الظاهر وعلم الباطن . هما وجهان
لحقيقة واحدة .

ولقد كان « الشعرائى » ينكر التصوف مع الجهل ، دعا الى
طلب العلم والفناء فيه ، ولكنه الى جانب ذلك دعا الى عدم الوقوف
عندما يحصله العالم من علمه ، ان زينة العلم العمل ، والعمل هو
الثمرة المطلوبة للعلم والا كان العلم وبالا على صاحبه :

فعالم بعلمه لم يعمل

معذب قبل عباد الرحمن

فهو لا ينفر من العلم الظاهر ولكنه يدعو الى أن يكون هذا العلم وسيلة الى ما يجب أن يستنبطه الانسان من وراء هذا العلم من أسرار لا تحصل الا عن طريق الوهب والالهام بعد أن يعمل بعلمه فيورثه الله علم مالم يعلم ، والعلم في نظر « الشعرائى » ثلاثة أنواع :

علم العقل وطريقه التأمل والنظر والاطلاع ، وعلم الأحوال وطريقه الذوق ، وعلم الأسرار وطريقه الالهام . وكل علم من هذه العلوم له علامة .

وعلمة علم العقل كلما بسطت عبارته حسن وفهم معناه وعذب عند السامع الفهم .

وعلمة علم الأحوال ان كان مكتسباً أن يدخل فى ميزان العقول ، وان كان موهوباً لا تقبله العقول غالباً .

وعلم الأسرار علامته أنه ان أخذته العبارة يسمح ويبعد دركه عن الأفهام ، وربما رمى صاحبه بالكفر والمروق من الدين كما ورد عن على بن الحسين رضى الله عنهما :

يارب جوهر علم لو أبوح به
لقل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال المسلمين دمي

يرون أقبح ما يأتونه حسناً (١)

ولا يشترط فى علم الأسرار التعلم ولكنه يشترط فيه مجاهدة النفس ووساوس الشيطان تحت اشراف شيخ بصير عالم خبير بمفاوز الطريق وعقباتها وكيفية التغلب عليها ، وقد يكون

(١) البواقيت والجوامع ص ٢١ .

هذا الشيخ دون المريد في العلوم الظاهرة ، ولكنه لا بد أن يفوقه في العلم بالله والعلم بمواطن الآخرة .

فهو - إذن - لا يتفر من العلم الظاهر ولكنه يدعو الى تحقيق الغاية المثلى منه ، والغاية المثلى هي احياء الروح الحياة التي لا موت للقلب بعدها على نحو ما كان يشير به دائما صفيه وخليله « البهلول » في لقاءاته المتعددة .

الا أن هناك ملاحظة تبدو للعيان هي أن العلم في بعض الأحيان يقف في طريق العالم عن الوصول الى الغاية الروحية المطلوبة متى اغتر العالم بعلمه ووقف عنده ، وتصور أنه وصل الى نهاية الكمال . فاغتراره حين ذلك هو الذي يضع حجابا كثيفا يحول بينه وبين الرؤية الحقيقية المبصرة ، فالعلم بحر لا ساحل له ، وحقائق المعرفة لا يمكن لكائن أن يحيط بها مهما أوفى على الغاية في فنه ووصل الى النهاية في علمه ، والرجل عالم مازال يطلب العلم فمتى اعتقده أنه علم فقد جهل ، ومن أجل ذلك كان التواضع ميزة في العالم أكمل منها في غيره ، لأن تواضعه عن معرفة كاملة وتحقق تام بالعجز الذي يرفع من شأنه ويعلى من قدره . وعصر « الشعرائى » كان غاصا بعلماء تصوروا أنهم أربوا على الغاية وجاوزوا قدر التعلم واعتقدوا أنهم أدركوا كل حقائقه ، وهؤلاء هم الذين وجه خطابه اليهم محذرا لهم من عاقبة هذا الغرور وموجها اياهم الى أمثل الطرق للاستفادة من العلم والانتفاع بثماره ، ومبيننا لهم أن ما خفى عليهم من العلوم أجل وأروع مما عرفوه .

وفي دعوته الى الزهد حث على العمل .

فليس من لوازم الزهد القعود عن العمل ، فالزهد متى كان عن قنوة كان أدعى الى الكمال ، وزهد الضعفاء زهد قاصر لا يسمى

زهدا ، ولكن حقيقة الزهد أن يكون الإنسان مالكا لما يزهد فيه ،
ولا معنى لأن يزهد فيما لا يملك .

ومعنى الزهد - قبل أن يصبح الشيء فى يده - هل اختبار
نفسه بعد أن امتلكه ؟ هل استطاع أن يعف عنه ؟

إن الزهد قبل القدرة والامتلاك زهد مزعوم كثيرا ما تكذب
صاحبه شواهد الامتحان .

أما الأعداء الذين يدعو الشعراني الى محاربتهم فهم أعداء
الدين الذين تجب محاربتهم بنص الشريعة ومقتضى أوامر الإسلام ،
والأعداء الذين يدعو الى محبتهم فأولئك الذين يدخلون فى نطاق
قوله تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . أولئك الذين
تجمعنا بهم أوامر دين أو قرابة أو جوار أو مواطنة . ويحدث
بينهم تضامن وتظالم يدعو الى الانتصار « ولن انتصر بعد ظلمه
فأولئك ما عليهم من سبيل » هؤلاء هم الذين يدعو « الشعراني »
الى محبتهم استجابة لدعوة الأنبياء والقرآن الى ذلك « ولا تستوى
الحسنة ولا السيئة » ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذى بينك وبينه
عداوة كأنه ولى حميم » واذن فلا تناقض بين دعوتى المحاربة
والمحبة عند « الشعراني » ، كما أنه لا يوجد تناقض فى أى جانب
قد يفهم منه ذلك ، اذا ما أمكننا أن نتفهم الظروف التى أحاطت
بالرأيين أو الدعوتين أو القولين .

فاذا ما عرفنا ذلك وجب علينا أن نقدم بعض أذواق
« الشعراني » وآرائه التى استفاد منها المريئون وتعلم منها
العالمون :

أذواق وآراء :

الشيخ فى نظر الشعراني : ورد فى كتاب «آداب العبودية»
لا بد للمريد من اتخاذ شيخ يكون له قدوة ، ويسترشده به فى

طريقه ويتلقن عنه الذكر ، ولكثرة المسعين في هذا الباب في زمانه وضع لهذا الشيخ شروطا صاغها في أسلوب نير ، وأيدها بما يتلاءم معها من قصص وآثار . ومن هذه الشروط .

— ألا يدخل في طريق القوم الا بعد تضلعه في علوم الشريعة والحديث ، والا فيخاف عليه الزندقة والابتداع وتعليل ذلك أنه كثيرا ما يفتح أمام السالك أمور منها : لا فاعل الا الله ، ولا ملك الا الله ، ولا موجود الا الله ، وهذا وإن كان حقا الا ان الميزان الشرعي يرن الأمور ويوجه الأحكام ويقر النظم فلا يخرج السالك عن حدود الشرع رغم شهوده ذلك (١) .

— وعليه أيضا أن يقرأ شيئا من عقائد أهل السنة قبل دخوله الطريق ليصح اعتقاده مما يتوهمه البعض من التشبيهية والحسبية (٢) ، ولا يطلع الا على كلام الكمل من الأولياء الذين لا ينقض ظاهرهم باطنهم (٣) .

وعليه أن يطالب نفسه بحقوق الخلق ولا يطالب الخلق بحقوق نفسه (٤) .

— ومن شأن الشيخ التواضع وعلم التميز عن غيره من الخلق بخلق غريب يعرف به الا أن يكون مغلوبا (٥) .

— ولا بد للشيخ من أن ينزل الناس منازلهم ولا يتبع التقليد في ذلك ، بل يكون يقظا ، فأعظم الناس حرمة وأحقهم بالتعظيم أكثرهم اتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم (٦) .

(١) البحر المورود ص ١٢٢ .

(٢) البحر المورود ج ١ ص ١٢٣ .

(٣) ص ١٢٤ . (٤) ١٢٥ . (٥) ١٢٧ . (٦) ص ١٢٩ .

— وعليه أن يتحمل الأذى عنهم ومن جميع الخلق ويشهد ذلك من رحمة الله به ونعمته عليه حتى لا يركن الى سواء لا سيما في ابتداء أمر الفقير ، ويستشهد « الشعراني » في ذلك بقول « الشاذلي » رضى الله عنه : جرت عادة الحق سبحانه وتعالى مع أنبيائه وأصفياؤه أن يسלט عليهم الأذى في مبتدأ أمرهم ثم تكون الدولة لهم آخر (١) .

— ومن شأنه أنه اذا أمر بشيء من الأدب أو نهى عنه ولم يتمثل بالمأمور أو المنهى ذلك لا يتكدر عليه اقتداء بالانبياء الذين ورد في حقهم « وما على الرسول الا البلاغ » . وشهود الشعراني في ذلك : قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ، فما دام الحق تعالى يخلق المعصية للعبد لا يمكنه أن يتوب ، فاذا ترك الحق تعالى خلق المعصية للعبد تاب العبد ضرورة ، ولذلك كانت رحمة الله تعالى يوم القيامة اذا استوفى أهل الحق حقوقهم لعلمه تعالى بأنه هو الذى أنطق السنتهم بما قالوه ، وخلق فى نفوسهم ما تخیلوه ، فسبحانه من حكم عدل لطيف خبير يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل (٢) .

— ومن شروطه لا يرى لنفسه ضرا ولا نفعا لأحد دون الله تعالى ، ولا يشهد لنفسه فضلا فى هدايتهم وآلا يفتر بالشهرة وبعده الصيت فيترك العمل اتكالا على ذلك كما يحدث من بعض المعتزين من الشيوخ (٣) .

— وعليه أن يعتنه فى ارشاده على ما يلقى الحق فى قلبه فيعطى كل شخص من مريديه ما يقبله استعدادة (٤) .

(١) ص ١٣٠ .

(٢) ص ١٢٧ . (٣) ص ١٤١ . (٤) ص ١٥٠ .

- وعليه أن يحذر من الألفاظ التي يفيد ظاهرها الدعوى وتزكية النفس مثل : نحن ما بقينا ناسا الا من حين اجتماعنا بالشيخ الفلاني ، أو مثل : الكشف انما يقع للناقصين ، والكاملون لا كشف لهم (١) .

- ومن آداب الشيخ ألا يظهر تكلفا زائدا على حالته التي يكون عليها منفردا اذا طرقه زائر ، ويستشبهه على ذلك بقول « الفضيل بن عياض » : لو دخل على شخص وسويت لحيته بيدي لدخوله لخفت أن أكتب عند الله من المنافقين (٢) .

- ومن شروطه أن ينظر في مصالحي إخوانه ويأمرهم بالحرفة وعمل اليد ولا يعطلهم بأخذهم معه في الولاثم ولو طلبوا منه ذلك لأنهم قاصرون ، وكل ساعة تمر على العبد وهو في حرفته التي يعود منها نفع عليه وعلى عياله أفضل من حضور ألف وليمة معه لا يتعين عليه حضورها ، فالعارف من يسلك الناس وهم في حرفهم ، ولا يزال يحث على ذلك وعلى الورع عن الأكل من مال الغير ما أمكن (٣) .

- ومن شروطه أن يرفع همته عما بأيدي أصغابته من الدنيا ويخفي حاجته عنهم ما أمكن إثارا لتجمل المشقة عنهم ، واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وليحذر التعريض بحاجته الى بعض الأمور ، وخاصة بحضرة الأغنياء . أما اذا كانت الحاجة للاخوان فلا بأس بذلك . و « الشعراني » يمتاز بالطرافة في أسلوبه حين يتحدث عن ذلك ، ويستدل بما يجعل التأثير يأخذ طريقه الى القلوب بواسطة الأمثلة ، فهو يقول : تناظر كلب السوق و كلب الصيد ، فقال كلب السوق

(١) ص ١٥٤ . (٢) ص ١٥٦ .

(٣) ص ١٦٠ .

لكلب الصيد : مالك لا تقنع مثل بكسر المزابل وتستريح من
مخالطة الملوك والأمراء ، واني أراهم يعزونك ويكرمونك ،
ويهيئونني ويطردونني ٩

فقال كلب الصيد : أنا وان خالطتهم فاني معزوز مكروم
لأني انما اصطاد لغيري وأنت لما كنت تصطاد لنفسك أهنت
وطردت وحقرت (١) .

و « الشعراني » بارع في ضرب الأمثال التي تعينه على نفاذ
مرامي كلامه الى العقول والقلوب ، ومن نماذج ذلك غير ما تقدم
قوله عن شيوخ زمانه :

وأعلم أن مثال من يفتح باب المشيخة الآن كالفقيه الذي فتح
الكتاب قبيل الغروب وقعد ينتظر الأطفال ليجيبوه فيعلمهم ، لأننا
الآن في دهليز القيامة ، وقد خرج كل شيء عن موضوعه ، ووسد
كل شيء الى غير أهله لقرب الساعة ، كما يشاهد ذلك من كشف
الله تعالى عن بصيرته ، وانظر الى المركب اذا قربت البر بعد السفر
كيف تطلق حبالها ورواجعها ويطوى قلعها ، وكذلك الحجاج اذا
رجعوا من سفرهم وأشرفوا على أوطانهم ومنحط رجالهم كيف تشتتت
جمع قطورهم وينحل جميع نظامهم ، فطالب المشيخة الآن كمن
يريد أن يجمع شمل الحجاج ويقطر قطرهم كما كانوا في ابتداء
سفرهم ، فيستخف الناس عقله ولا يساعده على ذلك أحد
ولا يجيبه . . « (٢) .

و « الشعراني » عقد لأداب الشيخ فصولا طوالا في مختلف
كتبه ، لأنه رأى ما يترتب عليهم من آثار ، فهم القدوة ، يصلح

(١) آداب العبودية ج ٢ ص ١٢ .

(٢) ص ٦٢ .

يصلحهم فيريدون ويفسدون بفسادهم ، ولأنه رأى في عصره من الشيوخ من لا يهتمون بواجبهم ولم يؤدوا رسالتهم وكان وجودهم مدعاة للفساد لا للإصلاح ، فوجد أن من واجبه أن ينصح هؤلاء حتى ينجو التصوف مما لحق به على أيديهم ، وحتى يعود له شبابه ونضرتة ، وحتى يسلم الدين من عواديهم .

ولئن كان قد اعتنى بالشيخ فقد اعتنى أيضا بالمريد ورسم له طريقه الواضحة التي إذا سار عليها صلح أمره وتم رشدته ، ووضح له آدابا معينة عليه أن يتبعها ويتحلى بها من زهد وورع وخشية وملازمة للطاعة ومحافظة على الورد وخلوة وصمت وسهر وسياحة وعزلة وغير ذلك مما نجده مفصلا في مواضعه المتعددة من كتبه الكثيرة .

• وهله بعض آراء « للشعراني » •

يرى « الشعراني » ضرورة العمل ، ويقول في ذلك : ليس في هذا الذي قررناه ترك للأمر بالعمل لأن ذلك لا يصح ، لأن قولنا للعبد : لا تصل - مثلا - لا يصح امتثاله إلا أن سبق في علم الله تعالى أنه لا يصلي ، ونؤاخذ بأمرنا بالمنكر ، والأمر بالعمل باق على وجوبه في كل وقت ، وكل شيء برز بعد الأمر أو النهي من الموافقة أو المخالفة وهو السابق في علم الله تعالى فإن العبد لا يعرف ما سبق له في علم الله تعالى إلا بعد وقوعه (١) .

يرى أن الزهد لا ينافي مقامه التجارة والبيع والسفر في أمور الدنيا الظاهرة ، لأن دنيا الزاهدين لآخرتهم وآخرتهم لربهم ، وعلى ذلك يحمل أصحاب التجارات والأموال من الصحابة والسلف

(١) ص ١٠٦ . من المرجع السابق .

الصالح ، واليه الاشارة بقوله تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » ولا ينافى هذا قوله تعالى فى حقهم فى آية أخرى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » لأن المراد منكم من يريد الدنيا أى للآخرة بذلا وإيثارا ، ومعكم من يريد الآخرة أى لفضل الجهاد لا غيره ولم يطلب غنيمة ولم يلتفت إليها ، فمن الصحابة الفاضل والأفضل ، والكامل والاكمل ، فاحذر أن تظن غير ذلك (١) . وقد أورد عن شيخه « الخواص » حين سألته عن الاحتراف بقوله : من لا عمل له لا أجر له ، وأوضح ذلك القول بأن الأعمال والاكتساب مديرة للفلك وموجبة للأثر بحسب نيات من ظهر عنهم ، وكل من كان فعله أتقن وأكمل كان فعله أسرع دورانا للفلك وكان تضاعف الحسنات أكثر ، ومن كان تاركا للأسباب أصلا دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شيء من الأملاد لكونه لم يعمل شيئا (٢) . وهذا فهم دقيق .

يرى أن « العلم » الظاهرى ضرورة لتعمير الحياة - بل يرى أنه وسيلة للتقرب الى الله عند أهل الحق ، ويقول فى ذلك : ان أهل الحق يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعى لها دلالة وطريق الى العلم بالله تعالى .

ويرد على من يرى فى دراسة هذه العلوم حجباً عن الله فإن الذى يشهد ذلك انما هو محجوب عن موضع الدلالة فيها عن الحق . فعلم أن جميع العلوم التى تحجب أكثر الناس هى عند أهل الله لا حجاب فيها (٣) . وهذا ذوق عال فى الفهم وإدراك لم يسبق إليه .

(١) آداب المبودية ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) درر القواص ص ٣١ .

(٣) آداب المبودية ج ١ ص ٩٦ .

الا أنه يرى الى جانب ذلك البدء فى تلقى العلوم بالأهم فالهمم ، والأهم هو الذى يسأل عن تضييعه يوم القيامة ، وليس للعلم نهاية فى رأيه ، ولم يبطخ غايته . بزحف الترك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة . كما فهم البعض — ولكنه رأى أن العلم ابتداء من ذلك العام قل مكانه فى القلوب فصارت تمجده ولا يجد له محلا فيها لانشغالها بالبلاء النازل عليها . وحقا ذلك فالعلم محتاج الى قلب فارغ وجنان ثابت واستقرار فى الحياة ، وقد بدأ فعلا نور العلم يخبو بدخول العثمانيين ، وشأنه يضمحل شيئا فشيئا حتى أذن الله بفجر النهضة للحديثة التى أنقذت البلاد من هاوية الجهل والفساد .

وللشعرانى رأى فى « الادخار » استفتى فيه شيخه الخواص الذى كان يحرص على استفتائه دائما ، وقد أجابه بأن المبحر ان كان على بصيرة بأن ما يدخره قوت له وحده أو قوت له ولعياله الذين تحت رعايته فالادخار لا بأس به ، أو اذا كان يوقن بأن ما يدخره ليس له أو كان على غير يقين بذلك فادخاره حينئذ راجع الى طبيعة الشح والامساك المركبة فى بعض النفوس . الا أن « الشعرانى » فى سلوكه كان يحقق الغاية المثل من الادخار .

فالادخار يهدف الى أن يجد الانسان فى وقت الشدة ما يعينه على مواجهة الحياة ، فكان يدعو الى التصدق ويتصدق بما فاض عن حاجته ، ولا يدخر من ذلك شيئا الا لضرورة شرعية ، كان يطعم الطعام لكل وارده ولا ييخل به ، كان يمد يده بالمساعدة لكل محتاج ، وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليهم هو أقصى ما يهدف اليه الادخار .

والادخار موضوع اعتنى الصوفية بدراسته لا تباليه بالنفس البشرية التى عنوا باصلاحها وللدخول ضمن رسالتهم التى وقفوا

جهدهم على أدائها- ، وهم يرون دائما وجوب مخالفة النفس فان كانت تستكين الى الادخار عوقبت بتركه والا فلا تخاضعة ثمة ، وهذا رأى الامام الغزالي الذى يقول : عمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب- فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن-صواب- القوى ترك الادخار ، أما المعين فلا يخرج من التوكل ادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكيننا لقلوبهم ، والادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، والتوكل اذا صح لا يضر معه الادخار (١) .

وكان « الشعرائى » فى أول أمره لا يستريح له بال حتى ينفق آخر درهم معه قبل أن يأوى الى بيته ، ولكنه عاد بعد ذلك ورأى ما يوجب أن يستبقى معه بعض المال ويدخر للمجاورين الذين يعيشون تحت ظل زاويته ، ولم يكن ادخاره هذا ينافى توكله على الله وزهده فيما فى أيدي الناس وإيمانه الكامل بالقضاء والقدر ووثوقه فى كلاً الله ورعايته فى الضيق والشدّة .

ويدخل فى باب الادخار دعوته الى الاقتصاد فى النفقة وعدم الاسراف فيها ، ويبدو ذلك فى العهد الذى أخذ عليه ويشير اليه بقوله : لا توسع على أنفسنا وعبائنا وخدمنا كل الوسع بل تقتصد فى ذلك عملا بقوله تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - ويعلق على ذلك بقوله : فمن داوم التوسعة على نفسه وعبئاله فقد فتح - بذلك - باب ازدياد النعم والجهل بمقتارها ، فان النعمة اذا كثر تناولها على أهل بيت ازدروها وتهاونوا بها ، وهذا فهم جليل لعدم الاسراف قل من يتنبه له ، فان عامة الداعين الى الادخار يفهمون منه المعنى الشائع الذى يدور حول مواجهة الحياة وأعبائها ، ولا يخفى تعارض ذلك مع قوة ثقة الصوفية بالله وتوكلهم عليه .

(١) راجع احياء علوم الدين للغزالي ص ٢٥٤٢ طبعة المصمم كتاب ١٤ :

ويرى « الشعراني » أن « خرقه التصوف » ليست مظهرا بقدر ما هي اشارة الى التخلق بالخلق الكامل الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا الفهم لبس « الخواص » الخرقه من شيخه « ابراهيم المتبولى » ولبسها « محيى الدين بن العربى » من الخضر عليه السلام ، ولبسها « الشعراني » من شيوخه « جلال الدين السيوطى » - ويبدو أن ذلك كان رؤيا منامية - و « زكريا الأنصارى » رضى الله عنهما .

والخرقة هي وسام الصوفية التى يختلف مظهرها من شيخ الى شيخ ومن طريقة الى أخرى ، ولكنها تهدف جميعها الى معنى واحد هو التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلّى عن الأخلاق الذميمة ، والصوفية يرجعون نسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم ويتبركون بذلك .

وما أشبه الصوفية فى تقليد مريديهم النابهن وسام التصوف الذى يظهر فى الخرقه بتقليد رؤساء الدول والزعماء النابهن من علماء الدولة وطلابها النياشين والأوسمة اعترافا لهم بالتفوق والنجاح . ويقول « الشعراني » فى ذلك : لا تختص الخرقه بالطاقيه وإنما المراد بها الأثر ولو قميصا أو رداء أو جبة أو عمامة ، وفى لباسها للمريد أو خلعهها عليه اشارة الى خلج العلوم والمعارف مع الأثر على المريد وامداده بهما ظاهرا وباطنا .

ولقد ظل « الشعراني » محافظا على تقاليد الخرقه التى ورثها عن شيوخه من أهل الطريق وكان يمتاز بشمول نظرتة التى وسعت طرقا متعددة اعترافا منه باتحاد الهدف من هذه الطرق واتحاد المنبع لها ، ولذلك فقد كان يجمع فى ذكره بين أذكار طرق مختلفة كالرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهامية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والمدينية والفردوسية ، ويرجع

ذلك الى مصاحبته شيوخا متعددين ينتسبون الى هذه الطرق ، وكل منهم أباح له أن يهدى المريدين على طريقته ويلقنهم العهد عليها ولما ركب في طبعه من حب العمل على توحيد الصفوف وجد من نفسه الرغبة فى التأليف بين هذه الطرق مادام المنبع واحدا والهدف واحدا . فما من طريقة من هذه الطرق الا ولها سند متصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يرى من نفسه القدرة والأهلية لان يرشد أى فقير وينصحه كائنا من كان هذا الفقير ، بغض النظر عن انتسابه لأى طريقة من الطرق لأن الاذن بالارشاد مهيا له من كافة الطرق المتعارفة فى عهده .

ولداعية التأليف بين هذه الطرق أسس الطريقة «الشعراوية»
التي نسبت اليه .

● أضواء على بعض مؤلفاته

اليواقيت والجواهر

كان هم « الشعراني » أن يوفق بين الآراء المتشعبة والأفكار المختلفة والمذاهب المتباينة وحاول بكل جهده أن يسد هذه الفرجة الواسعة التي رأبت صدع المسلمين وفتتت وحدتهم ، وأوجدت بينهم روح التضامن والتطاحن ، ولذلك عكف على تأليف الكتب التي توحد بين آراء الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والصوفيين ، ووضع في ذلك مؤلفات مختلفة من بينها كتاب « اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكاابر » .

وبين في مقدمة الكتاب سبب تأليفه قائلا : هذا كتاب ألفته في العقائد حاولت فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتي . وذلك لأن المدار في العقائد على هاتين الطائفتين ، اذ الخلق كلهم قسمان : إما أهل نظر واستدلال ، وإما أهل كشف وعيان ، وقد ألف كل من الطائفتين كتابا لأهل دائرته فربما ظن من لا غوص له في الشريعة أن كلام إحدى الدائرتين مخالف للأخرى فقصدت في هذا الكتاب بيان وجه الجمع بينهما ، ليتايد كلام أهل كل دائرة بالأخرى ، وهذا أمر لم أر أحدا سبقني إليه فرحم الله تعالى من عذرني في العجز عن الوفاء بما حاولته والتزمته فان منازع الكلام دقيقة جدا » .

ويحتوى الكتاب على واحد وسبعين مبحثا تدور حول العقائد التي شغلت بال المتكلمين والصوفية ، وقد اختار « الشعراني »

الشيخ الأكبر « محيي الدين بن العربي » ممثلا للصوفية في بيان عقائدهم في هذه المباحث ، وأوضح سبب اختياره له في مقدمة الكتاب بأنه أوسع الصوفية عبارة ، ولا غرابة في ذلك فقد أربت مؤلفاته على أربعمائة وخمسين مؤلفا ، واعننى « الشعراني » من بين هذه المؤلفات بكتاب « الفتوحات المكية » خاصة لأنه أجمع كتاب في مؤلفاته يصور عقيدته .

وقد قدم لكتابه بتوضيح لعقيدته وبدفاع عن « محيي الدين بن العربي » موضحا فيه نبذة عن أحواله ، ومفسرا لبعض كلمات موهمة نسبت إليه . من ذلك مثلا : —

ينكرون على الشيخ قوله : « فيحمدنى وأحمده ، ويعبدنى وأعبده » ، ويجيب « الشعراني » على فرض صحة ورود ذلك عنه : أن معنى يحمدنى : يشكرنى إذا أطلعته كما فى قوله تعالى : اذكرونى أذكركم ، وأما قوله : فيعبدنى وأعبده أى يطيعنى بأجابة دعائى كما فى قوله تعالى : لا تعبدوا الشيطان أى لا تطيعوه ، والا فليس أحد يعبد الشيطان كما يعبد الله .

ثم يعتذر « الشعراني » فى كتابه عن الصوفية فى تكلمهم بالعبارات المغلفة على غيرهم قائلا : ان أصل دليل القوم فى رمزهم الأمور ما روى فى بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأبى بكر : أتدرى يوم يوم ؟ فقال أبو بكر : نعم يا رسول الله ، لقد سألتنى عن يوم المقادير ، وقال له يوما : يا أبا بكر ، أتدرى ما أريد أن أقول : فقال : نعم ، هو ذاك . وهذا دليل نقل على استحباب استعمال الرمز فى العبارة ، وهناك سبب آخر ذكره « ابن عربى » فى « الفتوحات » هو أن الصوفية لم يضعوا للإشارات التى اصطالحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم ، فأنهم يعلمون الحق الصريح لذلك ، وإنما وضعوها منعا للدخيل بينهم حتى لا يعرف

ما هم فيه شفقة عليه أن يسمع شيئاً لم يصل اليه فكره فينكره على أهل الله ، فيعاقب على حرمانه فلا يناله بعد ذلك أبداً . ويعقب « الشعراوى » بأن كل طائفة لها اصطلاح فيما بينها لا يعرف الا بالتعلم والتلقين ، فيما عدا طائفة الصوفية فان اصطلاحاتهم التى وضعوها يكن أن يدركها المريد الصادق من غير تعلم ، أما المريد الكاذب فلا يمكن له معرفتها . هذا وما زال علماء الظاهر يتوقفون فى معرفة كلام الصوفية بدليل أن الامام « أحمد بن حنبل » حضر يوماً مجلس « الجنيد » ف قيل له : ما فهمته من كلامه ؟ فقال : لا أدري ، ولكنى أجده لكلامه صولة فى القلب ظاهرة تدل على عمل فى الباطن ، وإخلاص فى الضمير ، وليس كلامه كلام مبطل .

ثم عقد فصلاً أوضح فيه القواعد والضوابط التى يحتاج اليها من يريد التبحر فى علم الكلام ، وشيد هذه القواعد بما استفاده من كلام « ابن عربى » - مثل : كلام الله تعالى هو المصدر الأساسى لاستمداد العقيدة من غير تأويل ولا عدول الى أدلة أخرى من العقل مجردة عن الشرع ، فان القرآن دليل قطعى سمعى عقلى على معرفة الله سبحانه وتعالى ، ودعا العقلاء الى الاشتغال بالعلوم الشرعية فان فيها غنية عن علم الكلام لقيام الدين بها ، ولو أن الانسان مات وهو لم يعرف الكلام على الجوهر والعرض لم يسأله الله تعالى يوم القيامة عن ذلك .

وعلى الانسان عند الضرورة وجوب تجديد النظر فى الرد على منكرى الشرع ، ولا يلجأ الى الاستدلال بالأدلة الشرعية لأن هؤلاء ينكرونها ، ويوضح فى هذا الباب أن عين الشريعة هى عين الحقيقة ولا تعارض بينهما ، وموازن الأولياء المكملين لا تخطئ « الشريعة أبداً فهم محفوظون من مخالفة الشريعة » .

ثم بدأ بعد ذلك فى توضيح مباحثه فى الكتاب ، فيذكر رأى المتكلمين ، ويعقبه برأى الصوفية موضحاً العلاقة بين الرايين

ويبدو ذلك مثلاً في المبحث الأول وعنوانه : بيان أن الله تعالى واحد
أحد منفرد : ...

« وجمهور المتكلمين يقولون : والواحد هو الذى لا ينقسم
ولا يشبه ولا يكون لوجوده ابتداء ولا انتهاء ، اذ لو كان له ابتداء
وانتهاء لكان حادثاً والحادث يحتاج الى محدث ، وتعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً »

كما يقولون : الآحاد أربعة ، الأول أحد لا يتحيز ولا ينقسم
ولا يفتقر الى محل وهو البارى عز وجل ، والثاني أحد يتحيز وينقسم
ويفتقر الى محل وهو الجسم ، والثالث أحد يتحيز ولا ينقسم ويفتقر
الى محل وهو الجوهر ، والرابع أحد لا يتحيز ولا ينقسم ويفتقر الى
محل وهو العرض ...

وهذا لا يتنافى مع رأى الصوفية الذى يشير اليه بقول «محيى
الدين بن عربى» : أعلم أن الله تعالى واحد باجماع ، ومقام الواحد
تعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو فى شيء ، اذ الحقائق لا تتغير عن
ذواتها فإنها لو تغيرت لتغير الواحد فى نفسه ، وتغير الواحد تعالى
فى نفسه وتغير الحقائق مجال ، ويمضى باسقاط الكلام فى هذا المبحث ،
موضحاً كل ما يتعلق بالأحادية ومستلزماتها عن طريق اثاره السؤال
والجواب ، الذى هو أخص أسلوبه فى هذا الكتاب . كان يقول :
فان قلت: فهل كون الحق تعالى لم يولد من خصائصه أم يشاركه فى
ذلك خلقه ؟ فالجواب هو كما قاله «ابن عربى» ان علم الولادة ليس
خاصاً بالحق تعالى فان آدم لم يولد ، لكن لما كانت الولادة معلومة
عند السائلين خوطبوا بما هو معلوم عندهم ، ونزه الحق نفسه عن
مجانسة خلقه ... وهكذا . حتى ينتهى من مبحث الى آخر .

فهذا مبحث فى حدوث العالم ودليله فى رأى المتكلمين التغير
والاستحالة وكل متغير حادث ، ودليله من كلام الصوفية قول محيى

الدين ابن عربي ، في مقدمة « الفتوحات » وأما من حيث ظهوره
للخلق فهو حادث بإجماع فمن قال انه قديم مطلقاً خطأ •

وهذا مبحث في وجوب معرفة الله تعالى على كل عبد بقدر وسعه

وهذا مبحث في وجوب اعتقاد أن حقيقته تعالى مخالفة لساائر
الحقائق وأنها ليست معلومة في الدنيا لأحد •

وهذا مبحث في وجوب اعتقاد أنه تعالى أحدث العالم كله من
غير حاجة اليه ولا موجب أوجب ذلك عليه •

الى آخر هذه المباحث المتعددة التي يفصل فيها الكلام ويحاول
أن يوفق فيها بين رأى المتكلمين والصوفية ، ويمحو الاختلاف بينهم ،
ومن ذلك ما يستشهد به في ختام المبحث الرابع من كلام الأستاذ
« أبى اسحاق الاسفرايينى » فى قوله : جميع ما قاله المتكلمون فى
التوحيد قد جمعه أهل الحق فى كلمتين : الأولى اعتقاد أن كل ما
تصور فى الأوهام فإله بخلافه ، الثانية اعتقاد أن ذاته تعالى
ليست مشبهة بذات ولا معطلة عن الصفات ، وقد أكد ذلك قوله
تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوا أحد » •

وينتقل الكتاب من مباحث الألوهية الى مباحث النبوة ،
فيتحدث عن معجزات الأنبياء والرسل ، والفرق بينها وبين السحر
ونحوه كالشعبانة والكهانة ، وبيان استحالة المعجزة على يد الكاذب
كالمسيح النجاشي ، وذكر نقول المتكلمين والصوفية فى ذلك ، وتحرير
مسألة ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولى ، وختم الجزء
الأول ببيان الحكمة من بعثة الرسل •

وفى الجزء الثانى من الكتاب تحدث عن عصمة الأنبياء وثبوت
رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفرق بين الرسالة والنبوة ،

وتحدث عن الاسراء وصحته وتوابعه ، كما تحدث عن ختم رسالة
النبي صلى الله عليه وسلم للرسالات. وأنه مبعوث. للخلق أجمعين .

وعقد مبحثا للولاية وما يتفرع عنها ، ومصطلحات الأولياء
كالقطب والأفراد والأوتاد والأبدال والكرامات .

وعقد في كتابه مباحث عن الذنوب وأنواعها والتوبة والغيبيات
ووجوب الايمان بها وعلامات الساعة وما يحدث يوم الحشر والجنة
والنار ...

وللشعراني آراؤه في هذا الكتاب : فلا تلحق نهاية الولي
بداية النبوة أبدا عنده - على خلاف ما نسبته البعض اليه عند الكتابة
عنه - وهذا الرأي أيضا ثابت عنه في مقدمة لطائف المنن حيث
يقول : مقامات النبوة تبتدىء بعد انتهاء مقام الولاية ، فلا تشترك
الولاية مع شيء من أجزاء النبوة . وهو يقول في اليواقيت والجواهر:
ولو أن وليا تقسم الى العين التي يأخذ منها الأنبياء لاحترق وغاية
أمر الأولياء أنهم يتعبدون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم قبل
الفتح عليهم وبعده ومتى ما خرجوا عن شريعة محمد صلى الله عليه
وسلم هلكوا وانقطع عنهم الامداد فلا يمكنهم أن يستقلوا بالأخذ
عن الله أبدا .

وأجساد محبي النبي صلى الله عليه وسلم لا يلحقها التحلل والفناء
في رأيه ، ويقصد بالمحبين الذين خالطت محبة النبي حشاشتهم
حتى سرت في أجسامهم سريان الماء في العود ، ويأخذ هذا الحكم
كذلك كل من أكل الحلال الصرف الذي لا تخالطه شبهة ، وقد شاهد
ذلك بنفسه عمليا في شيخه الشيخ « نور الدين الشونى » وفي
جسه الشيخ « على الأنصاري » حين رأى جسديهما كحالهما يوم
دفنهما بعد سنوت طويلة جدا من وفاتهما .

ويتابع « الشعرائى » الصوفية فى آرائهم التى تقول : ان
أكبر الأولياء بعد الصحابة رضوان الله عليهم هو القطب ، وهو
رجل كامل متخلق بأحسن الصفات وأجملها ، يوفى الروحانية
حقها كما يوفى الطبيعة حقها ، ولا تخلو الأرض من قطب إطلاقاً -
يحقق معنى الخلافة التى أراد الله أن يجعلها للإنسان فى الأرض
« انى جاعل فى الأرض خليفة » - وإذا مات قطب حل محله
غيره . لأن القطب هو محل نظر الله فى الأرض ، وإلى القطب
الأوتاد والأبدال ، والأوتاد أربعة أولياء ، والأبدال سبعة وقد
يكونون أكثر من ذلك .

كما يتابعهم فى أشرط الساعة للتى يوافق على بعضها بعض
المتكلمين ، ومن هذه الأشرط خروج المهدي والدجال ونزول عيسى
ابن مريم وخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها وفتح سد
يأجوج وماجوج ورفع القرآن . وكل الآيات تقع فى المائة الأخيرة
من اليوم الذى وعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بقوله
ان صلحت أمتى فلها يوم وإن فسدت فلها نصف يوم ، يعنى من
أيام الرب المشار إليها بقوله تعالى : وإن يوماً عند ربك كالف سنة
مما تعملون . قال بعض العارفين وأول اليوم محسوب من وفاة
على بن أبى طالب فإن تلك المدة كانت من جملة أيام النبوة .

الا أنه فى هذا الكلام نظر لأن معناه أن القيامة لابد أن تكون
قد قامت على هذا الفهم ، ولكن الأخرى أن يقال كما قال القرآن
الكریم « يسألونك عن الساعة أيا ن مرساها ، قل انما علمها عند
ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم
الا بفتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ولكن
أكثر الناس لا يعلمون » .

والمهدي من ولد فاطمة رضى الله عنها يبايعه المسلمون بين
الركن والمقام ، يشبه الرسول في خلقه ولا يشبهه في أخلاقه -
وله صفات معينة ذكرها « الشعراني » في كتابه .

والكتاب حافل بالأسرار الطريفة والموضوعات القيمة التي
يجد القارئ فيها زادا وافرا يعينه على دينه ودنياه ، ومطرز في
نهايته بتقريظات شعرية ونثرية بقلم علماء عصره وأدبائه .

و « الشعراني » يجدر بهذه التقريظات لا سيما اذا أدركنا
أن هذا السفر الضخم الذى يضم مجلدين ولغرين قد ألف فى دون
شهر ، بالرغم من أن اعتماده فى تأليف الكتاب كله كان على مطالعة
« الفتوحات المكية » التى تحتوى على ستين وخمسمائة باب فى
عدة مجلدات ضخمة وكان يضطر فى كل مبحث الى مراجعة الكتاب
كله ، فكم من المرات قرأ الفتوحات فى هذه الفترة الوجيزة ؟
وكيف تسنى له كتابة مؤلفه هذا مع ذلك ؟ المهم الا اذا كان هذا
من قبيل الكرامات التى يمن الله بها على من يشاء من عباده فيبارك
لهم فى أوقاتهم حتى ينجزون الكثير فى الوقت القصير . وقد
رأينا فيما سبق أنه استطاع أن يطلع على « مدونة مالك » فى جزء
يسير من الليل ويعلق على هوامشها جميعها بما يفيد الاطلاع
والفهم ، وكان زبدة هذا التعليق تأليف كتاب له يسمى « مختصر
مدونة مالك » وقد قال الشيخ « شهاب الدين بن الشلبى » عن
كتاب « اليواقيت والجواهر » : اجتمعنا على خلق كثير من أهل
الطريق فلم نر أحدا منهم حام حول معانى هذا المؤلف .

ويقول شيخ الاسلام « الفتوحى الحنبلى » فيه : لا يقدر فى
معانى هذا الكتاب الا معاند مرتاب أو جاحد كذاب ، كما لا يسعى
فى تخطئة مؤلفه الا كل عار عن علم الكتاب حائل عن طريق

للمصواب ، وكما لا ينكر فضل مؤلفه الا كل غبى حسود أو جاهل
جحود .

وقال عنه « شهاب الدين الرملى » : هو كتاب لا ينكر فضله
وغير هذه الأقوال مما يدل على اعتراف كامل بفضله
« الشعرانى » الذى لا يخلو كتابه اطلاقا من فائدة . تعين العالم
والمتعلم وبخاصة فى الغيبيات التى يخفى أمرها على أغلب الناس
وفى الاطلاع عليها فائدة جليلة لتنبيه الأذهان وتصحيح العزائم
وتقوية الخواطر واصلاح النفوس وتهذيب القلوب . ولا يقدر
فى هذا الكتاب ما ورد فيه حول بعض الأمور الغيبية فانها من قبيل
الاجتهاد ولمجتهد حظه من الفضل والتقدير .

لوائح الأنوار القلمية فى العهد المحمدية

كان الباعث على تأليف هذا الكتاب ناحية نقدية عند
« الشعرانى » فهو كما يقول : رأى الاخوان يفتشون على ما نقص من
دنياهم ولم ير أحدا منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه
الا قليلا ، فدفعه ذلك الى تنبيههم على ما نقص من أمور دينهم حتى
يعرفوا ما لهم وما عليهم ويجتهدوا فى تلافى النقص وتحصى
الكمال .

وقد بنى « الشعرانى » كتابه على قسمين رئيسيين . القسم
الأول فيه بيان لما أدخل الناس به من المأمورات ، والقسم الثانى
فيه بيان لما أدخل به الناس فى اجتناب المنهيات .

وقد بدأ بالمأمورات رغم أن الواقعين فى المحظورات أكثر جريا
على الأصل فى الترتيب اذ المعروف أن الطاعات أصلية والمعاصى
عارضه فالترتيب اذن طبيعى .

و « الشعرائى » فى كتابه هذا صاحب بصيرة ثاقبة فى النقد ومعرفة أدواء المجتمع على غير ما اتهمه بعض المستشرقين من أن عقليته خلت من روح النقد ، والمتتبع لما جاء فى الكتاب يراه وقد تغلغل فى صميم المجتمع المصرى وعرف كل خباياه وأسراره فلم يغفل ناحية إلا وكان له فيها حديث وتوجيه .

وقد اعتنى « الشعرائى » فى هذا الكتاب - بصفة خاصة - بمجتمع العلماء ومجتمع الصوفية وتقدهما نقدا يدل على خبرة ودراية .

فمن ذلك مثلا - عند حديثه عن العهد الذى أخذ عليه بالزهد فى الدنيا والترغيب فى الايثار والجود . . يفيض فى ضرورة الالتزام به من جانب العلماء والصوفية بصفة أخص نظرا لأنهم قدوة الناس فى هذا الشأن ، ولذلك ينحى عليهم باللائمة قائلا : وهذا العهد قل العمل به بين الناس حتى العلماء ومشايخ الزوايا - فقد اكتفوا بالتوسعة على أنفسهم فى المطعم والملبس وللنكاح فهم يتزوجون من سراة الناس وأغنيائهم ويفضلون الجميلات ويؤثرون أنفسهم بالطيبات فى كل شئ ، حتى أنهم ليأثفون من ركوب سوى الخيل المظهمة ، وقد رأى بعض من يدعى الإصلاح والفقر لا يريد ركوب الحمار ، ويقول : أنا أستحي فى مصر أن أركب حمارة وأمر بها فى الطريق مع أنه متعمم بالصوف وله عذبة وشعر (يقصد لحية) وكان هذا الشيخ يفتخر قائلا الدنيا فى يدنا لا فى قلبنا . وفى مرة أرسل اليه « الشعرائى » فقيرا ضريرا معيلا يسأله شيئا فرده أقبح رد ، فقال له الضرير : قأين - اذن - ما ادعيتك أمام فلان بأن الدنيا فى يدك لا فى قلبك ؟ فبهت الشيخ ولم يحر جوابا .

ويقص « الشعراني » قصة أخرى عن أحد هؤلاء الذين يدعون الصلاح والولاية والزهد من أنه جمع مالا كثيرا وكان لا يبدو على مظهره شيء ومن ذلك ، وفي يوم ذهب ابن ذلك المدعى الى « الشعراني » يشكو لليه أباه وتقتيره . فقال له « الشعراني » لعل أباك يؤثر الفقراء عليكم . فقال الابن : لو كان هذا حاله لما كنز عنده الأموال الكثيرة في أماكن سماها بالمنزل ، فتعجب « الشعراني » من ذلك .

وقد لهتم « الشعراني » في كتابه بالعهود التي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من واقع رسالته التي أبلغها للناس وأشهد عليها بقوله - عليه الصلاة والسلام - ألهل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، وهذه العهود هي جملة أوامره الشريفة وسنته المطهرة قولاً أو فعلاً أو تقريراً وكلها لا تخرج عن الرغبة للكمال في تطهير الانسان وتزكيته وتزيينه بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة مبتدئاً في ذلك بالوفاء وإخلاص النية في العلم والعمل وسائر الأحوال - وتحري الإخلاص ما أمكن أمر مهم جداً اعتنى به وأفرد له حديثاً طويلاً مكرراً - واتباع السنة المحمدية في الأقوال والأفعال والعقائد ، واقفاً في ذلك عند حدود الكتاب واللسنة والاجماع والقياس ولا يلجأ الى الاستحسان الا بعد استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم تأدياً مع ذلك العالم الذي لمستحسن هذا الأمر الذي يقبل عليه ، وذلك خوفاً من الابتداع في السنة .

وقد تناول « الشعراني » في هذا الكتاب كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالانسان في خاصة نفسه أو في علاقته بمجتمعه . كان يقول : أخذ علينا العهد أن نتصدق بالثوب الخلق ، أو نبقى الشيب باللحية ، أو نكتحل بالائم ، أو نسمى في بدء الطعام ، أو نؤثر غيرنا بأطاييب الطعام اذا كانوا ضيوفاً علينا ، أو نجتمع

على الطعام مع الأهل والايوان فانه أدعى للبركة ، أو نختار الجليس الصالح ، أو نميط الأذى عن طريق المسلمين سواء كان أذى محسوسا أو أذى معنويا ، والأذى المحسوس ما يعترض الناس فى طريقهم من أحجار أو قاذورات أو نجاسات وغير ذلك ، والأذى المعنوى ما يعترضهم من شبه فى دينهم ودنياهم أو اشكالات أو خلافات ونحوها •

وهناك أمور دقيقة قد لا تخطر لأحد على بال ولكن فعلها يترتب عليه أمور خطيرة تعود على الإنسان نفسه أو تعود عليه وعلى غيره قد تنبه « الشعرائى » لها ونبه عليها كاستعمال السواك مثلا • فهذا أمر يعود نفعه على الشخص فى صحته ونظافته وسلامته من الأمراض ، وكالتنظف والاعتسال المستمر الذى يعود نفعه على الشخص وعلى مجاوريه الذين لن ينفروا منه بل يأنسون اليه ويقبلون عليه ويتعاملون معه مادام نظيف الثياب والمظهر • وهذا أدب اجتماعى نبيل • وكما يعتنى بالنظافة الحسية يعتنى بالنظافة المعنوية لما يترتب عليها من اقامة المجتمع على أسس سليمة متعاونة ، هذه الأمور الدقيقة فطن لليها « الشعرائى » وأشار اليها فى كتابه ، ووضح الخطر الناتج عن اهمالها ان كانت من الأوامر وعن فعلها ان كانت من المنهيات • وهو فى الوقت نفسه ينبه الى ما كان يتحلى به النبى صلى الله عليه وسلم من حرص كامل على ارشاد أمته الى تحقيق كمالها فى الدنيا والآخرة •

وهناك كتاب آخر للشعرائى يشبه هذا الكتاب هو « البخر المورود فى المواثيق العهود » وهو الكتاب الذى أثار بعض العلماء فى الأزهر ضد « الشعرائى » وزيفوا عليه فيه بعض النصوص واضطر الى مواجهتهم بنسخته الأصلية التى وجبت مبرأة مما دس عليه فيها من افتراءات ، وقد أشار هو الى ذلك فى مقدمة كتابه

كما أشار إليه في بعض تأليفه الأخرى . والعلاقة بين هذين الكتابين « لواقح الأنوار القدسية ، والبحر المورود » أن كلا منهما يدور حول ما يجب أن يأخذ المريد به نفسه من أمور ، وما يجب أن يدع من أمور أخرى حتى يصل إلى الكمال الروحي المنشود .

والفرق بينهما أن العهود في « لواقح الأنوار القدسية » مستقاة من حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، من حيث انها وصاياه لأمتة وعهوده عليها التي كانت ثمرة رسالته في مدة ثلاث وعشرين سنة قضاها نبيا ورسولا بين ظهرانيهم .

أما عهود « البحر المورود » فهي - كما يقول « الشعراني » أخذها عليه مشايخه الذين أدركهم في أول القرن العاشر ، وقد أحب أن يرقمها في هذه الطروس رجاء النفع بها ، وهي محررة على ضوء الكتاب والسنة تحرير الذهب وللجوهر حسب طاقته .

وهناك فرق آخر يظهر في نوعي العهود ، هو أن عهود « لواقح الأنوار القدسية » مبنية على التيسير ولستعمال الرخصة استنادا إلى الأثر : ان الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه . أما عهود « البحر المورود » فهي مبنية على العزيمة ، لأنها تريد أن تبني شخصية قوية متكاملة لا تركز إلى للسهل من الأمور ، بل تقبل على الصعب منها بعزيمة قوية وإرادة صلبة .

ومن جملة هذه العهود الأخذ بالزهد والتشديد فيه وعدم الميل إلى المباح والركون إليه ، وصدد النفس عن الاقبال على المدح والرغبة فيه شعرا كان أو نثرا - وصدها عن قبول الهدايا والميل إليها لا سيما إذا كانت من شخص يعلم من القرائن أن هذه الهدية لها قدر عظيم في نفسه ، ذلك لأن تعظيم الهدية دليل على راحة بخله وطعام البخل داء ، وغير ذلك مما يدرك منه مدى علم الشعراني بأغوار النفوس وأسرارها ومعرفة ما يبطن فيها من

نزعات يدق فهمها على الكثير . وندرك كذلك قدرته على السياسة التي يجب أن يؤخذ بها المریدون حتى یصل بهم الى الكمال والرقى .

و « الشعراني » فى أسلوبه سهل یصل بسرعة الى الافهام ، لا تعمل فيه ولا تعقید ، وقد يستعمل فيه الألفاظ العامية اذا رأى فى ذلك ما یعينه على تصوير المعنى بدقة فى عصر كاد المتعلمون فيه یفقدون مفردات اللغة . وفى بيئة یحرص على ارشادها وتوجيهها بالأسلوب الذى یتناسب مع مستواها وهذه هى البلاغة بعینها التى تراعى مقتضیات الأحوال . ولكنه یدافع عن ذلك بقوله : - أخذ علينا العهد اذا ألفنا كتابا أو ألفینا درسا ألا نبالغ فى تحقیق الألفاظ ولا فى مراعاة حلاوة ترکیبها هروبا من مضاهاة كلام الله عز وجل فى الفصاحة والتناسق ، وخوفا على أنفسنا من وقوع الإعجاب بذلك فیهلك أحدا ولا یشعر ، ثم لا یخفى أنه لیس المقصود من كلامنا فى العلم الا ایضاح معانى مشكلاته لا غیر . وكان « الخواص » یقول : ینبغى للعالم اذا ألف كتابا أن یتنزل فى العبارة حتى يفهم كلامه أدنى للعوام ، لأنه أكثر نفعا ، وأیضا حتى یجد الشارح لكلامه توريكا علیه واستدراكا ومطعنا ، وهذا ما درج علیه السلف الصالح .

ورحم الله « الخواص » فانه على أميته كان فى منتهى البراعة فى الفهم والأداء ، وكان له ذوق عال فى معرفة خفايا النفوس لدى العلماء وخفايا كلامهم . ورحم الله تلميذه « الشعراني » الذى تلقى على يديه أصول الحكمة والدراية . فلیتعلم منهما علماؤنا ما یجب أن یكون علیه العالم المتواضع للذى یجب ألا ینتظر من نفسه أن یبیز السابقین واللاحقین فى علمه وأسلوبه ، وأن یتترك فرصة لغيره فلا یسد علیه الطريق فى الدخول والوصول .

وكتاب « البحر للمورود » مطبوع على هامش « لواقح الأنوار القدسية » وكلاهما فى حاجة مع غيرهما من كتب « الشعرانى » ، الكثيرة الى عناية الناشرين والمحققين ، وفى العناية بها بعث لهذه الكتب الجليلة التى احتفلت بشئون الناس ومجتمعهم كما اهتمت بوصولهم الى أسمى الغابات •

لقد لفت « الشعرانى » بكتبه نظر الباحثين فى أمور المجتمع وجعله بعضهم خير أستاذ فى ذلك ، ولهذا نرى الدكتور « ذكى مبارك » يتخذ من هذه الكتب مرجعا يصور منها كيف كان مجتمع المصوفية فى القرن العاشر ويقول فى ذلك : ان كتب الشعرانى تعد وثيقة هامة تصور المجتمع المصرى فى القرن العاشر الهجرى وهو من كبار الباحثين فى الآداب العملية ، ولازالت آراؤه تسيطر على الجماهير فى بلادنا ، وآداب المريد التى وضعها تعد من أهم الآداب التى تركت أثرا بعيدا فى صفوف المتصوفة « (١) •

وكتاب « لواقح الأنوار القدسية » وهامشه « البحر المورود » من أروع ما كتب فى التصوف ويعدان من الكتب التى لم يسبق اليها ، ويقرر « الشعرانى » ذلك بنفسه فى مقدمة كتابه قائلا : هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد الى وضع مثاله ، ولا أظن أحدا نسج على منواله ، ضمنته جميع للعهد التى بلغتنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل المأمورات وترك المنهيات •

وفى الواقع يعد الكتاب احصاء دقيقا لذلك يحتاج الى صبر طويل ومتابعة كاملة • ما احوح الناس الى تصفحها لا سيما فى تلك الأيام التى يتحتم علينا فيها ترسم للمثل الكاملة والقيم النادرة •

(١) الصوف الاسلانى فى الادب والاخلاق ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ •

الا أن هذه المثل لا يمكن أن يتخلق بها أي انسان ما لم يتخذ له شيخا يرشده اليها ويعرفه أسرارها ، وشروط هذا الشيخ سبق للإشارة اليها ، و « الشعرائى » فى كتابيه هذين : « لواقح الأنوار ، والبحر المورود » يلج كثيرا على ضرورة الشيخ ، فكل عهد يذكره يعقب عليه بقوله وهذا العهد لا يمكن تحقيقه الا بوسيلة شيخ كامل . كما يقول فى مقدمة « لواقح الأنوار » : لابد للمريد لتنفيذ هذه العهود من شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقه الموانع ، وقراءة هذه العهود لا تكفى وحدها بدون شيخ فانه لا يلزم من معرفة الفقيه بالأحكام والأصول الوصول الى العمل بها ، بل يحتاج مع ذلك الى شيخ يريه معالم الطريق كما وقع للغزالي والعز بن عبد السلام .

ويؤكد ذلك بقوله : وهذه العهود التى فى الكتاب لابد لها من شيخ وكل من لم يتخذ له شيخا يرشده الى الخروج من الآفات فهو عاصى لله ، لأنه لا يهتدى لطريق العلاج ولو حفظ ألف كتاب فى العلم ، فهو شأنه كمن يحفظ كتابا فى الطب ولا يعرف كيف ينزل الدواء على الداء .

رحم الله « الشعرائى » وجزاه عن اجتهاده ونصحته خير الجزاء .

● خاتمة

مكث « الشعرائى » فى زاويته التى أسسها على تقوى من الله ورضوان ، يعمرها بالذكر والعلم والعبادة ، ويحج إليها الآلاف من المريدين والفقراء والطلاب والعلماء والأمراء والأعيان يأخذون حظهم الوافر من العلم والعبادة والتقرب ، ويستروحون نسائم القرب من الله والتحبب إليه ، وهو لا يفتر عن الجهاد والعبادة والدعوة إلى الإصلاح والقيام بالانصاف . حتى حانت وفاته ، بعد أن أصيب بالفالج فى عصر اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة .

ومكث مريضا به ثلاثة وثلاثين يوما ثم توفى بعد عصر يوم الاثنين الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة النبوية الشريفة .

وحمل فى اليوم التالى على الأعناق إلى مصل الجامع الأزهر فى مشهد حافل جدا ، فقد اجتمعت الحلائق لموته ، وتقدمهم نائب السلطان ومن يليه من أعيان مصر وأمرائها وقوادها وقضاةها وعلمائها وفقهاها وطلابها ومتصوفها وعامة الناس ، يحكى صاحب « الدرر المنظمة » قائلا : - ولم أر مشهدا سابقا لعالم أو ولى كمشهده ، ولا جمعا كجمعه ، ودفن بملفن بنى له بجانب زاويته فى حال تمرضه . وفتح له باب منها ، وكان قد كمل بناؤه فى وقت صعود روحه إلى بارئها (١) .

(١) الخطط التوفيقية .

وكان قد تبرع ببناء هذا المدفن أحد تلاميذه الذين أعجبوا به
وتأثروا بمبادئه تأثرا شديدا ، وهو « حسن بك الصنjq » .

وقد طويت بوفاته صفحة عالم صوفى محقق وقف حياته على
خدمة العلم والدين والتصوف والمجتمع ، وقد من الله عليه بأن
أراه مقامه فى الجنة قبل وفاته فى رؤيا منامية استيقظ على أثرها
ينشد أبياتا يتغنى فيها بذلك للفضل الالهى العظيم الذى ظله
وكساه حلل الجمال والاشراق وكان من هذه الأبيات : -

أحبكم لا لشيء فى الوجود ولا
أرجو سواكم ولا أبغى بكم بدلا
يا سادة غمرونا من فضائلهم
والبسوا ذاتنا للتيجان والحللا

رحمه الله ورضى عنه .

ولئن كان لنا أن نتعلم من سيرة هذا الامام فاننا - فى مقدمة
ما نحتاج اليه فى عصرنا الراهن - نتعلم كيف يرتفع الانسان
على نفسه ، ويتصاعد عن مستوى ما يراه من صفائر يشغل الناس
أنفسهم بها ويضيعون أوقاتهم سدى فيها .

لقد حدد هذا الامام هدفه وانطلق نحوه لا يلوى على شيء ،
وكان فى تحرير هدفه يعتمد على روح صافية وعزيمة صادقة ،
ونحن محتاجون الى ذلك . محتاجون الى تحرير الغاية والوصول
اليها بوسائلها المشروعة التى يحكمها للورع ويحرسها الايمان
ويحققها العزم القوى والارادة الصلبة .

لقد وضع « للشعرانى » - رحمه الله للمصلحين نبراسا فى
الاصلاح يستنبطون به ويهتمون بهديه ، ولنا أن نتعلم منه كيف

يؤتى الاصلاح آكله عن طريق القدوة الطيبة والخلق الكامل ، فهمنا
وضيح المصلحون من برامج ووقفوا من جهود واخترعوا من
وسائل فكل ذلك لن يؤتى آكله مادامت القدوة الطيبة تعوزهم ،
والحياة حافلة بما يصدق ذلك ، ولسنا فى حاجة الى ضرب الأمثلة
عليه .

لقد آن لنا أن نأخذ فى حياتنا المدرس والعبرة للاحتفال بالقيم
والمثل . وأن نجعلها تحتل من قلوبنا وأرواحنا مكانة تجدر بها ،
وأن يكون لعلمائنا وأساتذتنا وتاريخنا منزلة عظمى فى نفوسنا
حتى يعصمنا ذلك عن الجرى فى تيار التقاليد المستحدثة التى تقضى
على المقومات وتعصف بالأخلاق ، وتحرق فى طريقها شبابا نلخره
لخير الدين والوطن .

ان شبابنا فى حاجة ماسة الى الحرص على الوقت والصبر
على الدرس ومعاناة العلم وعدم الوقوف عند غاية قريبة منه -
فالعلم بحر لا ساحل له ، وقد رأينا كيف كان « الشعرائى »
يحرص حرصا زائدا على الانتفاع بكل دقيقة فى حياته فى مسجبل
تحصيل العلم والمعرفة يقول فى « الميزان » : كنت أطالع الجزء
للکامل من شرح المذهب أو المهمات وأكتب زوائده على درس فى
الروضة فى ليلة واحدة ، وكان غالب أقرانى يظن أننى تركت
الاشتغال بالعلم لكونى كنت لا أحضر دروس أشياخهم ويقولون :
لو أن « فلانا » دام على الاشتغال بالعلم لكان من أعظم المفتين فى
مصر الآن ، وكنت أحضر دروسهم فى بعض الأوقات فلا أثب
ولا أتکلم ولا أستشکل مسألة من المسائل لكونى أعرف
النتقول فيها .

وقبل هذه العبارة سرد « الشعرائى » قائمة الكتب التى
طالعها ودرسها وجعلها ، وهى قائمة تكاد تفوق العد والحصر .

كان « الشعراني » حريصا حقا على طلب العلم ، وفي إحدى حجاته وقف تحت الميزاب في الحجر وسأل الله تعالى الزيادة في العلم فسمع قائلا يقول له من ناحية الميزاب : أما يكفيك أن الله تعالى أعطاك ميزانا للشريعة لم تجد لها ذائقا من علماء عصرك - فقال : الحمد لله رب العالمين على ذلك .

فالشعراني - رحمه الله - مثل يمكن تقديمه للطالب لينتفع به كيف يجب على المتعلم أن يحرص على وقته ، وللعالم لينتفع به كيف يجب أن يكون متواضعا غير مغتر بعلمه ، فالغرور بالعلم مزلق خطير للعلماء ، وللمصلح لينتفع به كيف يكون قدوة لغيره في اصلاحه ، وللمتصوف لينتفع به كيف يحرر مجاهداته على الورع ويحل نفسه بالزهد وينقى خلقه من الرياء ويرتفع على مستوى السعة والشبهات ، لأن مبنى التصوف على الخلق الفاضل الكريم .

ان حياة « الشعراني » حلقات متماسكة من الخير والجمال ، فأحرى بنا أن نقتفى أثر هذه الشخصية المتكاملة ، لنصل بديننا وخلقنا ومجتمعنا ووطننا وشبابنا الى أرفع مستوى للكمال المنشود .
والله خير موفق ومعين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
كثيرا .

الثلاثاء ٢٢ من رمضان ١٣٨٩ هـ

٢ من ديسمبر ١٩٦٩ م

عبد الحفيظ فرغل على القرني

● المراجع

- ١ - لطائف المنن والأخلاق - للشعراني
- ٢ - لواقح الأنوار القدسية - للشعراني
- ٣ - الطبقات الكبرى - للشعراني
- ٤ - اليواقيت والجواهر - للشعراني
- ٥ - البحر المورود - للشعراني
- ٦ - الجواهر والدرر - للشعراني
- ٧ - آداب العبودية - للشعراني
- ٨ - الميزان الشعرائية - للشعراني
- ٩ - تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر الى ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر - للشعراني
- ١٠ - احياء علوم الدين - للغزالي
- ١١ - عالم الجن والملائكة - للاستاذ عبد الرازق نوفل
- ١٢ - الكواكب الدرية - للمناوي
- ١٣ - الشعراني - للدكتور توفيق الطويل
- ١٤ - التصوف الاسلامي والامام الشعراني للمرحوم طه عبد الباقي سرور
- ١٥ - التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق - للدكتور زكي مبارك
- ١٦ - الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي

- ١٧ - المناقب الكبرى - لأبى صالح محمد المليجي اشافعي
١٨ - شذرات الذهب - لابن العماد
١٩ - الخطط التوفيقية - لعل مبارك
٢٠ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - لابن اياس
٢١ - خطط المقرئى - للمقرئى
٢٢ - تاريخ أدب اللغة - لجورجى زيدان
٢٣ - سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى
لعبد الملك بن حسين العصامى المكنى
٢٤ - مصر فى القرون الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى
للدكتور على ابراهيم حسن
٢٥ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى
للاستاذ محمود رزق سليم
٢٦ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى
للمستشرق زامبادر
٢٧ - مساجد ومعاهد - دار الشعب
٢٨ - هدية العارفين - للبغدادى
٢٩ - معجم المؤلفين - لعمر رضا كعالة
٣٠ - كشف الظنون - لحاجى خليفة
٣١ - الاعلام - لخير الدين الزركلى
٣٢ - معجم المطبوعات العربية والمصرية - ليوסף البان سركيس
٣٣ - دائرة المعارف الاسلامية •

فهرس

| الموضوع | المصفحة |
|--|---------|
| تقديم بقلم المؤلف له فضيلة الامام الاكبر الدكتور | |
| عبد الحليم محمود « شيخ الجامع الأزهر الأسبق » | ٥ |
| مقدمة الكتاب | ٩ |
| ملاح العصر والبيئة | ١١ |
| نسبه ومولده ونشأته | ٢١ |
| رحلة الشعراني الى القاهرة : - | ٣٤ |
| طلبه العلم - أساتذته في الطلب - حرصه على | |
| العلم - مكانته في العلم - بين العلم والتصوف - | |
| شيوخه في الطريق - في مدارج الكمال - في | |
| مدرسة أم خوند - زاوية الشعراني - مكانة الزاوية | ٥٠ |
| الشعراني ورجال الأزهر : - | ٧٣ |
| الشعراني والشرية - الامعان في المصومة | |
| للشعراني | |
| اخلاق الشعراني | ٨٤ |
| المصلح الاجتماعي : - | ١٠٤ |
| الشعراني والحاكم - الشعراني والمحكوم - | |
| الشعراني والعادات والتقاليد - الشعراني | |
| والمذاهب | |

| | | |
|-----|-----------|--|
| ١٣٦ | • • • • • | في محراب التصوف : - |
| | | بين يدئ شيوخه - الشعراني والخواص - مع |
| | | الشيخ الراحلين (في صحبة ابن عربي) - ثمار |
| | | العلم والمعرفة - تصوف الشعراني - مأخذ والرد |
| | | عليها - أذواق وآراء |
| ١٨٦ | • • • • • | أضواء على بعض مؤلفاته : - |
| | | اليواقيت والجواهر - لواقح الأنوار القدسية في |
| | | المهود الحميدية - البحر المورود في الموائيق |
| | | والمهود |
| ٢٠٢ | • • • • • | خاتمة |
| ٢٠٦ | • • • • • | المراجع |

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٤١٧٠

ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٠٦٦٠ - ٧